الأدب الإسلامي

ومواكب النور

تأليف

د. عبد العزيز شرف

أستاذ الإعلام الإسلامي



دار الجيل

بيروت

الأدب الإسلامي

ومواكب النور

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

الاهداء..

إلى أبي

الشيخ محمد السيد شرف

أهدي هذه الشوارد

في الأدب الاسلامي..

د. عبد العزيز شرف

الأشكال الاتصالية في الدعوة الاسلامية

اتسمت الأشكال الاتصالية في صدر الدعوة الاسلامية بالطابع الشخصى والجمعي والحضاري، وقد تحدّثنا عن رسول الله ﷺ كداعية أمثل في إطار نظرية الوحي التي تمثل نظرية متكاملة للاتصال، وسوف نتحدث هنا عن الاتصال الشخصي الذي يتحقق في الجماعات الأولية التي يرتبط أفرادها بعلاقات شخصية ويتم فيها الاتصال بالمواجهة ـ سريّة كانت أو علنيّة.

الاتصال الشخصي في الاعلام الاسلامي:

ذلك أن الرسول ﷺ لم يجهر بالدعوة إلا بعد أن أمره الله سبحانه وتعالى بأن ينذر عشيرته الأقربين، وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره واستتر به الى أن أمره الله تعالى باظهار دينه، ثلاث سنوات تمثل المرحلة السريّة في الاتصال الشخصي بعد نزول الوحى... اذ قال عز وجل ﴿فاصدعْ بما تُؤْمَرُ وأَعْرِضْ عن المشركين﴾[١] وقال جل جلاله ﴿وانذرْ عشيرتَك الأقربين ۝ واخفضْ جناحَك لمن اتبعكَ من المؤمنين﴾[٢].

ومن ذلك يتضح ان هاتين المرحلتين السريّة والعلنية، كانتا تستندان الى الاتصال الشخصي الذي يكون بطبيعته بين أفراد العشيرة والأقربين من الأهل والصحاب.

---

(١) سورة الحجر آية ٩٤

(٢) سورة الشعراء الآيتان ٢١٤ ـ ٢١٥.

فقد اعتمد رسـول الله ﷺ في الاتصال الشخصي بمن يثق ويـطمئن اليهم، كزوجته خديجة رضي الله عنها، وابن عمه علي كرم الله وجهه، وصديقه أبي بكر، ومولاه زيد بن حارثه، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقّاص، وطلحة بن عبيد الله، وأبو عبيدة بن الجراح، وأبي سلمة بن عبد الأسد، وزوجته أم سلمة، والأرقم بن أبي الأرقم، وعثمان بن مظعون، وغيرهم من الصفوة الأبـرار رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين.

ولقد كان الاتصال يتمّ خفية وبعيداً عن أعين المشركين من قريش، وظلّ كذلك سنوات ثلاثاً أثمرت فيها الدعوة غرسها، وأصبح حـول رسول الله واحد وخمسون مسلماً يمثلون أوائل الدعاة في الاسلام وللاسلام، وهم الذين نزلت فيهم الآية الكريمة ﴿**والسابقون السابقون * اولئك المقرّبون**﴾[٣].

وقد تضمّنت المرحلة السرية هذه صفحات مشرفة لكل واحد من هؤلاء؛ فأول من أسلم كانت أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وأرضاها، وقد احتضنت الدعوة في بدايتها منذ هبط الوحي على النبي ﷺ وكلّنا يعرف موقفها حينما جاءها وهو يرتجف فطمأنته، ثم آمنت به وصدقت بما جاءه من عند الله، وآزرته على أمره فخفف الله بذلك عن نبيه ﷺ وقد أرسل اليها سبحانه وتعالى تحية طيبة مباركة من السماء، فقد أمر نبيه أن يخبرها على لسان جبريل بأنه عز وجل يقرئها السلام وان لها بيتاً في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب.

أما علي بن أبي طالب فكان في حجر رسول الله ﷺ قبل الاسلام، ويذكر ابن هشام ان رسول الله كان اذا حضرت الصلاة خرج الى شعاب مكة، وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفياً من أبيه أبي طالب ومن جميع

---

(٣) سوره الواقعة الآيتان ١٠ ـ ١١

أعمامه وسائر قومه، فبصليان الصلوات فيها، فإذا أمسا رجعا فمكثا كذلك ما شاء الله ان بمكثا. وقد عثر عليهما أبو طالب يوماً وهما يصلبان ففال لرسول الله «يا بن أخي ما هذا الدين أراك ندين به؟ فأجابه ﷺ (أي عم... هذا دين الله ودبن ملائكته ودين رسله ودبن أبينا ابراهيم ـ أو كما قال ـ ﷺ بعثني الله به رسولاً الى العباد، وأنت أي عم أحق من بذلت له النصيحة ودعوته الى الهدى وأحق من أجابني اليه وأعانني عليه) ففال أبو طالب «أي ابن أخي، اني لا أستطيع أن افارق دبن آبائي وما كانوا عليه، ولكن والله لا بخلص اليك بشيء تكرهه ما بقيت».

وقال ابن هشام ان أبا طالب قال لابنه علي «أي بني ما هذا الدين الذي أنت عليه؟ فأجابه «يا أبتي، آمنت بالله وبـرسول الله وصدقته بما جاء به وصلّيت معه لله واتبعته». فقال أبو طـالب «أما انـه لم يدعك الا الى خير فالزمه».

وأما زيد بن حارثة فقد أسلم كذلك فور نزول الوحي على الرسول ﷺ وصلّى معه، يقول ابن هشام ان زيداً كان رقيقاً على عادة الجاهلية اشتراه حكيم بن حزام، ثم وهبه لعمته خديجة رضي الله عنها فوهبته بـدورها الى زوجها قبل البعث. فأعتقه ﷺ وتبنّاه الى أن انزل الله عز وجل ﴿**ادعوهم لآبائهم**﴾[٤] وقد بلغ من حب رسول الله لزيد ان ناداه الناس «بحبب رسول الله». وقد دخل زيد في الاسلام فور دعوة رسول الله له فكان من الأوائل الذين صدقوا به وآمنوا معه.

وكان أبو بكر بن أبي قحافة التيمي صديقاً حميماً لمحمد ﷺ، وكان يقدر أمانته ونزاهته وصدقه وحبـه للعدل والحق. وكـان رسول الله يبـادله الحب والتقدير ويعتز بصداقته ويفضي اليه بأسراره، ولذلك كان أبو بكر أول من تلقى تفاصيل الوحي من رسول الله ﷺ.

---

(٤) سورة الأحزاب آيه ٥

ولم يتردد أبو بكر لحظة واحدة في التصديق والدخول الى الدين الحق. وقد أعلن اسلامه ودعا الى الله والى رسوله، وقد استجاب الكثيرون الى الاسلام بدعوته لأنه كما يقول ابن هشام كان «رجلاً مألفاً لقومه محبباً سهلاً، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بقريش وما كان فيها من خير وشر، وكان رجلاً تاجراً ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يفدون اليه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته - فجعل يدعو الى الله والى الاسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس اليه.

أما الاتصال الشخصي في المرحلة العلنية فقد توسّل بالقرآن الكريم والقدوة الحسنة الى جانب الأحاديث النبوية الشريفة.

يقول الرواة: ان النبي ﷺ بعد ان أمر بالجهر وانذار عشيرته الأقربين وخفض جناحه للمؤمنين، جمع بني عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلاً فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب، فقدم لهم طعاماً صنعه لهم ثم قال (خذوا باسم الله) فأكل القوم حتى ما لهم بشيء حاجة، ثم أراد رسول الله أن يكلمهم فبدره أبو لهب الى الكلام فتفرق القوم ولم يكلمهم. وفي اليوم التالي أمر علياً فصنع لهم طعاماً ودعاهم الى المائدة مرة أخرى، فحضروا وأكلوا هنيئاً وشربوا مريئاً. ثم تكلم رسول الله فقال (يا بني عبد المطلب اني والله ما أعلم رجلاً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به. اني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم اليه). ويقول الطبري «صعد رسول الله ﷺ ذات يوم الصفا فقال (يا صباحاه!). فاجتمعت قريش فقالوا «مالك؟» قال ﷺ (أرأيتم ان اخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أما كنتم تصدقونني؟). قالوا «بلى». قال (فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد). فقال أبو لهب «تبا لك... الهذا دعوتنا وجمعتنا؟» فأنزل الله عز وجل ﴿تَبَّتْ يدا أبي لَهَبٍ وتَبَّ﴾[٥].

---

(٥) سوره المسد أيه ١

وهكذا يتبين لنا أن الرسول ﷺ قد توسّل بكل الوسائل التي تحقق أهداف الاتصال الشخصي، فقد دعا قومه الى طعامه مرتين، وأقام لهم حفلاً وتحدث اليهم بلطف ولين، ولم يكن فظاً غليظ القلب. ثم قدم لحديثه بأسئلة يعرف اجابتها مقدماً، وذلك ليستدرج القوم لما يريد ويمهد للأمر في نفوسهم.

ولولا معارضة أبي لهب له لانصاع الناس لقوله وآمنوا جميعاً به. ولكن هذه المعارضة في حد ذاتها جاءت لتؤكد أن الأمر ليس أمراً عائلياً أو عصبية أسرة أو اجماع قبيلة تريد أن تسود وأن يكون لها الأمر الدنيوي، ولكنها رسالة رب العالمين الى الناس كافة.

وروى مسلم عن أبي هريرة ان رسول الله ﷺ حين نزل عليه قوله تعالى ﴿وانذرْ عشيرتَك الاقربين﴾[٦]، وقف وقال (يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئاً... يا بني عبد المطلب لا أغنى عنكم من الله شيئاً.. يا صفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً.. يا فاطمة بنت رسول الله سليني ما شئت من مال لا أغنى عنك من الله شيئاً). وهذا الحديث مخرج على شرط البخاري، وروى مثله الإمام أحمد في مسنده.

ولقد جاء في التاريخ الكبير لابن الأثير «لما أنزل الله تعالى على رسوله ﴿وانذرْ عشيرتَك الأقربين﴾[٧]، اشتد ذلك على النبي ﷺ وضاق ذرعاً فجلس في بيته كالمريض، فأتته عمّاته يعدْنه فقال (ما اشتكيت شيئاً ولكن الله أمرني أن أنذر عشيرتي). فقلن له «فادعهم ولا تدع أبا لهب فيهم فانه غير مجيبك. فدعاهم ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف فكانوا خمسة وأربعين، فبادرهم أبو لهب فقال «هؤلاء عمومتك وبنو عمك، فتكلم ودع الصبأة، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة وأنا أحق من أخذك فحبسك.. وان أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون

---

(٦) سورة الشعراء آية ٢١٤

(٧) سورة الشعراء آية ٢١٤

قريش وغيرهم من العرب. فما رأيت أحداً جاء على بني أبيه بشر مما جئتهم به». فسكت رسول الله ﷺ ولم يتكلّم في هذا المجلس.

وكان رسول الله ﷺ حكيماً غاية الحكمة، مدركاً تمام الادراك لابعاد الموقف الاتصالي وما تمثّله معارضة أبي لهب من معوقات اتصالية أمام الدعوة الجديدة. لهذا بادر بالصمت وأرجأ الحديث الى مجال آخر لا يكون فيه هذا الجو الذي شحنه أبو لهب بالمعارضة.

فلما أتيحت له الفرصة وتهيأ له المجال الاتصالي المناسب، قال ﷺ (الحمد لله أحمده واستعينه واثق به وأتوكّل عليه، وأشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له). ثم قال (ان الرائد لا يكذب أهله، والله الذي لا اله الا هو اني رسول الله اليكم خاصة والى الناس كافة. والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، وانها للجنة أبداً أو للنار أبداً).

ولقد أفحم أبو لهب بهذا القول فلم ينطق بحرف، وتكلم أبو طالب فقال «ما أحب الينا معاونتك وأقبلنا لنصيحتك وأشد تصديقاً لحديثك، هؤلاء بنو أبيك مجتمعين وانما أنا أحدهم، غير أني أسرعهم الى ما تحب فامض لما أمرت به، فوالله لا أزال أحوطك وانفعك غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب» وهنا استفز أبو لهب فقال «هذه واللات السوأة.. خذوا على يديه قبل أن يأخذه غيركم». فأجابه أبو طالب بإصرار «والله لنمنعنه ما بقينا».

وتعتبر الأحاديث النبوية الشريفة الدعامة الثانية للاعلام الاسلامي بعد القرآن الكريم. ذلك أن القاعدة الأساسيّة في نظرية الاعلام الاسلامي تقوم على أساس من الثبات في الأصول والتطور في الفروع.

الأحاديث النبوية الشريفة في الاتصال الشخصي والجمعي والحضاري:

والأحاديث النبوية الشريفة تمثل بطبيعتها وسيلة من أهم وسائل الاعلام الاسلامي ذلك أن «الحديث» من حيث المعنى هو أداة اتصالية، فقد

كان لكلمة الحديث معنى عام هو الخبر أو المحادثة ـ دينية كانت أم غير دينية ـ ثم أصبح لها معنى خاص هو ما ورد عن النبي ﷺ من قول أو فعل يروى عنه.

وتأسيساً على هذا الفهم فان الحديث أصبح يطلق عند المسلمين على ما يروى عن الرسول، ويطلق على العلم الخاص به علم الحديث.

واذ كنا قد تحدثنا في الفصل السابق كذلك عن الرسول ﷺ، كمبلغ للدعوة وقائم بالاتصال فيما يصدر عنه من قول وما يروى عن أفعاله انما يمثل الرسالة الاعلامية، والتي نعني بها في هذا الصدد الأحاديث النبوية الشريفة، والتي كان لها طابعان:

أولاً: طابع التعليم والتوجيه والارشاد.

ثانياً: طابع الاعلام والدعوة والتبليغ.

وهذان الطابعان يمثّلان الوظائف الأساسية للاعلام بوجه عام، وللاعلام الاسلامي بوجه خاص.

ومن أحاديث الرسول ﷺ جميعاً نجد تحقيقاً لهذه الوظائف سواء أكانت تستهدف التنشئة الاجتماعية أو التوجيه أو الهداية على النحو المستفاد من الدلالة التي ترتبط بلفظ السنة ذاته، والتي كان المقصود بها عند العرب «النهج القديم المأثور الذي يعتاده المرء في كافة المعاملات». وهذا اللفظ كان له احترامه عند الجاهليين الذين يعتبرون السنة فضيلة من الفضائل[8].

ولّما جاء الاسلام، كان في جوهره ثورة على السنن الجاهلية وما يرتبط بها من وثنية وعادات سيئة وتقاليد ضارة بالمجتمع. وقد استبدل الاسلام سنن الجاهلية وعاداتها وتقاليدها بسنن قوية وعادات سليمة وتقاليد مفيدة يترسمها المجتمع الاسلامي في كل زمان ومكان. ذلك أن الدرس المستفاد من الأحاديث

---

(٨) ص ٤١، ج ١، تعلبق ٨.

النبوية، الى جانب ما أوضحه القرآن الكريم حول الدعوة والتبليغ أن الاعلام الاسلامي انما هو فريضة واجبه يتوجه بها الى العالم كله، لا الى أمة بعينها، وقد جاء عن النبي ﷺ انه قال (نصرت بالرعب من مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من امتي أدركته الصلاة فليصل. وأحلّت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث لقومه خاصة وبعثت للناس عامة)[9].

وقد أكّد القرآن الكريم هذا المعنى في أصول الاعلام الاسلامي، اذ قال تعالى ﴿قلْ يا أيُّها الناسُ اني رسولُ اللهِ اليكم جميعاً﴾[10] فأصبح الواجب اذن على القائمين بالاعلام الاسلامي أن يتخذوا من شخصية الرسول وخلقه، وشخصيات صحابته وخلفهم، مثلاً علىا يترسمونها ويحتلون خطواتها في اداء رسالتهم الخالدة العامة.

واذا كان الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين، قد بذلوا كل ما في طاقتهم في سبيل جمع أحاديث الرسول واخباره لتكون نبراساً للاعلام الاسلامي في كل العصور، فان هذه الأحاديث والاخبار ذاتها كانت في حينها تمثل رسالة اعلامية مباشرة للقوم الذين تخاطبهم، وقد استمرت فعاليتها الى يومنا هذا وسوف تستمر الى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وينقسم الحديث الى: حديث إلهي وهو الحديث القدسي الذي يرويه النبي ﷺ عن ربّه عز وجل، وحديث نبويّ وهو ما تحدث به رسول الله وما روي عنه ﷺ.

وهذان النوعان من الحديث يمثّلان الرسالة الاعلامية المفسّرة للقرآن الكريم، وقد توسّل بها الرسول ﷺ في كل مراحل الدعوة الاسلامية. وقد طبعت بطابع الاتصال الشخصي الشفهي الذي يؤكد علماء الاعلام أنه ناجح

(٩) رواه البخاري ومسلم.

(١٠) سورة الاعراف آيه ١٥٨

في الاقناع، لأنه يتلافى سلبيات الاعلام الأخرى وخاصة مقاومة المستقبل التي تضعف بدورها تأثير الاعلام. فالاتصال الشفهي يتّسم بالحوار والاقناع وتبادل الأفكار، ودحض الحجج والبراهين، ومحاولة التغلب على كل أساليب الاحتجاج مما يجعل المستقبل يؤمن نأميناً قلبياً على الرساله التي تلقاها. بل انه يصبح في أغلب الأحوال داعية لنفس الرسالة بين جماهير أخرى لا يلبث بعضهم أن يتحول بدوره الى دعاة كذلك. وهكذا تدور الدورة الاتصالية في الاعلام الاسلامي.

لذلك لم يكن غريباً أن يتوسّل الرسول ﷺ بالاتصال النسخصي في مراحل الدعوة المختلفة وتبليغ رسالة ربّه الى الناس. ولقد نجح ﷺ نجاحاً باهراً منجزاً شد انتباه غير المسلمين وكل من تصدّى لدراسة حياته والكتابة عنه. وتقول دائرة المعارف البريطانية في مادة قرآن «جاء محمد بدعوة جديدة ـ هي دعوة الاسلام ـ وكان هذا الرسول أفضل الأنبياء، والنسخصيات الدينية وأكثرهم حظاً من النجاح، فقد أنجز في عشرين عاماً من حياته ما عجزت عن انجازه قرون من جهود المصلحين ـ يهوداً أو نصارى ـ الذين كانت تؤيدهم السلطة الزمنية. ورغم أنه كان أمام ذلك الرسول تراث أجيال من الوثنية والخرافة والجهل والبغاء والربا والميسر ومعاقرة الخمور واضطهاد الضعفاء والحروب والمنازعات بين القبائل العربية، ومئات الشرور والآثام الأخرى».

وهذا التأكيد من دائرة المعارف البريطانية الذي نقلناه بنصه يوضح ما نعنيه بنجاح الاتصال الشخصي في دعوة الرسول ﷺ، في مراحلها التى أسرنا اليها.

الاتصال الشخصي بالقبائل العربية:

ومن وسائل الاتصال التي لجأ اليها الرسول ﷺ وسلم لتبليغ دعوة الاسلام، عرض نفسه على القبائل العربية الوافدة الى مكة للحج أو العمرة أو

التجارة، كما كان يحرص على حضور الأسواق خاصة في المواسم والأعيـاد. ويروى انه ﷺ كان يقف على منازل القبائل من العرب فيقول (يا بني فلان اني رسول الله اليكم يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الانداد، وان تؤمنوا بي وتصدقوا بي وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به).

وكثيراً ما كان أبو لهب يحرك العوامل الوسيطة عند هذه القبائل بأن يتبع ابن اخيه فيقول معقباً على قوله ﷺ «يا بنى فلان.. ان هذا انما يدعوكم ان تسلخوا اللات والعزى من اعناقكم، وحلفائكم من الجن من بني مالك بن اقيش، الى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه».

العوامل الوسيطة ومقاومة الدعوة:

واذا كان علماء الاعلام في عصرنا هذا يقولون ان الاتصال قد ينجح مـرة وقد يفشــل أخرى أو يحقق عكس المـطلوب منه، فـاننا نستـطيع أن نستقرئ هذا من المواقف التى عرض فيها الرسول ﷺ نفسه على القبائل، وما لقيه من نجاح أو فشل بسبب محاولات أبي لهب المضادة والتي كانت تثير العوامل الوسيطة في النفوس وتستهويها استهواء عكسيـاً. ولم تكن المقاومـة قاصرة على أبي لهب بل كانت تشتمل الكثير من سادة قريش وأصحاب الرأي والجاه والمال فيها من الذين غلبت عليهم الضلالة فلا يتبعون الحق لذات الحق، وهؤلاء هم المعاندون المكابرون الذين عميت قلوبهم وكان على ادراكهم غشاوة.

يقول ابن كثير ان رسول الله ﷺ «استمر يدعو الى الله تعالى ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، لا يصرفه عن ذلك صارف، ولا يرده عن ذلك راد، ولا يصده عن ذلك صاد، يتبع الناس في أنديتهم ومجامعهم ومحافلهم، وفي المواسم ومواقف الحج يدعو من لقيه من حر وعبد وضعيف وقوي وغني وفقير، جميع

الخلق في ذلك شرع سواء وتسلط عليه وعلى من اتبعه من آحاد الناس من ضعفائهم، الأشداء الأقوياء».

وكان أشدهم قسوة وضراوة بعد أبي لهب أبو جهل عمرو بن هسام المعروف بأبي الحكم، والذي كان فاجراً في القول والعمل، ولم يدخر وسعاً في مقاومة الدعوة واضطهاد كل من آمن بها خاصة الضعفاء ومن لا حول ولا قوّة. أما أبو لهب فهو كما تقدّم قد اختار لنفسه موقعاً يناوئ منه الدعوة الاسلامية، وقد يكون سادة قريش هم الذين وضعوه في هذا الموقع استغلالاً منهم للصلة القويّة بينه وبين ابن أخيه، مما يجعله مصدر نفة وعاملاً من العوامل الوسيطة الفعّالة في مقاومة النبي ﷺ، واضعاف حجته واصابته بالاحباط وايلامه في نفسه، لأن الظلم هنا يقع من أقرب المقربين اليه، وهو الذي يفترض فيه أن يكون أول المؤيدين والمساندين لدعوته.

قال ابن اسحاق «كان رسول الله ﷺ كلّما اجتمع له الناس بالموسم، أتاهم يدعو القبائل الى الله والى الاسلام، ويعرض عليهم نفسه وما جاء به من الله من الهدى والرحمة، وهو لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف الا تصدى له فدعاه الى الله وعرض عليه ما عنده».

وقد لقي رسول الله قوماً من الخزرج في أحد المواسم عند العقبة فقال لهم (من أنتم؟). قالوا «نفر من الخزرج». قال (أمن موالي يهود؟) قالوا «نعم». قال (أفلا تجلسون أكلمكم؟). قالوا «بلى»، فجلسوا معه فدعاهم الى الله عز وجل وعرض عليهم الاسلام وتلا عليهم القرآن فقال بعضهم لبعض «يا قوم.. تعلّموا والله انه للنبي الذي توعدكم به اليهود فلا يسبقونكم اليه». فأجابوه فيما دعاهم اليه بأن صدّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام وقالوا «إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشرّ ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك. فسنقدم عليهم فندعوهم الى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك اليه من هذا الدين، فان يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك». ثم

انصرفوا راجعين الى بلادهم وقد آمنوا وصدّقوا.

وكانت هذه بداية نجاح الاتصال السخصي بين رسول الله ﷺ، وانتصاره على مقاومة العوامل الوسيطة التى أزكاها أبو لهب وغيره من أسباهه.

واذا كان لفظ الجمع في اللغة العربية يعنى تأليف المتفرق، فان الاتصال الجمعي كما يذهب الى ذلك علماء الاعلام يكتسب من هذه الدلالة اللغوبة خصائصه ومفهومه من حيث اعتماده على التفاعل المباسر بين الجماعة والداعية أو المرسل.

الاتصال الجمعي:

ولما كان الاسلام هو الدين القائم على جمع الناس تحت راية واحدة هي راية لا إله إلاّ الله، وتوحيد صفوفهم وبثّ التواد والتراحم والتآزر والتضامن في نفوسهم، كان الاتصال الجمعى من أهم مميزات الاعلام الاسلامي.

قال تعالى ﴿**واعتَصِمُوا بحبلِ اللهِ جميعاً ولا تَفَرَّقُوا**﴾[11].

وقال سبحانه ﴿**قُلْ يا أيُّها الناسُ اني رسولُ اللهِ اليكم جميعاً**﴾[12].

وقال عزّ شأنه ﴿**قُلْ يجمعُ بيننا ربّنا ثم يفتحُ بيننا بالحقِ وهو الفَتَّاحُ العَلِيمُ**﴾[13].

وقال جل جلاله ﴿**لا حُجَّة بيننا وبينكم اللهُ يجمعُ بيننا وإليه المصيرُ**﴾[14].

---

(١١) سورة آل عمران آيه ١٠٣

(١٢) سورة الاعراف آيه ١٥٨

(١٣) سورة سبأ آية ٢٦

(١٤) سورة الشورى آية ١٥

هذه الآيات وغيرها تؤكد على أهمّية الاتصال الجمعى في الاعلام الاسلامي لما تتضمنه من التأكيد على الألفة والاجتماع على كلمة الحق، والتسليم لأمر الله والاعتصام بحبله سبحانه. وهو الذي يفول عنه المفسرون انه السبب الموصل الى البغية والحاجة، ولذلك سُمِّيَ الأمان حبلاً لأنه سبب يوصل به الى زوال الخوف والنجاة من الجزع والذعر ـ كما كره الله الفرقة وحذر المسلمين منها ونهاهم عنها.

وقال رسول الله ﷺ (ان بنى اسرائيل افترقت على احدى وسبعين فرقة، وان أمتي ستفترق على اثنين وسبعين فرقة كلهم في النار الا واحدة قيل «يا رسول الله وما هذه الواحدة؟». فقبض يده وفال (الجماعة). ثم استشهد ﷺ بالآية الكريمة. ﴿واعتَصِمُوا بحبلِ اللهِ جميعاً ولا تَفرَّقُوا﴾[١٥].

ولقد شرع الاسلام صلاة الجماعة في المساجد لحكمة بالغة هي التأليف بين قلوب المسلمين وتوحيد صفوفهم وجمع كلمتهم وتحقيق المساواة بينهم والتمرس على المشاركة العملية والوجدانية، والتدرب على العمل تحت قيادة واحدة، ثم ان صلاة الجماعة فيها حركة السعى الى المساجد، وفيها سهولة اعلام الناس بالأمور العامة والأحداث الهامة أيضاً.

ولذلك أكدّ الرسول الكريم على طلب صلاة الجماعة التي أصبحت سنة مؤكدة وشعيرة من شعائر الاسلام، بل دعامة من أهم دعائمه. وفد داوم على اقامتها رسول الله ﷺ والخلفاء والتابعون من بعدهم، وما زالت الى يومنا في كل مجتمع اسلامي، وستظل الى يوم الدين باذنه تعالى.

---

(١٥) سورة آل عمران آيه ١٠٣

الاتصال الجمعي في الاعلام الاسلامي

قال ﷺ (صلاة الجماعة تعدل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة). متّفق عليه. وقال (ما من ثلاثة في قرية ولا بـدو لا تقام فيهم الصلاة الا قد استحوذ عليهم الشيطان. فعليكم بالجماعة فانما يأكل الـذئب من الغنم القاصية). رواه أبو داود باسناد حسن.

أما صلاة الجمعة فقد قال الله عز وجل بشأنها ﴿يا أيُّها الذين آمنوا اذا نُودِيَ للصلاةِ من يوم الجُمُعةِ فاسعَوْا الى ذكرِ الله وذَرُوا البَيْعَ﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ (من ترك ثلاث جمع تهاونا طبع الله على قلبه). كما قال (ان أهل الكتابين أعطوا يوم الجمعة فاختلفوا فيه فصرفوا عنه، وهدانا الله تعالى له واخره لهذه الأمة وجعله عيداً لهم، فهم أولى الناس به سبقاً وأهل الكتاب لهم تبع). متفق عليه. وقد أجمع المسلمون كافة على وجـوب صلاة الجمعة التي تثبت فريضتها بالكتاب والسنة.

ومن مظاهر الاتصال الجمعي في صلاة الجمعة الخطبـة، وهي الربـاط الروحي للمصلّين والمخبر الاعلامي للمسلمين، ومن خلالها يمكن توجيه الناس وارشادهم وإعلامهم والأخذ بأيديهم الى خير السبل وأسلمها.

---

(١) سورة الجمعة اية ٩

الخطبة النبوية والاتصال الجمعي:

ويقول ابن القيم الجوزي عن خطب النبي ﷺ «انها كانت تقريراً لأصول الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه. وذكر الجنه والنار مما أعدّ الله لأوليائه وأهل طاعته، وما أعد لاعدائه وأهل معصيته، فيملأ الفلوب من خطبه إيماناً وتوحيداً ومعرفة بالله وأيامه.. لا كخطب غيره التى تفيد أموراً مشتركة بين الخلائق، وهي النوح على الحياة والتخويف بالموت، فان هذا أمر لا يحصل في القلب إيماناً بالله ولا توحيداً له، ولا معرفه خاصه، ولا تذكيراً بأيامه، ولا بعثاً للنفوس على صحبته والشوق الى لقائه، فيخرج السامعون ولم يستفيدوا فائدة غير أنهم يموتون وتقسم أموالهم ويبلي التراب أجسامهم.. فيا ليت شعري أي إيمان حصل بهذا، وأي توحيد وعلم نافع يحصل به؟ ومن تأمل خطب النبي ﷺ وخطب أصحابه، وجدها كفيلة ببيان الهدى والتوحيد وذكر صفات الرب جل جلاله، وأصول الايمان الكلية والدعوة الى الله وذكر آلائه تعالى التي تحببه الى خلقه، وأيامه التي تخوفهم من بأسه، والأمر بذكره وسكره الذي يحببهم اليه، فيذكرون من عظمة الله وصفاته واسمائه ما يحببه الى خلقه، ويأمرون من طاعته وشكره وذكره ما يحببهم فينصرف السامعون وقد أحبوه وأحبهم، ثم طال العهد وخفي نور النبوة وصارت الشرائع والأوامر رسوماً تقوم من غير مراعاة حقائقها ومقاصدها، فأعطوها صورها وزيّنوها بما زيّنوها به فجعلوا الرسوم والأوضاع سنناً لا ينبغي الاخلال بها، وأخلوا بالمقاصد التى لا ينبغي الاخلال بها فرصّعوا الخطب بالتسجيع والفقر وعلم البديع فنفص.. بل عدم حظ القلوب منها وفات المقصود بها».

أما النووي فيقول «يستحب كون الخطبة فصيحة بليغة مرتبة مبينه من غير تمطيط ولا تقصير، ولا تكون ألفاظاً مبتذلة ملففه لأنها لا تفع في النفوس موقعاً كاملاً، ولا تكون وحشية لأنها لا يحصل مفصودها، بل يختار ألفاظاً جزلة مفهمة».

أما الخطابة النبوية السريفة فيتمنل فيها الاتصال الجمعي في اسمى معانيه فقد كانت أداة الدعوة، واللسان الناطق بالرسالة الاسلامية، وأداة الاتصال والتعبير في مجالات العقيدة والشريعة والاخلاق، فاذا كانت الكتابة غير شائعة في هذا العصر، فان الخطابة كانت تمثل الوسيلة الأساسية للاتصال الجمعي، ولذلك اعتمد عليها النبي ﷺ في دعوته عشيرته والأقربين، وفي اتصاله بأحياء العرب وبالأسواق العامة ومواسم الحج، وكان، عليه السلام، يخطب ويقول (قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا). ثم انتقل الى يثرب يدعو الى الله على بصيرة، ويقوم في مجتمعات جديدة يشرح لهم ببيانه وفصاحته رسالة الاسلام، وهي فصاحة فطر عليها وقواها تلمذته للقرآن الكريم. سأله أبو بكر رضي الله عنه مرة «لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك، فمن أدبك؟». قال (أدبني ربي فأحسن تأديبي). وفي الخطابة النبوية الشريفة تتجلى قيمة الحرية في الاتصال الجمعي، فكان علبه السلام يقول بعد الثناء والتشهد (أما بعد)، وكان يعلم أصحابه في خطبته قواعد الاسلام وشرائعه، ويأمرهم وينهاهم في خطبته اذا عرض له أمر أو نهي.

فالاتصال الجمعي ـ كما يتّضح من دراسة الخطابة النبوية الشريفة ـ لا يتمّ من جانب واحد، وانما كان يتاح فيه للمتلقي توجيه الأسئلة والتفاعل الذي يتيحه رجع الصدى من المستقبل الى الرسول ﷺ، وهي الميزة التي يفقدها الاتصال الجماهيري المعاصر. ذلك أن الرسول ﷺ كان يقطع خطبته للحاجة تعرض، والسؤال لأحد من أصحابه فيجيبه ثم يعود الى خطبته فيتمها. وكان ﷺ يأمر بمقتضى الحال في خطبته، فاذا رأى منهم ذا فاقة وحاجة أمرهم بالصدقة وحضّهم عليها، ولم يكن يأخذ بيده سيفاً أو خلافه، وانما كان يعتمد على عصا أو قوس قبل أن يتخذ المنبر، وكان يخطب للنساء على حدة في العيدين ويحرضهن على الصدقة.

ولقد كانت الخطابة من أهم وسائل الرسول ﷺ في الاتصال الجمعي في الاعلام الاسلامي بعد الجهر والدعوة مباشرة، حين صعد على الصفا حاملاً

عبء الجهاد من حين نزل قوله تعالى ﴿فاصدعْ بما تُؤْمَر واعرِضْ عن المشركين﴾[٢]. ويذكر ابن كثير أن أول خطيب دعا الى الله والى رسوله بعد النبي ﷺ هو أبو بكر رضي الله عنه.

ولما كانت أول جمعة للنبي ﷺ بالمدينه، خطب المسلمين فكان مما قال:

الحمد لله، أحمده واستعينه، واستغفره، واستهديه، وأُومن به ولا أكفر، واعادي من يكفره، وأشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له، وان محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل، وقلة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعة، وقرب من الأجل. من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصه فقد غوى وفرط وضل ضلالاً بعيداً. وأُوصيكم بتقوى الله فانه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله. فاحذروا ما حذركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك ذكراً. وان تقوى الله يوقي مقته ويوقي عقوبته، وان تقوى الله يبيض الوجوه ويرضي الرب ويرفع الدرجة، خذوا بحظكم ولا تفرطوا في جنب الله، فقد علمكم الله كتابه ونهج لكم سبيله ليعلم الذين كذبوا ويعلم الكاذبين، فأحسنوا كما أحسن الله اليكم، وعادوا أعداءه. جاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وسماكم المسلمين ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة، فأكثروا من ذكر الله واعملوا لما بعد اليوم، فانه من يصلح ما بينه وبين الله يكفيه الله ما بينه وبين الناس.

(وذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه، الله أكبر ولا قوة الا بالله).

---

(٢) سورة الحجر آية ٩٤

خطبة الوداع وحقوق الانسان:

ومن الخطب النبوية الرفيعة خطبة حجة الوداع، وهى مشهورة وتعد بعد القرآن الكريم أقدم وثيقة عالمية بحقوق الانسان.

قال رسول الله ﷺ بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

(أيها الناس اسمعوا قولي فاني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً. أيها الناس ان دماءكم وأموالكم عليكم حرام الى ان نلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا. وانكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها، وان كان رباً موضوع ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون. قضى الله انه لا رباً، وأن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله، وان كان دم كان في الجاهلية موضوع، وأن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارس بن عبد المطلب وكان مستوضعاً في بني ليث فقتلته هذيل، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية. أما بعد أيها الناس فان الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذا أبداً، ولكنه ان يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم. أيها الناس ان النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا، يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله. وان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر منها أربعة حرم وثلاثة متوالية ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، أما بعد ايها الناس فان لكم على نسائكم حقاً ولهن عليكم حق. لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، وعليهم ألا يأتين بفاحشة مبينة، فان فعلن فان الله قد أذن لكم ان تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فان انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيراً فانهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وانكم انما بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات

الله، فاعقلوا أيها الناس قولى فاني قد بلغت. وقد تركت فيكم ما ان اعتصمتم به فلن تضلّوا أبداً.. أمراً بيناً كتاب الله وسنة نبيه. أيها الناس اسمعوا قولى واعقلوه.. تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين اخوة فلا يحل لامرئ من أخيه الا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم، اللهم هل بلغت؟) فقال الناس «اللهم نعم». فقال رسول الله (اللهم أشهد).

ومن خطبة الوداع نستخلص دستوراً للاعلام الاسلامي ينص على الدعوة الى التوحيد الخالص، والايمان بالله، كما ينص على الدعوة الى وجوب احترام حقوق الانسان وبخاصة في النفس والمال والعرض، والغاء التعامل بالربا، وتأكيد حقوق المرأة ووجوب رعايتها ورعاية العلاقة الزوجية والاسرية، وصيانة الروابط الدينية والأخوية والانصالية بين المؤمنين، كما تنص هذه الخطبة على اعلان المساواة التامة بين بنى الانسان في الحقوق والواجبات مساواة تامة، بغض النظر عن اللون والجنس، وهذا النص يمل عماداً من أعمدة الاعلام الاسلامي الذي أكدت عليه خطبة الوداع، وهى الخطبة التي ارست كذلك من مبادئ الاعلام الاسلامى.. التحذير من فتن الشيطان، والتنبيه الى وجوب التزام اليقظة، والحذر من وسائل افساده للأخوه بين المسلمين ونفريق صفوفهم، وكذلك الدعوة الى وجوب التمسك بكتاب الله وسنّة رسوله، لأنها الهدى الذي لا يضل من تمسك به.

وقد نصّت خطبة الوداع صراحة على أن الاعلام الاسلامي انما يقوم على أساس من تبليغ الرسالة للناس كافة، وهذا الأساس يمل جوهر الاعلام الاسلامي.

صلاة العيدين والاتصال الجمعي:

وصلاة العيدين شعيرة تمثّل الاتصال الجمعى فى أروع مظاهره، فالأعياد بطبيعتها مواسم اعلامية، والعيدان الكبيران في الاسم هما عيد الأضحى

وعيد الفطر، وأكبرهما هو الذي يأتي بعد منسقة الحج والنفرب الى الله سبحانه وتعالى، وتانيهما هو الذي يأتي بعد شهر الصيام، ويحتفل به الصائم وفد راض نفسه على مغالبة الجوع والظمأ ومخالفة العادات التي جرى عليها في سائر الشهور، وكلاهما - كما بقول العقاد - رمز واضح الى فضيلة التضحية وفضيلة ضبط النفس، أو الى الفضيلة الانسانية الجامعة لكل الفضائل، وهي حرية الاختيار والقدرة على مغالبة الغرائز والأهواء والعادات.

وصلاة العيدين سنة مؤكدة وشعيرة من سعائر الدين، وفيها نسمع التكبير تلاثاً نسقا، فنقول: الله أكبر الله أكبر، الله أكبر كبيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً. لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، وفي هذا التكبير تلخيص لرسالة الاعلام الاسلامي حيث ينم التواصل بين المسلمين ودينهم على أتم ما يكون التواصل، وتصبح الأعياد الاسلامية تجديداً للمودة والألفة والتعارف بين المسلمين.

فالعيد اذن وسيلة أساسية من وسائل الاتصال الجمعي في الاعلام الاسلامي، وقد تكون كلمة العيد باللغة العربية أصدق الكلمات دلالة على ما نعنيه، فالعبد يعود كل سنة في موعد محدود ومعروف، كما انه سيوجب مجتمعاً مستقراً له دبنه ونظامه الاجتماعي القائم على أسس راسخة.

وهذه الدورية للعيد أي عودته سنوياً في الموعد المحدد، صفة من أهم صفات الاعلام بوجه عام.

والعيدان الاسلاميّان - وهما عبد الفطر وعيد الأضحى - كان لهما أصل قديم قبل الاسلام، فكان العرب يصومون من أسبوع الى أسبوعين في موعد الانقلاب الصيفى الذي يرافق شهر القيظ، أو شهر رمضان، وكانوا يحجون الى الكعبة ويقدمون القرابين الى أربابهم عند منصرفهم من الطواف، وكانوا يؤدون شعائر الحج عراة الا من الكساء الذي يخصصه السدنة للحج في جوار مكة. فلما جاء الاسلام هذب هذين العيدين وأزال عنهما بقايا الصبغة المادية

وحولها الى العبادة الالهية، وساعد على زوال الأثر المادي منها ان الاسلام حرم النسيء وهو زيادة شهور على السنة كل بضعة اعوام لاعادة التاريخ القمري الى الحساب الشمسي الذي تنتظم عليه مواسم الزراعة والتجارة.

الحج والاتصال الاعلامي:

ويمثّل الاتصال الاعلامي شكلاً من أشكال الاتصال في الدعوة الاسلامية، اذ يعني الاتصال على مستوى الأمة، الأمر الذي يتفق مع جوهر الاسلام كرسالة للناس كافة وليس لقبيلة أو شعب معيّن، وهو الأمر الذي لاحظه الأستاذ مونتجمري وات عميد قسم الدراسات العربية الأسبق بجامعة «ادنبرة» في كتابه «الاسلام والجماعة المتحدة» حين ذهب الى أن فكرة «الأمة» كما جاء بها الاسلام هي الفكرة البديعة التي لم يسبق اليها ولم تزل الى هذا الزمن ينبوعاً لكل فيض من فيوض الايمان يدفع بالمسلمين الى «الوحدة» في «أمة» واحدة، تختفي فيها حواجز الأجناس واللغات وعصبيات النسب والسلالة. وقد تفرد الاسلام بخلق هذه الوحدة بين أتباعه فاشتملت امته على أقوام من العرب والفرس والهنود والصينيين والمغول والبربر والسود والبيض على تباعد الأقطار وتفاوت المصالح، ولم يخرج من حظيرة هذه الأمة أحد لينشق عليها ويقطع الصلة بينه وبينها، بل كان المنشقون عنها يعتقدون انهم أقرب ممن يخالفونهم الى تعزيز وحدتها ولم شملها ونفي الغرباء عنها.

ويذهب العقاد[٣] الى أن مونتجمري قد أصاب في التنويه بمعنى «الأمة» في العقيدة الاسلامية، واعتباره أنه معنى فريد خلقته العقيدة الاسلاميه ولم يكن له مرادف في لغة من اللغات قبل ولا بعد الاسلام.

فكلمة Nation التي تقابل هذه الكلمة باللغات الأوربية، مأخوذة في أصلها من معنى الولادة، ومفادها أن الولادة في مكان واحد هى الرابطة التي

---

(٣) عباس محمود العقاد: المجموعة الكاملة، م ٦، الاسلاميات ٢، ص ٥٢١.

تكسب أبناء الوطن حقوق هذه الوحدة الاجتماعية، وكلمة People تقابل عندهم كلمة الشعب أحياناً باللغة العربية، وترجع في أصلها الى السكن والاقامة، وكلا المعنيين ـ معنى الولادة ومعنى السكن ـ قاصر على الدلالة على «الأمة» التي جاء بها القرآن الكريم في معارض كثيرة تفيد معنى الجماعة الكبرى التي تحيط بشعوب كثيرة، ويلزم من دلالتها وحدة الأمة الاسلامية في نهاية الأمر.

واذا كان الاتصال الاعلامي بالمعنى الحديث، وبشكله التكنولوجي، يتجاوز اللقاء المباشر والتفاعل المواجهي، فان الحج يمثل قمة الاتصال بين المسلمين الذين يلتقون فيه من كل فج عميق على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم. وتتحقق فيه الدلالة الاسلامية لمعنى «الأمة» على أفضل نحو، حيث جعل الله البيت العتيق مثابة للناس وأمنا، وجعل الحج من بين أركان الاسلام ومبانيه عبادة العمر وختام الأمر وتمام الاسلام، وكمال الدين فيه، على حد تعبير الامام الغزالي رضي الله عنه، وقد أنزل الله عز وجل قوله **﴿اليومَ أكملتُ لَكُم دينَكُم وأَتْمَمْتُ عليكم نِعمَتي ورضيتُ لَكُمُ الاسلامَ ديناً﴾**[٤].

وقال الله عز وجل **﴿وأَذِّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضَامِرٍ يأتِينَ من كل فَجٍّ عميقٍ﴾**[٥].

وقال قتادة: لما أمر الله عز وجل ابراهيم ﷺ وعلى نبينا وعلى كل عبد مصطفى أن يؤذن في الناس بالحج، نادى: يا أيها الناس ان الله عز وجل بنى بيتاً فحجوه. وقال تعالى **﴿ليشْهَدُوا منافعَ لهم﴾**[٦]. قبل التجارة في الموسم والأجر في الآخرة. وهذه المنافع تتضمن فوائد اعلامية بطبيعة الحال من حيث نبادل الأفكار والمعلومات في اطار القيم الاسلامية. وقد جعل رسول الله ﷺ

---

(٤) سورة المائدة آيه ٣

(٥) سوره الحج آية ٢٧

(٦) سورة الحج آية ٢٨

طيب الكلام مع اطعام الطعام من بر الحج، والمماراة تناقض طيب الكلام. ولقد اختار الله سبحانه وتعالى أن تكون مكة المكرمة منزل الوحي والدعوة الاسلامية الأولى، وجعلها مصدر الاعلام العربي على قدر ما عند العرب من معرفة، وبها حج بيت الله الحرام، وملتقى العرب في موسمه، وبها أسواق الأدب التي يتبارى فيها الشعراء والخطباء في عكاظ وذي مجاز ومجنة. ولذلك كانت الأحداث فيها تنتقل أخبارها الى بلاد العرب، ومنها سار خبر الرسالة الاسلامية ودعوة النبي ﷺ الى الحق وتجاوبت اصداؤها. ومن العرب من كان يجيء الى مكة المكرمة بهدف التعرف على أمر ذلك الرسول الكريم ﷺ، ومنهم من يرسل اليه من يتعرف دعوته كما فعل أكثم بن صيفى حكيم العرب، اذ أرسل بنيه الى النبي ﷺ بتعرف ما يدعو اليه، فلما حضروا وسألوا النبى ﷺ، تلا عليهم قول الله تعالى **﴿ان الله يأمرُ بالعدلِ والاحسانِ وايتاءِ ذِي القُرْبى ويَنْهَى عن الفحشاءِ والمنكَرِ والبَغْيِ يعظُكم لعلَّكم تَذَكَّرُون﴾**[٧]، فلما بلغه ما تلا عليهم الرسول ﷺ قال: انه ان لم يكن ديناً فهو خلق الناس أمر حسن، يا بني كونوا في هذا الأمر أولاً، ولا تكونوا آخراً.

وقد أسلم أبو ذر الغفاري بهذا الاعلام العام الذي اشتهرت به دعوة النبي ﷺ. كما أسلم على هذا النحو الطفيل بن عمرو اذ جاءه النبأ بدعوة النبي ﷺ، وكان رجلاً شريفاً شاكراً، وكذلك فعل الجارود بن المعلى وغيرهم من زعماء القبائل الذين دخلوا في الاسلام.

الاتصال الحضاري في الاعلام الاسلامي:

والاتصال الحضاري من أهم أشكال الاعلام الاسلامي، لأنه يقوم على أسس اسلامية مستقلة من القرآن والسنه، ويرتكز على التوحيد والايمان والتسليم والطاعة لله رب العالمين، ويتفيأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

---

(٧) سورة النحل آية ٩٠

فاذا كان مقياس المدنية الغربية هو التفوق المادي، فان الحضارة الاسلامية تقوم على حرية الفكر، ودعم حرية الانسان وكرامته، وتشجيع المعرفة والنظام والمساواة بين الناس في ظل اخاء شامل، وعدل تام وروحانية صافية واعتزاز بالمثل العليا والقيم الاخلاقية. ذلك أن الحضارة الاسلامية قد استمدّت مقوماتها من الاسلام ذاته، الذي أتم صقل الأمة العربية والاسلامية وتهذيبها، وأودع في شعوبها طاقات جديدة، وصفى طاقاتها الموروثة فاستأصل منها الغريب والشاذ وما لا يتلاءم مع طبيعة المجتمع المثالي الذي يريده الاسلام.

فالاتصال الحضاري في الاسلام لم ينسخ النظرة الواقعية، بل اهتم بتطويرها ودعا الناس الى الاهتمام بدنياهم الى جانب الاهتمام بدينهم. كذلك وجه عنايته الى رفاهية المسلمين، وتكامل سعادتهم بسعادة الروح والجسد، فسعادتهما مكفولتان في الاسلام ولا يطغى حق واحد منهما على الآخر، وهذه التعادلية في الاتصال الحضاري الاسلامي بين المادة والروح، بين الدنيا والآخرة، بين العقل والقلب، مسايرة لطبيعة الانسان وخلقه، فهو مادة وروح، جسد وقلب، ولقد كان المجتمع العربي قبل الاسلام يحيا على واحدة منهما ويهمل الأخرى، فكانت النتيجة الانغماس في الفوضى وعدم الاستقرار والاخفاق في الوصول الى هدف منشود.. وتكفل التعادلية بين القوتين في الاتصال الحضاري البقاء للانسانية والسير قدما، فالقوانين المادية الوضعية وحدها لا تفي برفاهية الخلق، ولا تنهض وحدها بحل مشكلات الانسان.

والمجتمع المتحضر هو المجتمع الاخلاقي أو «المدينة الفاضلة» بتعبير الفارابي. وهنا يغدو الاتصال الحضاري وسيلة لجعل أمور الحياة خاضعة لقانون الأخلاق النابع من جوهر الاسلام، كدين انساني عام يخاطب الأمم جميعاً فلا يفرق بين أمة وأمة بفارق الجنس أو اللون أو اللغة. فكل انسان في جوانب الأرض أهل لأن يأوي الى هذه الأخوة الانسانية حيث شاء وحين يشاء، قال

تعالى ﴿وما أرسلنَاك إلّا كافةً للناسِ بَشِيراً ونَذِيراً﴾[8].

هكذا أعلنها القرآن الكريم دعوة عامة منذ ألف وأربعمائة سنة، وهكذا أعلنها النبي عليه السلام وخلفاؤه الراشدون وتابعوهم الأبرار في صدر الاسلام. ولم يمض ربع قرن من التاريخ الهجري حتى قامت بينات الواقع على حقيقة الاتصال الانساني في الدعوة الاسلامية، فدان بالدين الجديد أناس من جميع الأقوام والسلالات، ولم تنقض على الهجرة ثلاثة قرون حتى كان في عداد المسلمين ساميون وآريون وحاميون وطورانيون، عرب وفرس وترك وهنديون وافريقيون من الاثيوبيين.. وهكذا يتأكد لنا أن الاتصال الحضاري في الاعلام الاسلامي يتسم بالشمولية في مخاطبة الناس جميعاً بلا تفرقة.

يقول العقاد:

«ان دينا من الأديان الأخرى لم يكسب أمة ذات كتاب عريقة في الحضارة وانما كانت الأديان مقصورة على العصبية القومية، أو على تحويل الوثنيين الذين درجوا على عبادة الأصنام وما يشبه الأصنام من رموز القوى الطبيعية.

فالموسوية قصرت دعوتها على العبريين أو اليهود، ولما قام المكابيون ليكرهوا قبائل البادية على قيود السعائر اليهودية كانت هذه القبائل وثنيه مغرقة في الجهالة، وكان المكابيون يؤمنون بالاله «يهوا» ملكاً تجب له الطاعة على رعاياه، وكانوا من أجل ذلك يسمون امراءهم رؤساء كهان ولا يسمحون لهم بلقب الملك وشاراته ومراسمه، فاكراه القبائل على قبول سلطان «يهوا» انما كان عندهم بمثابة الخضوع السياسي الذي يلزم الأجانب والغرباء كما يلزم أبناء الأمة وأهل السلالة.

والبرهمية ظلت ديانه قومية عنصرية حتى خرجت منها النحلة البوذية،

---

(٨) سوره سبأ آيه ٢٨

فنجحت في تحويل الوثنيين اليها في الصين واليابان ولم تحول اليها قط أمة ذات كتاب. والمسيحية حولت اليها الرومان وغيرهم من الغربيين أو الشرفيين، ولكنهم كانوا جميعاً من الوثنيين الذبن وقفوا عند خطوات الدين الاولى ولم يجاوزوها الى عقائد أهل الكتاب.

أما الاسلام ففد حول اليه على خلاف ذلك أعرق الأمم في الحضارة وفي الايمان بالعقيدة الكتابية، فأسلمت فارس وأسلمت مصر وهما على التحقيق أعرق أمم العالم يومئذ في تاريخ الحضارة، وأولاهما كانت تؤمن بالله واليوم الآخر والحساب والعقاب وغلبة الخير على الشر وخلود الروح، وثانيهما كانت تدين بالمسيحية وتحمل لواءها في العالم القديم.

هذه المزية ينفرد بها الاسلام بين جميع الديانات، وهي آية العالمية والصلاح لدعوة الأمم جمعاء، سواء منها الأمم المغرقة في الحضارة والدين، أو الأمم التي لم تبلغ بعد مبلغ الارتقاء في التحضر والاعتقاد»[٩].

فالاتصال الحضاري في الاسلام اذن اتصال موجه الى الانسانية جمعاء على توالي العصور واختلاف الأزمان، وهو ملتزم بما أنزله الله للانسانية، وهو سبحانه وتعالى بكل شيء عليم وبعباده رؤوف رحيم، وهو يهدي الناس الى صراط مستقيم[١٠].

قال نعالى **﴿وأَنَّ هذا صِرَاطي مستقيماً فاتَّبِعُوه ولا تَتَّبِعُوا السُبُلَ فَتَفَرَّقَ بكم عن سبيلِهِ ذلكم وصَّاكم به لعلكم تَتَّقون﴾**[١١].

ولقد اشتمل التشريع القرآني على معالم هذا الاتصال الحضاري من مبادئ وقيم تصلح للانسانية جمعاء، فالأخوة الاسلامية أصبحت هى الأساس

(٩) العقاد: المجموعة الكاملة، م ٨، الاسلاميات ٤، ص ٣٣٥.

(١٠) د. ابراهيم امام: الاعلام الاسلامي ص ٤٥.

(١١) سورة الانعام آية ١٥٣

في الاتصال الحضاري بدلاً من العصبية، والاتحاد أصبح هو العماد الذي يقوم عليه هذا الاتصال. وتتمل هذه الأسس في الآيات الكريمه:

﴿وَلْتَكُنْ منكم أُمَّةٌ يدعونَ الى الخيرِ ويأمرُون بالمعروفِ وينهونَ عن المنكرِ وأولئك هُمُ الْمُفْلِحون﴾(١٢).

﴿وَتَعاوَنوا على البِرِّ والتَّقْوى ولا تعاوَنُوا على الإثْمِ والعُدْوَان واتّقوا الله إنَّ الله شديدُ العِقَابِ﴾(١٣).

﴿والمؤمنـونَ والمؤمناتُ بعضهم أوليـاءُ بعضٍ يأمـرون بـالمعـروفِ وينهونَ عن المنكرِ ويُقِيمون الصلاةَ ويؤتُون الزكاةَ ويطيعون الله ورسولَه أولئك سيَرْحَمُهم الله انَّ الله عزيزٌ حكيمٌ﴾(١٤).

وان كان التشريع القرآني قد رسم على هذا النحو الأسس التى يقوم عليها الاتصال الحضاري القويم، فقد أكد أن تنكب هذا الطريق واختيـار السير في طريق الفساد انما ينتهي بهدم البناء الاجتماعي والحضاري وتقويض أسسه، ويتمثل هذا الانذار للحضارات المنحرفة في الآيات الكريمة:

﴿ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾(١٥).

﴿فلَولاَ كان مِنَ القُرُون من قَبْلِكم أُوْلُواْ بقيةٍ يَنْهَوْن عن الفسادِ في الأرضِ الّا قليلاً ممن أَنْجَيْنا منهم واتَّبَع الذين ظَلَموا ما أُتْرِفوا فيه وكانوا مجرمين * وما كان رَبُّك ليُهْلِكَ القُرَى بظُلمٍ وأهلها مُصْلِحون﴾(١٦).

﴿واذا أَرَدْنا أن نُّهْلِكَ قريةً أمرنا مُتْرفيها فَفَسقوا فيها فحقَّ عليها

---

(١٢) سورة آل عمران آيه ١٠٤

(١٣) سوره المائده آية ٢

(١٤) سورة التوبه آيه ٧١.

(١٥) سوره الرعد آية ١١.

(١٦) سورة هود الآيتـان ١١٦ ـ ١١٧

القولُ فدمرناها تدميراً﴾[١٧].

والأمثلة على انهيار الحضارات كثيرة، فها هو محمد اقبال يقول «منلت حضارة الغرب دورها وقد شاخت وهرمت، أينعت كالفاكهة وحان قطافها، وسوف ينهار العالم الذي حوله مقامرو الغرب الى حالة من الفساد، ولقد رأت اوربا بعينها النتائج المخيفة لمتلها الاقتصادية والاخلاقية والعلمية. ولسوف تتمخّض الانسانية عن عالم جديد، وهذا العالم لا يحسن تصميمه الا من بنى للبشرية البيت الحرام، وورث محمداً وابراهيم قيادة العالم».

ولقد تنبأ المؤرخ الانجليزي توينبي بانهيار حضارة الغرب المعاصرة كما انهارت حضارة روما، ويذهب كولن ويلسون الى أن عالم اليوم يمر بنفس الظروف التي مرت بها حضارة الرومان. وكتب «جيبون» في كتابه «انهيار الامبراطورية الرومانية وسقوطها» يقول «ان روما تحوّلت الى حضارة لا نفكر الا في الجنس والحرب».

والتشريع القرآني يبين الأسس القويمة للاتصال الحضاري السوي كما يبين عوامل هدم الحضارات المنحرفة، ويذكر المؤمنين على الدوام بنعمة قيام الأمة المتحدة المؤتلفة بعد تنازل، ويحذر من الجاهلية التي تعيد الفرقة بعد الوحدة، ويتضح ذلك في الآيات الكريمة:

﴿يا أيُّها الذين آمنوا اتَّقُوا الله حَقَّ تُقَاتِه ولا تَمُوتُنَّ إلَّا وانتم مسلمونَ * واعتصِموا بحبلِ اللهِ ولا تفرقوا واذكروا نِعمةَ الله عليكم اذ كنتمْ أعداءً فألَّفَ بين قلوبِكُم فأصبحتم بنعمتِه إخوانا﴾[١٨].

﴿وأَطِيعوا الله ورسولَه ولا تنازَعوا فتفشَلُوا وتذهبَ ريحُكم واصبِروا إنَّ الله مع الصابرين﴾[١٩].

---

(١٧) سورة الاسراء آية ١٦

(١٨) سوره آل عمران الآيتان ١٠٢ ـ ١٠٣

(١٩) سوره الأنفال آيه ٤٦

وتأسيساً على هذا الفهم نحاول استخلاص مظاهر الاتصال الحضاري في الاعلام الاسلامى فنجد أنه يقوم على السورى والعدل كركنىن أساسيىن للوسيلة والهدف.

وتبيّن الآيات الكـريمة هـذا التحول من النـظام القبلي الى الاتصـال الحضاري في الاعلام الاسلامي:

﴿يا أيُّها الذين آمنوا أطِيعوا الله وأَطِيعوا الرسولَ وأُوْلي الأمْرِ مِنْكم فإنْ تنازَعتم في شيءٍ فرُدُّوه الى اللهِ والرسولِ ان كنتم تؤمنون باللهِ واليوم الآخرِ ذَلِكَ خيرٌ وأحسنُ تأويلاً﴾[٢٠].

﴿فَبِما رَحْمَةٍ من الله لِنتَ لهم ولو كنتَ فَظًّا غليظَ القلبِ لانفضُّوا من حولِكَ فاعفُ عنهُم واستغفرْ لَهم وشاورهم في الأمرِ فإذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّل على اللهِ﴾[٢١].

والاسلام في تجدده وتجديده وانطلاقه وامتداده ليس الا تفسيراً حفيمياً للطبيعة المتجددة والطبيعة الممتدة في الحياة، فالله جل سأنه قد مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً، كما قال في محكم آياته، والله لم يجعل الليل سرمداً ولم يجعل النهار سرمداً، ولكن جعلهما موصولين امتداداً وانطلاقاً الى أبد الآبدين. ولو وقف الكون عند نهار دائم وحسب أو ليل دائم وحسب، لكان ذلك جموداً لا تصح به الحياة ولا يصح عليه الأحياء.

والاسلام من طبيعته التجديد وليس من طبيعته الجمود، وآية ذلك دعوته الدائمة الى العلم وحثّه عليه. وقد أعلى الاسلام من سأن العلم ولم يساو بىن عالم وغير عالم، لأنه يريد للناس والانسانية أن يتجددوا مع الحياة، ولا يقفوا بها عند حد معيّن.

---

(٢٠) سوره النساء آيه ٥٩.

(٢١) سوره آل عمران آيه ١٥٩

ولعل ايراد بعض آيات من مادة «العلم» في القرآن يساند هذه القضية، فالقرآن يقول ﴿يَرْفَعِ اللهُ الذين آمنوا منكم والذين أُوتوا العِلْمَ درجاتٍ﴾[٢٢]، ويقول ﴿بل هو آياتٌ بيِّناتٌ في صدورِ الذين أُوتوا العِلمَ﴾[٢٣]، ويقول ﴿شَهِدَ اللهُ انَّه لا الهَ الا هو والملائكةُ وأولوا العلمِ قائماً بالقِسطِ﴾[٢٤]، ويقول﴿وزادَه بَسْطةً في العلمِ﴾[٢٥]، ويقول﴿هل يَستوي الذين يعلمونَ والذين لا يعلمونَ﴾[٢٦]. فالعلم متغير، متجدد، قابل للتطور والارتقاء وليس كذلك العبادات. ومن هنا كانت دعوة الاسلام الى العلم، لأنها دعوة الى التجديد في الحياة.

وليس المقصود بالعلم هو علم الدين كما فهمه بعض الجامدين من المسلمين، وجاراهم فيه خبثاء المستشرقين والباحثين في الاسلام، من أمثال «سيكار» الفرنسي الذي ملأ مجلة «مراكش الكاثوليكية» في الثلاثينات من هذا القرن بادعاءات وطعون في الاسلام زعم فيها ان الاسلام لم يدع الى العلم بمفهومه العام، ولكنه دعا الى علم الدين، وذلك ليجرد الاسلام من فضيلة الدعوة الى العلم مطلقاً والحث عليه... ونسي المسكين الحديث النبوي (اطلبوا العلم ولو في الصين) فلو كان العلم هنا دينياً ما دعا النبي الى طلبه في الصين، لأن أهلها من عباد الأوثان.. وهذا الحديث مما رواه العقيلي، وابن عدي، والبيهقي وابن عبد البر عن أنس.

والاسلام ـ في دعوته الى التجديد والانطلاق في آفاق الكون، والنظر الى ملكوت السموات والأرض، وعدم الجمود عند حد معين ـ لم يجر على سنن غريب عليه، وليس منه.. فهو في ذاته مجدد مصلح منذ أن دعا النبي الى سبيل

---

(٢٢) سورة المجادلة آية ١١

(٢٣) سورة العنكبوت أية ٤٩

(٢٤) سورة آل عمران آية ١٨

(٢٥) سورة البقرة آية ٢٤٧.

(٢٦) سورة الزمر آية ٩

ربه.. وهو أبو التجديد ورائده.. وخاصة في كثير من شئون التشريع، فقد أتى على نظم الجاهليه وأدخل عليها من التجديد والاصلاح ما جعله حرياً بأن يوصف بالتجديد لا بالجمود..

لقد قلّل من تعدّد الزوجات وكان مطلقاً بلا قيود، وجعل نظام الميراث يتّسع ليقبل المرأة والصغار من أبناء الميت، فقد روي عن ابن عباس انه قال «لما نزلت الفرائض التي فرض الله فيها للولد الذكر والانثى والأبوين كرهها الناس وقالوا: تعطى المرأة الربع والثمن، وتعطى الابنة النصف، ويعطى الغلام الصغير، وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم ولا يحوز الغنيمة». وهذا يدل على انهم كانوا في الجاهلية لا يورثون النســاء ولا الصغار من أبنـاء الميت وانما يورثون من يلاقي العدو ويقاتل في الحروب.

واذا كان الاسلام قرينا للتجـديد وداعيـاً له، فـما بال المسلمـين قد تأخروا ـ وخاصة في القرون الأخيرة الى اليوم؟ الحق أن هذا التأخير ليس من الاسلام ولكنه من المسلمين حين جمدوا وركنوا الى التوقف، بل مـالوا الى معاداة العلم، ومحاربة الاصلاح وسدوا على أنفسهم باب الاجتهاد، والا فكيف نعلل ازدهار الاسـلام وقوة المسلمـين وتقدمهم في القرون الاولى للاسـلام، وتأخرهم وهوانهم على الناس وعلى أنفسهم في العصور الأخيرة، مع ان الدين واحد والعبادات واحدة؟ الحق ان طرائق المسلمين الآن غير طرائق المسلمين السابقين، فليس غريباً أن تتفرق بهم السبل عن سبيل الله.

الاعلام الاسلامي بين الاعلام الانساني والاعلام الدولي (*)

ان الاعلام الاسلامي قد أرسى دعائم تتفوق على ما يعرف اليوم بالإعلام الدولي ذلك أن الاسلام قد أرسل للناس كافة، وأكد على الاتصال والتفاهم بين الأمم والشعوب فقال الله جل سأنه في كتابه الكريم: ﴿يا أيّها الناسُ إنّا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلِ لتعَارَفوا﴾[1].

فالاعلام الاسلامي أشمل من مفهوم الاعلام الدولي بالمصطلح الاتصالي الحديث ذلك أن القرآن يؤكد أن الانسانية كلها أمة واحدة.

ويقول سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿كان النـاسُ أمَّةً واحـدةً فبعثَ الله النبيين مبَشّرينَ ومنذِرينَ وأنزلَ معهم الكتابَ بالحقِ ليحكمَ بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلفَ فيه الا الذين أوتوه من بَعْدِ ما جاءتهم البَينات بَغْياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يَهدِي من يشاءُ الى صراطٍ مستقيمٍ﴾[2].

(*) مجلة هدى الاسلام (٣٠)

(١) سورة الحجرات آيه ١٣

(٢) سورة البقره آيه ٢١٣

الاعلام الاسلامي والإعلام الدولي:

ومن ذلك يتضح ما نعنيه بسمولية الاعلام الاسلامى في المصطلح الحديث ذلك أن القرآن الكريم الذي تنبع منه نظريه الاعلام الاسلامى يؤكد على وحدة الانسانية، يقول الله تعالى: ﴿**يا أيّها الناسُ اتقوا ربَّكم الذي خلقَكم من نَفسٍ واحدة وخلق منها زوجها وبثَّ منهما رِجالا كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والارحامَ ان الله كان عليكم رقيباً**﴾[٣].

فالاعلام الاسلامى يقوم على أسس من صلة الرحم بين بنى الانسان، وعلى أساس من التعارف والمودة واقرار السلام، ولذلك فان الأصل في الاعلام الاسلامى هو الود والتراحم لا العداوة القاطعة، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**يا أيُّها الذين آمنوا ادخلُوا في السِلْمِ كافةً ولا تتبعوا خطواتِ الشيطانِ انه لكم عدو مبين* فان زللتم من بَعْدِ ما جاءتْكُمُ البيناتُ فاعلموا أن الله عزيز حكيم**﴾[٤].

وتأسيساً على هذا الفهم يمكن الفول ان الاعلام الاسلامي يتجاوز مصطلح «الاعلام الدولي» الى أن يكون هو «الاعلام الانساني» الأشمل الذي يدعو الى دين الوحدانية والوحدة الانسانية معاً، وان اختلف الناس أجناساً وقبائل، قال جل شأنه في القرآن الكريم: ﴿**ومن آياته خلقُ السمواتِ والأرضِ واختلافُ السنتكُم وألوانكم ان في ذلك لآياتٍ للعالمين**﴾[٥]

ونظرية الاعلام الاسلامي الانسانية، التى تتجاوز مصطلح الاعلام الدولي المعاصر، نقوم على أساس المساواة كما جاء في فول الله تعالى: ﴿**يا أيُّها الناسُ انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتَعَارَفوا**﴾[٦].

---

(٣) سورة النساء آيه ١

(٤) سوره البفرة الآيتان ٢٠٨ ـ ٢٠٩

(٥) سوره الروم آيه ٢٢

(٦) سورة الحجرات آيه ١٣

فالمساواة هي أساس الاعلام الانساني في الاسلام، كما ان التعارف يقتضي من وسائل الاعلام اشاعة المودة والتعاون في كل أنحاء العالم.

والعدالة أساس العلاقات الانسانية في الاعلام الانساني، يقول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقِسطِ شهداء للهِ ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إنْ يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تَعْدِلوا وإن تلووا أو تُعْرِضوا فان الله كان بما تعملُون خبيراً﴾[٧].

ودستور الاعلام الاسلامي في العلاقة الانسانية العامة، قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يا أيّها الذين آمنوا كونوا قوامين للهِ شُهدَاءَ بِالقِسْطِ ولا يجرِمنكم شنآنُ قومٍ على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقربُ للتقوى واتّقوا الله إنّ الله خبيرٌ بما تعملون﴾[٨].

وقوله جل شأنه: ﴿ان الله يأمرُ بالعدلِ والاحسانِ﴾[٩].

الاعلام الاسلامي والرأي العام العالمي:

وليس من قبيل التعصب ان نذهب الى أن الاعلام الاسلامي قد وضع الحلول الناجعة لكل المشكلات التي يعاني منها اليوم الاعلام الدولي بالمصطلح الحديث والذي يسعى الى تكوين الرأي العام العالمي، في حين ان الاعلام الاسلامي يسعى الى تكوين الرأي العام الانساني في اطار من الوحدة الانسانية، وعلى أسس من العدالة والتعاون والتواد والسلام.

وهنا تتضح الفروق بين ما نعنيه بمصطلح «الاعلام الانساني» في الاسلام، ومصطلح الاعلام الدولي المعاصر، ذلك ان الأخير يعاني من الاحتكاك والصراع الدولي، وفي كثير من الأحيان يصبح من أهم عوامل

(٧) سورة النساء أية ١٣٥

(٨) سورة المائده ايه ٨

(٩) سوره النحل أية ٩٠

الصراع الذي قد يؤدي الى الحروب والدمار، لأن الاعلام الـدولى المعاصر يسعى الى السيطرة على العقل البسري من خلال عملية الاتصال التطويعية وغيرها من العمليات الاتصالية. فالاعلام الدولي تعبير عن طبيعه العلاقات الدولية المعـاصرة والتي يغلب عليها طـابع الحـرب النفسية وتحـطم الروح المعنـوية لـدى الشعوب الأخـرى، على نحـو ما نعـرف اليـوم من دلالات المصطلحات التي شاعت في عصرنا كالحرب البارده والحرب الايـديولـوجيه وحرب الأعصاب والحرب السياسية وحرب القوّة الفكرية وما الى ذلك، مما يكشف في مجموعه عن عدم موضوعبة ما يطلق عليه تجاوزاً بالاعلام الدولي واستهدافه التأثير على آراء وسلوك وعواطف جماعات أو دول أجنبية عدائية أو محايدة أو صديقة. وذلك من أجل متابعة سياسة الدولة ومصالحها.

وعلى هذا الفهم يمكننا أن نتعرّف على الحلول الساملة والجذرية النى يقدّمها الاعلام الانساني في الاسلام لمشكلات الاعلام الدولي، والتى تظهر من خلال المؤتمرات الدولية للصحفيين في سيكاغو وبلجيكا عام ١٨٩٣، والنى لم تحقق شيئاً يذكر غير بعض التوصيات التي محتها الدعـاية والـرقابـة خلال الحربين العالميتين. ويمكن أن نجد هذا الصدى كذلك في اهتمام عصبة الأمم بمشكلات الاعلام الدولي من خلال المؤتمرات التي عقدت تحت رعايتها عام ١٩٢٧ في جنيف وعام ١٩٣٢ في كوبنهاجن وعام ١٩٣٣ في مدريد، وكانت أهداف مؤتمر خبراء الصحافة الذي عقد في جنيف ما يلى:

أولاً: البحث في الوسائل التى تكفل الانتقال السريع للأعمال الصحفيه بأقل النفقات، مع نظرة الى تقليل مخاطر سوء التفاهم الدولي.

ثانياً: مناقشة جميع المشكلات الفنيّـة التى يرى الخـبراء ان علاجهـا سيؤدّي الى تهدئة الرأي العام الدولي في الدول المختلفه وقد ظهـرت رغبة عصبة الأمم في القضاء على انتشار المعلومات الكاذبة عن الدول في مؤتمـر مكاتب الصحافة الحكومية الذي عقد عام ١٩٣٢، وقد أصرّ المجتمعون على

ألا تكون الاجراءات التي تتخذ لتحقيق هذا الأمر ماسّة بالحرّيات الأساسية للصحافة. وقد نوقشت هذه المشكلة ذاتها في مؤتمر مكاتب الصحافة الحكومية الذي عقد عام ١٩٣٣ ولكن شيئاً محدداً لم ينبثق عن هذه المؤتمرات[١٠].

الاعلام الاسلامي وحقوق الانسان:

واهتمّت هيئة الأمم كذلك بعد الحرب العالمية الثانية بمشكلة حرية الاعلام، وجاء ذلك في ذكر حقوق الانسان ومن بينها حرية الاعلام سبع مرّات في ميثاق الأمم المتحدة، كما نوقشت هذه الكلمة في الجمعية العامة والمجلس الاقتصادي والاجتماعي مرّات عديدة. وتضمّن دستور اليونسكو انه «لّما كانت الحروب تبدأ في عقول الرجال فينبغي أن تبنى دفاعات السلام في عقول الرجال أيضاً» واشارت الى ضرورة الاهتمام بالاعلام عن حقائق العلم والثقافة والتربية من أجل بناء وتدعيم السلام.

وهنا نجد ان النظرية الاعلامية في الاسلام تقوم على أساس انساني، وتؤكّد حقوق الانسان قبل كل الايديولوجيات والمواثيق الدولية تأكيداً ينبع من مخاطبة الفطرة الانسانية، وان دستور الاعلام الاسلامي يتجمع ويتبلور في قول الله تعالى: ﴿لا إكراهَ في الدينِ﴾.[١١] وفي قوله الكريم الموجّه الى الرسول الكريم ﷺ: ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾[١٢] فالاسلام ليس دين اكراه، ولكنّه يفرض على الاعلام الاسلامي أن يبشّر بالهداية والدعوة بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، ومن الحقائق الثابتة انه ما أكره على الاسلام فرد واحد من أصحاب العقائد السماوية، في حين أن الدعاية الدولية اليوم تحرص على اغتصاب عقول الجماهير باسم الاعلام الدولي تارة، والاتصال الثقافي تارة أخرى، ولكنّها تتفق في عمليات غسل المخ الجماعية، وممارسة أسباب الضغط على الجماهير لاعتناق أفكار معيّنة ومعتقدات جديدة، وهذه الأساليب يطلق

---

(١٠) د. أحمد بدر: الاعلام الدولي، ص ١٣٦

(١١) سورة البقره، الآية ٢٥٦.

(١٢) سورة يونس، الآية ٩٩.

عليها أساليب قتل العفل، كما يفول العالم النفسي الهولندى مرلو، لأنّها بحيل الانسان الى كائن لا حول له ولا قوّة، وتخضعه اخضاعاً للتعاليم الجديده، اذ تتضافر فنون الضغط الثقافي والعاطفى مرتبطة بالضغط البدنى للسيطرة على الانسان.

فالاعلام الدولي بالمصطلح الحديث لا يخرج عن مفهوم الدعاية كنشاط أو فن لاغراء الآخرين بالتصرّف بطريقة معيّنة على نحو ما نعرف عن الدعاية التبشيريّة والدعاية السياسية في وسائل الاعلام العالمية، والدعاية الرمزية في الحرب النفسية.. وعلى نحو ما نعرف عن عمليات الانتقام النازية التي كان يقصد منها ارهاب الفئات الأخرى التى قد تحاول المقاومة، وما نعرفه عن الغارة الانجليزية التي وجهت الى برلين في أثناء القاء الوزير جورنج خطاباً له من الاذاعة، اذ كانت أصوات القنابل الانجليزية وهي تنفجر في سماء برلين تكذب ما كان يزعمه جورنج من أن سماء برلين لا يمكن أن تقهر، فالدعاية الدولية مفهوم متدهور للاعلام لا يرمي الى الاقناع بقدر ما يرمي الى انتهاك حقوق الانسان. فأصبح الاعلام الدولي وفقاً لهذا المفهوم من وسائل جعل الانسان يعيش في فراغ وضياع، وأدّى به الى ان فقد جوهر انسانيّته فأصبح على الرغم من التكنولوجيا الحديثة مفتقداً انسانيّته، وهنا لا مفر من الرجوع الى الاسلام في الوصول الى نظرية اعلامية تواجه حقوق الانسان. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿هو الذي أرسلَ رسولَهُ بالهُدى ودينِ الحق ليظهرَه على الدينِ كله ولو كرِه المشركون﴾[١٣].

وفي سورة الفاتحة الدعاء الذي يتغياه الاعلام الانساني في الاسلام: ﴿آهْدِنا الصِراطَ المستقيم * صِراط الذين أنعمت عليهم غيرِ المغضوبِ عليهم ولا الضالين﴾[١٤].

---

(١٣) سوره الصف آيه ٩

(١٤) سورة الفاتحة الآيتان ٦ ـ ٧.

الاعلام الانساني في الاسلام:

والاعلام الانساني في الاسلام اعلام إيجابي يصل بين الانسان وخالقه، ويوضح حقائق الهداية، ويوجّه الانسان الى البناء من أجل الدنيا والآخرة.

ويقوم الاعلام الاسلامي على أساس من الخير الشامل الذي لم يستطع مذهب من المذاهب الاخلاقية الاعلامية أن يكفله مبرأ من الانسانية، أو الاستجابة لنوازع الأهواء الدعائية سياسياً أو دينياً، ذلك أن الاعلام الاسلامي ينهل من الاخلاق المثلى التي وضعها الاسلام لتحقيق الخير المحض للانسان في كل زمان ومكان، كما تمتاز نظرية الاعلام الاسلامي بأنها نظرية صالحة لكل الشعوب في كل زمان ومكان، لا ارهاق فيها ولا اعنات.

يقول الله تعالى: ﴿يريد الله بكم اليُسْرَ ولا يريد بِكم العُسْرَ﴾[١٥]
ويقول جلّ شأنه: ﴿لا يكلفُ اللهُ نَفْسا الا وُسْعَها﴾[١٦].

وانطلاقاً من هذا الفهم يمكن أن نتناول هنا في ضوء دراسة هذا المنهج الاعلامي المبادئ التي قام عليها الاعلام الاسلامي وفي مقدمتها دعم نظرية الاعلام الانساني:

الصدق:

ذلك أن الاسلام جعل الصدق فضيلة الانسان، بوجه عام، وهي بالقياس الى الاعلام الاسلامي تكون أهم مقوّمات تصديق المصدر أو المرسل الذي يبلغ دعوة الله كما جاءت، ويبيّن غوامضها، وينقل كل بيان قيل في شأنها. ولذلك كانت أهم صفة اشتهر بها الرسول عليه الصلاة والسلام هي صفة «الصادق الأمين».

ولما سأل هرقل أبا سفيان ـ ولم يكن قد أسلم بعد ـ عن محمد قائلاً:

---

(١٥) سوره البقره آية ١٨٥

(١٦) سوره البقره آيه ٢٨٦.

وهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ أجابه: لا.. فقال هرقل: اعرف انه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله[١٧].

وهرقل هنا يمثّل دور المستقبل ـ في نموذج الاعلام الدولي خاصه ـ الذي يشترط الصدق في المصدر، لأن من يلتزم الصدق مع الناس يكون صادقاً مع ربّه سبحانه وتعالى، وكان النبي ﷺ يؤكّد على هذا المعنى الاتصالي في بدء الدعوة والجهر بها حينما قال للناس: «لو أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل، أكنتم مصدقي؟»، قالوا جميعاً: «ما جرّبنا عليك كذبا»[١٨].

وفي القرآن الكريم يؤكّد الله تعالى في أكثر من آية على التزام الصدق في كل شيء، فقال تعالى: ﴿**يا أيُّها الذين آمنوا اتقُوا الله وكونوا مع الصادقين**﴾[١٩]، وقال تعالى: ﴿**انه كان صادقَ الوعدِ وكان رسولاً نبياً**﴾[٢٠]، وقال سبحانه: ﴿**ويَنْصُرُون الله ورسولَه أولئك هم الصادقونَ**﴾[٢١]، وقال جل شأنه: ﴿**والذي جاءَ بالصدق وصدَّق به أولئك هم المتقون**﴾[٢٢]، ويقول النبي عليه الصلاة وأزكى السلام: «عليكم بالصدق فان الصدق يهدي الى البر والبر يهدي الى الجنة»[٢٣].

والمرسل في الاعلام الاسلامي يظهر صدقه في وجهه وصوته وما يخطه قلمه، فقد كان ﷺ يتحدث الى من لا يعرفونه فيقولون: «والله ما هو بوجه كذاب ولا صوت كذاب»[٢٤].

---

(١٧) صحيح البخاري: جـ ١، ص ٥ ـ ٦، باب بدء الوحي.
(١٨) صحيح البخاري: جـ ٦، كتاب التفسير.
(١٩) سورة التوبة آية ١١٩
(٢٠) سوره مريم آية ٥٤
(٢١) سورة الحشر آية ٨
(٢٢) سورة الزمر آية ٣٣
(٢٣) موطأ مالك: جـ ٤، ص ٢٢٧، ما جاء في الصدق
(٢٤) تذكرة الدعاة للبهي الخولي.

وليس من سك في أن ظهور أنر الصدف في القائم بالاعلام الاسلامى يؤنر في الجمهور المتلقى وبحمله ذلك على فبول رساله الاعلامية واحترامها.

الصبر والثبات:

فالمثابرة على الدعوة من أهم صفات الإعلامى المسلم، وهذه المنابرة تقتضي الصبر الذي يعد نصف الايمان، وهو لغة: الحبس والكف، وشرعاً، على ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصة الله، وصبر على المصائب والبلاء. ذلك ان الاعلامين والدعاة مبتلون بأذى الكفار والمارقين بالقول والكيد.. قال تعالى: ﴿ولقد كُذِّبت رُسُلٌ من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذُوا حتى أتاهم نَصْرُنا ولا مُبَدِّل لكلماتِ الله ولقد جاءَك من نبأ المرسلينَ﴾[٢٥]، وقال جل سأنه: ﴿ولقد نعلم أنك يضيقُ صدرُك بما يقولون * فسبِّحْ بحمدِ ربك وكن من الساجدين * واعبدْ ربَّك حتى يأتيك اليقينُ﴾[٢٦]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿فاصبرْ إنَّ وعدَ الله حقٌ ولا يستخفّنّك الذين لا يوقنون﴾[٢٧].

فالصبر والبات هما عدّة الاعلاميين والدعاة في الاسلام، وقد أوذى أصحاب الرسول عليه السلام أشد الأذى، وكان ﷺ يأمرهم بالصبر (صبراً آل ياسر ان موعدكم الجنة)، فالاعلامبون والدعاة المسلمون بقابلون الأذى بالصبر الجميل، ولذلك يؤكد الدارسون المسلمون في علم الدعوة على ضرورة توافر عدد من الشروط في المرسل في نظربة الاعلام الاسلامي:

١ ـ أن بدعو الاعلامي المسلم الى الله على بصيرة بالوسائل والكيفيات المشروعة التى بينها القرآن الكريم وطبقها النبى عليه السلام، فاذا أدّت

(٢٥) سورة الانعام ايه ٣٤.

(٢٦) سوره الحجر ايات ٩٧ ـ ٩٩

(٢٧) سوره الروم ايه ٦٠

هذه الوسائل الى أذى يصيب الداعى فعليه أن يتقبّله بالصبر لا بالجزع، وبالثبات لا بالفرار.

٢ ـ إذا كان الاعلامي المسلم قادراً على توقّي الأذى، فعليه أن يتوقّاه حسب الظروف والأحوال، لأن فيه فتنة مهولة العاقبة، جاء في الحديث الشريف (لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه).

قالوا: «وكيف يذل نفسه يا رسول الله؟».
قال: «يحتمل من البلاء ما لا يطيق»[٢٨].

٣ ـ من الأدعية المأثورة ان يسأل المسلم ربّه العفو والعافية، وفي وصيته عليه السلام لأسامه بن زيد وقد جعله أميراً على الجيش لغزو الروم قبل وفاته عليه السلام بأيام، قال له «ولا تتمنوا لقاء العدو فانكم لا تدرون لعلكم تبتلون بهم، ولكن قولوا اللهم اكفناهم واكفف بأسهم»[٢٩]، وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿**وكفى اللهُ المؤمنينَ القتالَ**﴾[٣٠].

ولقد هاجر المسلمون من مكة الى الحبشة فراراً بدينهم وتخلصاً من أذى قريش فدل ذلك على جواز دفع البلاء والأذى وعدم الاستسلام له، لأن نفس المسلم ليست ملكه وانما هى ملك لله، فلا يجوز اتلافها بلا فائدة تعود الى الاسلام، والاعلامى أو الداعي المسلم لا يستدعي الأذى لنفسه، بل يعمل على عدم وقوعه. واذا وقع عمل على دفعه بكل وسيلة مشروعة في ضوء القرآن والسنة.

٤ ـ اذا وقع الضرر والأذى على الاعلاميين والدعاة المسلمين رغم التزامهم بالسير المشروعة في الدعوة والاعلام الاسلامي، فعليهم أن يستعينوا بالله ويصبروا الصبر الجميل، وليعلموا ان الأمور كلها بيد الله تعالى[٣١].

---

(٢٨) إمتاع الاسماع، ص ٢٨
(٢٩) سيره ابن هشام، ص ٣٣.
(٣٠) سوره الأحزاب، آية ٢٥.
(٣١) د عبد الكريم زيدان: اصول الدعوة، جـ ١، ص ٥٣.

الرحمة والعفو والتواضع:

وهذه الأخلاق الاسلامية جميعاً تعد من صفات الداعية المسلم ورجل الاعلام الاسلامى ـ محلياً ودولياً ـ فقد قال عليه الصلاة والسلام «لا يرحم الله من لا يرحم الناس»، «لا تنزع الرحمة الا من شقي»، «الراحمون يرحمهم الله تعالى، ارحموا مَن في الأرض يرحمكم من في السماء».

ذلك أن رسول الاسلام عليه أفضل الصلاة والسلام قد وصفه الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم بقوله: ﴿لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه مَا عَنِتُّم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوفٌ رحيمٌ﴾[٣٢].

فالرحمة اذن مبدأ من المبادئ المثلى في الاعلام الاسلامي، لأنها تؤدي فى نهاية الأمر الى تحقيق التواصل في كيان الأمة الاسلامية على أرفع مستوى تحلم به نظريات الاتصال والاعلام في القديم والحديث.

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»، أخرجه البخاري ومسلم.

والتراحم لغة: التواد والتعاطف، وكلها من باب النفاعل الذي يستدعي اشتراك الجماعة في أصل الفعل، وكذلك التواصل، وبينها ـ وإن تقاربت في المعنى ـ فرق لطيف، فالتراحم: رحمة بعضهم بعضاً بأخوة الإيمان لا بسبب آخر، والتواد: التواصل الجالب للمحبة، والتعاطف إعانة بعضهم بعضاً كما يعطف التوب على النوب تقوية له. وتداعوا: دعا بعضهم بعضاً، وهكذا يستخدم الرسول عليه الصلاة والسلام هذه الألفاظ الدالة على جوهر الانصال والاعلام ودلالة النراحم فيها، فيمتل ﷺ المؤمنين في هذه الخلال بالجسد الواحد، فكما أن الجسد اذا مرض منه عضو تألم له كل أعضائه، فكذلك

---

(٣٢) سوره النوبه أبه ١٢٨

المؤمنون يسعون بالتعاطف لدفع الألم عن أى مصاب فيهم، ويجلبون له الخير، فالمسلمون في نظرية الاتصال الانسانى ـ على الصعيدين المحلي والدولي ـ كشخص واحد، وكل فرد منهم بالنسبة للمجموع كعضو بالنسبة للشخص، فالخير يصيب الواحد منهم كأنما أصابهم كلهم، والسر يصيبه كأنما أصابهم جميعهم.

ونخلص مما تقدّم الى أن نظرية الاعلام الاسلامي نذهب الى العمل على نشر الدعوة الاسلامية بكل الوسائل المشروعة، لأفراد الأمة الاسلامية ولغيرها من الأمم الأخرى.

الأسس الاعلامية للأدب الاسلامي (*)

في تاريخ الرسالات نرى أن الدعوة الاسلامية هي الرسالة العامة الى كل الخلق، وأن الرسالات السابقة تعتبر تمهيداً للاسلام، وقد صوّر النبي ﷺ هذه الحقيقة بقوله «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله الا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون ويقولون: أَهَلاً وضعت هذه اللبنة!.. فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»[1].

ومع هذا الترابط بين دعوات الله في الناس فان الدعوة الاسلامية تتميّز عن سائر الدعوات الالهية بميزات نرى انها تمثل سمات الاعلام الاسلامي، ومنها:

١ ـ أن الاعلام الاسلامي وسيلة لدعوة اكتملت فيها نعمة الله باكتمال دعوته في العالمين، ومناسبتها للرقي الانساني في أرقى مظاهره في كل زمان ومكان.

٢ ـ أن الاعلام الاسلامي يحقق الفردية والجماعية، وبذلك يخالف التعادلية بين المادة والروح في حياة الماديين الذين يتّجهون الى نيل أكبر قسط من المادة مع اغفال كثير من المعاني الانسانية، ويخالف الروحانيين الذين ينادون بقتل النفس بالزهد والحرمان.

وعلى ذلك فان التحليل الوظيفى للاعلام الاسلامي يذهب الى أن

(*) مجله الفن الاذاعي في القاهرة ١٩٨٧.

(١) صحيح مسلم جـ ٧ ص ٦٤، ٦٩

يرضى ضرورات الجسد والروح معاً: النفس والنسل والعقل والدين والمال، وهي الضرورات التي تتعلّق بها مصالح الدنيا والآخرة، ويتحقق بها السلام والسعادة، يقول الشاطبي: «ومجموع الضرورات خمس: وهي حفظ الدين، النفس، النسل، المال، والعقل.. وهذه الضرورات ان فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة بل على فساد والرجوع بالخسران المبين».

٣ ـ ان الاعلام الاسلامي ـ كما تقدّم ـ ينبع من شمول التشريع الاسلامي لأنواع الناس ولكافة مراحل تطور الانسان، وبذلك يشمل كيان الفرد كله والمجتمع بأسره، ولا تفرقة بين ذكر وانثى ولا ميزة للون أو لجنس، أو لعارض من عوارض الدنيا، وبذلك يسعى الاعلام الاسلامي لتحقيق الاخاء والعدل والحرية والمساواة.

٤ ـ يراعى الاعلام الاسلامي طبيعة الانسان ويتفق مع فطرته في كل أمور دينه ودنياه، قال تعالى: ﴿**ومن يُطِعِ اللهَ ورسولَه فقد فازَ فوزاً عظيماً**﴾(٢).

الاعلام الاسلامي والفطرة الانسانية:

تقوم الأسس الاتصالية للاعلام الاسلامي على قوانين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهي القوانين التي تدفع بمفكري العصر الى المناداة بدراسة الانسان، فالاعلام الاسلامي إذن يقوم على «انسانية الانسان»، يقول سبحانه وتعالى في سورة العلق: ﴿**اقرأ باسم ربّك الذي خلق • خلق الانسان من علق • اقرأ وربك الأكرم • الذي علم بالقلم • علم الانسان ما لم يعلم • كلا ان الانسان ليطغى • أنْ رآه استغنى • إنَّ الى ربّك الرجعى**﴾(٣).

وعبادة الانسان لله سبحانه وتعالى إرادية وواعية في جانب منها على

---

(٢) سورة الأحزاب، آية ٧١.

(٣) سورة العلق، آيات ١ ـ ٨.

الأقل، بخلاف عبادة غيره من الكائنات، فإذا كانت الذرة تعبد الله بالطاعة لا إرادة فيها ولا وعي، وإذا كان الكون والأرض وما عليها من نبات وحيوان تعبد الله على نفس الطريقة، فان الانسان الى جانب هذا اللون من الطاعة قد ألهم طريقين لا طريقاً واحداً: طريق الطاعة وطريق العصيان، وأعطي القدرة على التمييز بين الطريقين واختبار أحدهما والمضي فيه ﴿وهديناه النجدينِ﴾[٤] ﴿إنَّا هديناه السبيلَ إما شاكراً وإما كفوراً﴾[٥].

﴿ونفسٍ وما سواها * فألهمها فجورَها وتقواها *. قد أفلح من زكّاها * وقد خابَ من دسَّاها﴾[٦].

ومن ثم فالانسان هو المخلوق الوحيد من مخلوقات الأرض - الذي يعبد الله عن وعي وفهم وادراك، وهو كذلك المخلوق الوحيد في الأرض الذي يعصي الله حين ينحرف عن طريق الهداية ويختار طريق العصيان. ولكنه في الحالين «يدرك» وجود الله سبحانه وتعالى، ويدركه بالفطرة.. ﴿وإذ أخذ ربُّك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدَهم على أنفسهم ألستُ بربكم قالوا بلى شهدنا﴾[٧].

وللفطرة طريقة خفية في ادراك وجود الله سبحانه وتعالى والايمان بوجوده والاتصال به، والاستعانة به، والتزود من زاده.

وانطلاقاً من هذا الفهم، فان الاعلام الاسلامي يقوم على الفطرة، ويخاطب العقول ويقنعها بالدليل، ذلك أن الاسلام يقدر العقل المدرك، وقد حفل القرآن الكريم بخطاب «العقل» كل ملكة من ملكاته، قبل أن يصبح العقل «درساً» يتقصّاه الدارسون كنهاً وعملاً، وأثراً في داخله وفيما يخرج عنه،

---

(٤) سوره البلد، آية ١٠.

(٥) سورة الانسان، آية ٣

(٦) سورة الشمس، آيات ٧ - ١٠

(٧) سوره الاعراف، آية ١٧٢.

وفيها يصدر عنه، وفيها يصدر منه، وما يئول اليه.. على حد تعبير العقاد.. فالعقل وازع «يعقل» صاحبه عمّا يأباه التكليف، والعقل فهم وفكر يتقلّب في وجوه الأشياء وفي بواطن الأمور.. والعقل رشيد يميّز بين الهداية والضلال، قال سبحانه وتعالى: ﴿ويتفكَّرونَ في خلق السموات والأرض ربَّنا ما خلقتَ هذا باطلاً﴾[8]. ﴿أَوَلم يتفكَّروا في أنفسهم ما خلقَ اللهُ السمواتِ والأرضِ وما بينهما الا بالحقِ وأجلٍ مُسَمًّى﴾[9].

فالإيمان بالعقل المسئول، إذن، هو أساس الاعلام الاسلامي على نقيض ما يحدث اليوم في أنحاء العالم من ضغوط على الجماهير لاعتناق أفكار معيّنة والإيمان بمعتقدات جديدة، وعلى نقيض ما يسمّيه عالم النفس الهولندي قتل العقل Menticisal وهنا يصبح الاعلام الاسلامي هو النموذج الأمثل في تحقيق ما تسعى اليه النظريات الاعلامية من جعل الاعلام يزود الناس بالاخبار الصحيحة والمعلومات السليمة والحقائق الثابتة التي تساعدهم على تكوين رأي صائب في واقعة من الوقائع أو مشكلة، بحيث يعبر هذا الرأي تعبيراً موضوعياً عن عقلية الجماهير واتجاهاتهم وميولهم.

فالاعلام الاسلامي يقوم على الوضوح والصراحة ودقّة الاخبار والمعلومات، لأنه يخاطب العقل في المحل الأول، انطلاقاً من فهم القرآن الكريم، حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إنَّا أنزلناه قُرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾[10].

ومن فهم الآيات الكونية التي خاطبت العقل، والتي منها قول الله تعالى: ﴿وسخرَ لكم الليلَ والنهار والشمسَ والقمرَ والنجومُ مسخراتٌ بأمره إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يعقلون﴾[11].

---

(٨) سورة آل عمران، آية ١٩١.

(٩) سورة الروم، آيه ٨.

(١٠) سورة يوسف، آية ٢.

(١١) سورة النحل، آية ١٢.

ويعيب القرآن الكريم على من يهمل عقله، يقول تعالى: ﴿أتأمرون الناسَ بالبرِّ وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتابَ أفلا تعقلون﴾[١٢].

فنراه سبحانه ينكر تعطيل العقل عند من يفعل ذلك، ويوضح الزمخشري في تفسيره هذا وهو يقول: أفلا تفطنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى يصدّكم استقباحه عن ارتكابه، وكأنكم في ذلك مسلوبو العقول فانها في الواقع تأباه وتدفعه.

يقول تعالى: ﴿ان شرَّ الدوابِ عند الله الصُمُ البُكمُ الذين لا يعقلونَ﴾[١٣].

ومن أجل ذلك سترط الاعلام الاسلامي الالتزام بمعايير الصدق والأمانة، وتزويد الناس بالمعلومات الصحيحة والحقائق الواضحة التي يمكن التثبت من صحّتها أو دقّتها بالنسبة للمصدر الذي نبع منه أو تنتسب إليه، وقد بين الله تعالى ذلك فقال جل شأنه: ﴿ان في خلقِ السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآياتٍ لأولي الألبابِ﴾[١٤].

يقول ابن كثير ـ بعد أن عدد بعض ما في هذه الآيات من عجب ـ انها لأصحاب العقول التامة التي تدرك الأشياء بحقائقها على طبيعتها، ذلك لأن اللب هو كمال حال العقل.

وتأسيساً على هذا الفهم يمكن القول ان الاعلام الاسلامي يخاطب الفطرة الانسانية، ذلك ان الله سبحانه وتعالى قد خلق الانسان في أحسن تقويم، وكرمه على كثير من خلقه، ورزقه من الطيبات وابتلاه بالخير والشر فتنة، ونفخ فيه من روحه، ووهبه العقل، ومنَّ عليه بالرسل والأنبياء ينيرون

---

(١٢) سورة البقره، آيه ٤٤

(١٣) سورة الأنفال، آية ٢٢.

(١٤) سوره آل عمران، آيه ١٩٠.

له طريق الحياة ويهدونه سواء السبيل، ثم جعله مسئولاً وان أحسن فلنفسه وان أساء فعليها.

والصفات الآتية هي الصفات التي فطر الله الناس عليها كما وردت في القرآن الكريم:

ـ كرمه الله ورزقه وفضله على كثير من خلقه: ﴿ولقد كرمنا بني آدمَ وحملناهم في البرِ والبحرِ ورزقناهم من الطيبات وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾[١٥].

ـ خلقه الله تعالى في أحسن تقويم.. خلقاً وخلقاً وعقلاً: ﴿يا أيها الانسان ما غرَّك بربّك الكريم • الذي خلقك فسواك فعدلك • في أي صورة ما شاء رَكّبك • كلا بل تكذّبون بالدين • وإنَّ عليكم لحافظين • كِراما كاتبين • يعلمون ما تفعلون﴾[١٦].

﴿لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم • ثم رددناه أسفلَ سافلين • الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجرٌ غيرُ ممنونٍ﴾[١٧].

ـ نفخ الله فيه من روحه: ﴿ذلك عالمُ الغيب والشهادة العزيز الرحيم • الذي أحسن كلَّ شيء خلقه وبدأ خلقَ الانسان من طين • ثم جعل نسلَهُ من سلالة من ماء مهين • ثم سواه ونفخ فيه من روحِه وجعل لكم السمع والابصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾[١٨].

ـ استخلفه الله تعالى في أرضه: ﴿واذ قال ربُّك للملائكة اني جاعلٌ

---

(١٥) سورة الاسراء، آية ٧٠.
(١٦) سورة الانفطار، آيات ٦ ـ ١٢
(١٧) سوره التين، آيات ٤ ـ ٦.
(١٨) سورة السجدة، آيات ٦ ـ ٩

في الأرض خليفة قالوا أتجعلُ فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدسُ لك قال اني أعلم ما لا تعلمون﴾[19].

ـ مكنه الله تعالى في الأرض: ﴿ولقد مكنّاكم في الأرضِ وجعلنا لكم فيها معايشَ قليلاً ما تشكرون﴾[20].

ـ الصالحون منهم يرتون الأرض: ﴿ولقد كتبنا في الزَّبُور من بعد الذِكْرِ أن الأرض يرثها عبادي الصَالحون﴾[21].

ـ مسئول: ﴿ومن يَكْسِب اثماً فانما يكسِبُهُ على نفسه وكان اللهُ عليماً حكيماً﴾[22].

ـ ﴿وقُلِ الحقُّ من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفرْ﴾[23].

ـ ﴿ولا تَقْفُ ما ليس لك به علمٌ ان السمعَ والبصرَ والفؤادَ كل أولئك كان عنه مسئولاً﴾[24].

ـ ﴿وأن ليس للانسان الا ما سعى * وأنَّ سعيَه سوف يُرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾[25].

ـ ﴿كلُ نفس بما كسبت رهينةٌ﴾[26].

ـ فقير الى الله: ﴿يا أيُّها الناس أنتمُ الفقراءُ الى الله والله هو الغنيّ الحميد﴾[27].

---

(١٩) سورة البقرة، آية ٣٠.
(٢٠) سورة الاعراف، آية ١٠.
(٢١) سورة الأنبياء، آية ١٠٥.
(٢٢) سورة النساء، آية ١١١.
(٢٣) سورة الكهف، آية ٢٩.
(٢٤) سورة الاسراء، آية ٣٦.
(٢٥) سوره النجم، آيات ٣٩ ـ ٤١.
(٢٦) سورة المدثر، آية ٣٨.
(٢٧) سورة فاطر، آية ١٥.

ـ خلق في كبد: ﴿لا أقْسِمُ بهذا البلدِ • وأنت حلٌّ بهذا البلد • ووالد وما ولدَ • لقد خلقنا الانسان في كبدٍ﴾(٢٨).

ـ مبتلى من الله تعالى: يبتليه الله بالخير والسر فتنة، ليعجم عوده ويبين الغث من السمين، والمؤمن الصابر من الكافر الجزوع. ﴿انا خلقنا الانسان من نُطفةٍ أَمْشَاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيرا • إنَّا هديناه السبيل اما شاكراً واما كفوراً﴾(٢٩).

ـ ﴿ولنبلونَّكُم بشيء من الخوف والجوع ونقصٍ من الأموال والأنفسِ والثمرات وبَشِّرِ الصابرين﴾(٣٠).

ـ ﴿ولنبلونكم حتى نعلمَ المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم﴾(٣١).

ومن هذه الآيات القرآنية الكريمة يتّضح لنا ان للاعلام الاسلامي في مخاطبة الانسان خصائصه المميزة، التي تقربه من سائر النظريات الاعلامية، وتجعل له الريادة والكشف والسبق لكل ما يستحدث من نظريات، تتطوّر في إطاره وتنمو وتتقدّم.

وهذه الخصائص التي تخاطب الفطرة الانسانية، هي التى جعلت الدراسات الاعلامية المعاصرة تذهب الى أن الناس يقبلون على الاعلام اذا كانوا يجدون فيه فائدة محقّقة لهم، أو اشباعاً لحاجاتهم، وقد تفيد المعلومات فائدة عاجلة كما تفيد فائدة آجلة، على النحو الذي يجعل الناس في وسائل الاتصال بالجماهير يجدون معلومات ترشدهم وتفيدهم، وفضلاً عن ذلك تساعد المعلومات على تأكيد الثقة بالنفس وتحقيق الانسجام الداخلي والائتلاف

(٢٨) سوره البلد، آيات ١ ـ ٤.
(٢٩) سورة الانسان، الآيتان ٢ ـ ٣.
(٣٠) سورة البقرة، آية ١٥٥.
(٣١) سورة محمد، آيه ٣١.

الاجتماعي، وهو الأمر الذي تحقّقه مبادئ الاعلام الاسلامى التى تنبع من الايمان بالله، من حيت تنظيم علاقة الفرد بنفسه، وعلاقة الفرد بالفرد الآخر، ثم علاقة الفرد بأمّته ومجتمعه، وبالكون الـذي يعيش فيه. كـما ان الاعلام الاسلامي يخاطب المجتمع العالمي الانساني بالوشائج القويّة من الاخاء والمحبّة والتسامح والتعاون والتكامل.

واذا كـانت الدراسـات الاعلاميـة الحديثـة تذهب الى أن الـرسالـة الاعلامية التي يحتاجها المستقبل ويشعر بأنها نلبّي حاجاته، تظفر منه بالتقبل والاهتمام والسعي للحصول عليها.. فان الاعلام الاسلامي يدور في اطار يسمل الانسانية في كافة أقطارها وأزمانها، ويمنح قلب المستقبل راحة وهدوءاً، ويتيح لعقله طمأنينة واستقراراً، حيث يجد أنه - اذ يتصل بالله سبحانه وتعالى - يتّصل بحقيقة المؤثرات الفاعلة في هذا الوجود، كما هي في عالم الحقيقة والواقع، كما يصفّي ضمير المستقبل من الغرور، ويخلص نفسه من الكبرياء، ويمحو ما أصاب عقله من جهالة، ومن نم يدور الاعلام الاسلامي في صور متعدّدة، تتناول كل صورة منها بعداً من أبعاد الانسان المستقبل بالتهذيب والتوجيه حتى تتناسق الجماعة كلها، وتتلاقى في مجمع حي الضمير، متماسك البنيان، واعي الفكر، مرهف المشاعر، واقعي النظرة، خير النزعة، مستقيم السلوك، يشيع بين أفراده احساساً بالمسئولية، ويسودهم شعور بالتساوي يلزمهم بالحرية.

واذا كان الاعلام يقبل عليه الناس في عصرنا لأنه يعطيهم من الأفكار والمعلومات ما يسنخدمونه في رفع مستوى معارفهم، فان الاعلام الاسلامي قد أكد على ذلك، وأدى الى دعم اتجاهاتهم النفسية وتعزيز قيمهم ومعتقداتهم، قال رسول الله ﷺ: «بني الاسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسـول الله، واقام الصـلاة، وايتاء الـزكاة، والحـج، وصوم رمضـان».. رواه البخاري ومسلم.

فعن هذا الحدبث الشريف يتّضح أن الاسلام الذي ينبع منه الاعلام الاسـلامي يعني التصديق بـالقلب، والتصديق بـاللسان، مـع الوفـاء بالفعـل

والاستسلام لله في جميع ما قضى وقدر. والسهادة قول صادر عن علم حصل لمشاهدة بصر أو بصيرة، وتقال لمطلق الاقرار والاعتراف بالاله المعبود والصلاة في الأصل الدعاء، وتقال للعبادة، وتقال للعبادة المعروفة لما فيها من الدعاء والتوجه الى الله، واقامتها تقويمها بالخسوع فيها، والتفكر في معانيها، وتذكر ما أقيمت له، فهي من: أقام العود اذ قومه. والصلاه اذن بوثق صلة العبد بربّه، فيفيض عليه من خيره، وتطهر نفسه من التكالب على أعراض الدنيا، وتعوده الاخلاص والابتعاد عن النفاق، أما الزكاة فقد أطلقت في عرف الشارع على ما يخرجه الانسان من ماله حقاً لله تعالى ليصرف لذوى الحاجات وفي الصالح العام والمصالح العامة.. والصوم يذكي في الانسان روح التفكير، اذ البطنة تذهب بالفطنة، ويذكره في كل لحظة بالله رب نعمنه، فترطب بذكره لسانه، والحج في اللغة القصد، والمراد به في لسان الشارع قصد البيت الحرام ـ الكعبة ـ وفيه يتجلّى الاعلام الاسلامى في أوضح صوره، والوقوف على حال المسلمين في الأقطار المختلفة، والاعلام أول خطوة الى العمل بدعائم الاسلام وقيمه الأصيلة.

الأسس الاتّصالية في الاعلام الاسلامي:

وانطلاقاً من هذا الفهم يتّضح أن الاعلام الاسلامى يقوم على أسس اتّصالية رائدة بالقياس الى النظريات الاعلامية المعاصرة، ذلك أنه خاطب الفطرة الانسانية على نحو غير مسبوق، وهو الأمر الذي نسعى اليه جاهدة نظريات الاعلام في عصرنا هذا بهدف دراسة وتحليل محددات Determinants Behaviour السلوك.

وبعض هذه المحدّدات هي: المحدّدات الوراثية الخاصة بالجينات: المحدّدات البيولوجية والمحدّدات اللاواعية أو اللاشعورية... الخ.

ومن هذه الدراسة المعاصرة يحاول علماء الاتّصال (من أمثال البورت

١٩٤٧ ـ وشـارتليت ١٩٥٨ ـ وبرونـر ١٩٥٨ ـ وهوفـلاند ـ وشرام ١٩٥١) التعرّف على التعرّض للاتصـال وتفسير لـلاتصال وتفسـير المضمون وتـذكر الاتصال والنتائج السلوكية والوقفية المترتبة على الاتصال، كل ذلك بحكمة ـ بصفة خاصة ـ الاستعداد المسبق لدى الشخص المستقبل.

وتركّز هذه الدراسات على التغيير السلوكي من خلال دراسة مكونات عملية الاتصال والمتغيّرات التي ترتبط بكل منها، وتتضمّن عملية الاتصال.

(أ) المصدر.
(ب) الرسالة.
(جـ) المستقبل.
(د) قناة الاتصال.

ونحاول في هذه الصفحات دراسة العناصر المتعلّقة بالمصدر، مـرجئين دراسة قناة الاتّصال لمقال تالٍ على اعتبار انها تمثّل القـاسم المشترك بـين العصور المختلفة في تطوّر الاعلام الاسلامي، وعلى اعتبار اننا درسنا عنصر الرسالة في مقالات سابقة.

مصدر الاتصال:

ان مصدر الاتصال ـ كما تقول الدراسات الحديثة ـ هو منشئ الرسالة وفي مجال الاعلام الاسلامي فان المصدر هو القرآن الكريم والسنّة المطهّـرة ويكون الدعاة الاعلاميون هم الذين يمثّلون عناصر «المرسـل» الذي يؤدّي رسالة المصدر، ولذلك فان الدراسات الحديثة تركّز في هذا العنصر على قابلية المرسل أو المصدر للتصديق، فقـد وجد هـوفلانـد ورايس (١٩٥١) وكليمان وهوفلاند (١٩٥٣) في تجاربهم على المصادر عالية وقليلة القابلية للتصديق، ان المعرضين للاتصال يكتبون نفس الكميّة من المعلومات بغض النظر عن درجة قابلية المصدر للتصديق. وإذا كان الاتصال منسوباً بـالمصدر قليـل القابليـة

للتصديق، فان المعرضين للاتصال سيحكمون على المعلومات بصورة أقل عدلاً وسيجدون أن الاستنتاجات تبريرها أساسه ضعيف.

وتوضح هذه الدراسات أن أمانة المصدر وجدارته بالثقة جانب هام من جوانب قابليّة المصدر للتصديق.

ولقد أكّد الاعلام الاسلامى على ضرورة توافر الصفات المثلى في الدعاة ورجال الاعلام لكي يكونوا موضع تصديق، ذلك أن هؤلاء هم ورثة النبي ﷺ في مهمّته الاعلامية، والقائمون مقامه في ابلاغ دين الله. وكان النبى ﷺ يؤكّد للمسلمين على ذلك، فقال لأصحابه «ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب»[٣٢]، وقال ﷺ: «تسمعون ويسمع منكم ويسمع من يسمع منكم»[٣٣]

ويقول تبارك وتعالى: ﴿وأوفوا الكيلَ والميزانَ بالقِسْطِ لا نُكلِّفُ نفساً الا وُسْعَها﴾[٣٤].

هذه الصلاحية وهذا اليسر محقّقان في الاعلام الاسلامي، على حين أن مذاهب «السلطة» الاعلامية أو «الحرية» أو «المسئولية الاجتماعية» مذكورة في الاعلام الاسلامي.

والاسلام دين يصلح لكل المجتمعات لأنه دين المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات، وفي الثواب والعقاب، وفي الحسنات والسيئات، الأمر الذي يجعل الاعلام الاسلامي مستهدفاً الحض على الأخلاق الكريمة، والفضائل العليا التى تصلح للأفراد والمجتمعات في كل مكان وزمان.

وهذه الصورة المثلى التي ينشدها علماء الاعلام لا تتحقق الا في نظرية الاعلام الاسلامي، ذلك ان النظريات الاعلامية الوضعية في عالم اليوم انما هي

---

(٣٢) صحيح البخاري جـ ١ ص ٣٧ كتاب العلم - باب ليبلغ الشاهد منكم الغائب.

(٣٣) الفتح الرباني جـ ١، ص ٢٦٤ كتاب العلم - باب فضل تبليغ الحديث.

(٣٤) سورة الأنعام آية ١٥٢.

خضم عجيب.. الاخلاقيات أصبحت تحكمها المصالح، والوطنية أناشيد رنّانة بطرب لها الناس، والمصالح المسركه شباك تطلق من الجانبين يصطاد بها كل جانب ما وسعه أن يصطاد على حساب الطرف الآخر، والوفاق الدولي سبكة كبيرة تقع تحت طائلتها مصالح الدول والدويلات المسكينة التى يسمح لها بالعيش في اطار حماية العملاق أو العملاقين أصحاب الشبكة التى تم صنعها بالوفاق، وكذلك حماية المصالح.

الاعلام الاسلامي والمذاهب الوضعية:

يتأثّر تشكيل النظام الاعلامى بالببئة الفكرية الى حدّ كبير، فالأفكار السائدة في مجتمع ما تشكّل مؤسسانه، كما تسكّلها كذلك القوى الاقتصادية والاجتماعية، ولذلك شاع اصطلاح «النظام الاعلامى» وخاصة منذ اتخذه البعض معياراً.

فالدعاية الدولية مفهوم متدهور لا يرمى الى الاقناع بقدر ما يرمي الى الاغتصاب النفسي وانتهاك حقوق الانسان، ولكن الاعلام الانساني في الاسلام ينطلق أساساً من الحرص على حقوق الانسان، ويتوسّل بالاقناع والتعبير الموضوعي عن عقليّة البشر في وضوح وصدق وأمانة، وهو لذلك يحث على التنوير والتثقيف، وضمان حريّات الناس وأمنهم على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم، فالاسلام الذي حرّر العبيد، هو نفسه الذي رسم السبيل لتحرير الانسان وضمان حقوقه ولذلك فان نظرية الاعلام في الاسلام هي النظرية المثلى في معالجة مشكلات الانسان المعاصر الني حار في علاجها المفكّرون والفلاسفة في شتى بقاع العالم.. إذ ان الاعلام الاسلامي هو الذي يسكب في النفس الطمأنينة والرضا ويحفظ على الانسان كرامته وحريته وينشئ لديه رقابة ذاتية تحميه وتحمي مجمعه وأمّنه الانسانية.

ولذلك يمكن القول ان النظريات الاعلامية المعاصرة هي نظربات تهتم

بالجانب المادّي للانسان، والتقدّم العلمي للسيطرة على عقول الناس، وتروج للرسالات المادية والالحادية والنزوات الشريرة لكي تطغى على الانسان، فأصبح الانسان أسيراً لوسائل الاعلام المعاصرة التي جعلته يعيش في فراغ وضياع، وفقد للتفرقة بين البلاد التي تعتنق أي ايديولوجيات مختلفة، كالرأسمالية والاشتراكية مثلاً.

و«النظام الاعلامي» اصطلاح متشعّب العناصر، ويكاد يشمل كافة جوانب الحياة المجتمعة، بغضّ النظر عن الايديولوجية التي يدين بها سواء عن اقتناع بضرورتها أو كانت مفروضة عليه بفعل القهر والاكراه من قوى في الداخل أو بالضغط من الخارج «تقول هذه لأنه كثيراً ما تكون ظروف المجتمع العامة لا تسمح بالأخذ بمذهبية معيّنة، أما لأن الذين يدعون اليها قلّة، وأما لأنها مستوردة من مجتمع خارجي، ولكي تنجح قوى معيّنة، لسبب أو آخر، في القفز الى ذوي السلطة فتكره الناس على اتباع هذه المذهبية فيرضخون ويستسلمون».

من أجل ذلك نرى أن العصر الحديث أحوج ما يكون الى دراسة النظم الاسلامية بعامة والاعلامية بخاصة، لعدد من الأسباب منها:

أولاً: الهجوم السياسي والثقافي على العالم الاسلامي بسبب الدعايات الرأسمالية (الليبرالية) والاشتراكية، فان كلاً من المعسكرين ـ الرأسمالي والاشتراكي ـ يحاول جاهداً أن يضم البلاد الاسلامية إليه، وكانت أخطر هذه المحاولات هي التى تحاول التقريب بينها وبين الاسلام، وادعاء كل من الفريقين ـ الرأسمالي الليبرالي والاشتراكي ـ ان الاسلام ينتمي اليه، فلما رفض المسلمون ذلك احتاجوا الى اظهار النظام الاسلامي في الاعلام والسياسة والاجتماع والاقتصاد وبيان الفرق بينه وبين هذين النظامين.

ثانياً: ان ميل بعض الدول الاسلامية المعاصرة الى النظام الرأسمالي الليبرالي وميل بعضها الآخر الى النظام الاشتراكي أدى الى الخلاف والشقاق،

بل والصراع المسلّح أحياناً مما كان له أسوأ الأثر في التضامن الاسلامي وأدّى الى عجز المسلمين عن مواجهة المشاكل التي تبدّد مصالحهم المشتركة، وقد فطن المسلمون أخيراً الى خطورة هذا الانقسام وحاجتهم الى كلمة سواء تجمّعهم جميعاً.

ثالثاً: فشل الشعارات القومية والعنصرية في تجميع المسلمين العرب وعدم كفايتها في اقامة صرح الدفاع عن مصالحهم.. ففي مستهل القرن الحالي ـ عندما أزمعت الدول الأجنبية تصفية الدولة العثمانية ـ جنح المسلمون الى احياء أصولهم القديمة ـ كالفرعونية والحيثية والفينيقية ونحو ذلك ـ فقضوا بذلك على وحدتهم الاسلامية، ثم عادوا وتمسكوا بالقومية العربية ولكنها لم تثمر كثيراً، لأن العروبة ليس لها نظام أو نظرية خاصة بها، بخلاف الاسلام الذي ينطوي على جميع القيم الحضارية بدون عنصرية.

ولذلك فقد تطلبت هذه الظروف مجتمعة ـ وغيرها ـ الاهتمام بابراز النظام الاسلامي وتحديده لصدّ الغزو السياسي والفكري ـ من ناحية ـ وإقامة أساس للتكامل السياسي والاقتصادي بين المسلمين العرب من ناحية أخرى.

ولم تتقبّل الأفكار الوضعية في الدول الاسلامية هذا المنافس الجديد ـ وهو النظام الاسلامي ـ بسهولة.. بل واجهته بالعنف والشدة أحياناً، أو باللامبالاة أحياناً أخرى.

ويمكن القول بأن هذه المواجهة اتخذت ثلاثة أدوار متميزة:

الدور الأول: الانكار التام لوجود نظم اسلامية سياسية أو اقتصادية أو غيرها، والادعاء بأن الدين عقيدة وعبادة فقط ولا شأن له بالحياة العامة. وكان ذلك في بدء ظهور الوعي الاسلامي بالنظم الاسلامية والمطالبة بأن تطبق هذه النظم على البلاد في الثلاثينات من هذا القرن، وكان المنكرون لوجود النظم الاسلامية من أصحاب الثقافة الأوروبية التي تشبّعت بالفصل بين الدين والدنيا بعد انتصار الحكومات على الكنيسة في صراعها الطويل على السلطة.

فلمّا تبيّن ـ من مراجعة الكتب الفقهية الاسلامية ـ ان الحقيقة هي أن الاسلام هو نظام اجتماعي ومنهج للحياة، وأنـه ليس قاصـراً على العقيـدة والعبادة فقط، لم يجد المنكرون بدأً من التسليم بهذه الحقيقة الواقعة والاعتراف بوجود النظم الاسلامية.

الدور الثاني: الادعاء بأن النظم الاسلامية هي نظم قديمة رجعية، وكان ذلك عقب التسليم بوجود هذه النظم، وقالوا انه لا يعقل ان نظاماً ظهر منذ أربعة عشر قرناً يصلح للتطبيق في هذا الزمان.

ولكن تبيّن من الحوار الذي دار حول هذه المسألة الهامـة أن النظام الاسلامي ليس متخلّفاً ولا متأخراً وأنه صالح لهذا الزمان، بل هو أفضل من سائر النظم المطبقة في العصر.

الدور الثالث: محاولات التقريب بين الاسلام والنظم المعاصرة، فانه لما تبيّن فضل النظام الاسلامي ومتانته، اتّجهت الأفكار الوضعية الى تملّق الاسلام والالتصاق به، فأشاد الرأسماليون الليبراليون بما يتميّز به الاسلام من الحرية في القول بالتشابه بين النظامين، وأشاد الاشتراكيون بما يتميّز به الاسلام من النظام والتضامن للقول بتشابههما واستند كل فريق بحجج من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبويّة المشرفة وأقوال الفقهاء لتدعيم ما يذهب كل منهما إليه.

وإزاء هذا اللبس اتجهت جهود علماء الاسلام ومفكّريه الى الفصل بين الاسلام والنظم الحديثة والتمييز بينها، وصدر في مصر الدستور عام ١٩٧١ ناصا على ان مبادئ الشريعة مصدر أسـاسي للتشريع وأعـدت مشروعات قوانين متعدّدة على الأساس الاسلامي، وأسست بنوك اسلاميه ونشطت فكرة التضامن الاسلامي ثم فكرة الاعلام الاسلامي من بعد.

الاعلام الاسلامي وهندسة العادات والتقاليد

يقوم النظام الاجتماعي في كل مجتمع بأربع مهام أساسية، حدد هارولد لازويل ثلاثاً منها هي: مراقبة البيئة، وربط فئات المجتمع في استجابتها للبيئة، ونقل التراث الاجتماعي. وقد استخدم «ولبور شرام» اصطلاحات أبسط وهي: الحارس، والمنبر، والمعلم، ويضيف شرام وغيره مهمة رابعة وهي: الترفيه.

ذلك أن المجتمع يستخدم نظامه الاتصالي استخداماً وظيفياً. وهو لذلك في حاجة إلى طريقة للوصول الى اتفاق عما ستكون عليه أساليبه. والتغيرات التي تطرأ عليها. وبدون اتفاق قد يصاب النظام الاجتماعي بالانحلال. ولذلك يقول «ريفرز» إن المجتمع يقدر عادة اتجاه التغيير لكي يعمل الأفراد والجماعات معاً كمجتمع. وقد تصل المجتمعات البسيطة الى الاتفاق عن طريق النقاش الشخصي وجهاً لوجه، ولكن المجتمعات الصناعة المركبة تعتمد عموماً على وسائل الاعلام.

ويستخدم المجتمع نظامه الاعلامي كمعلم لنقل التراث الاجتماعي، من جيل الى الجيل التالي، بما يتضمنه هذا التراث من أنماط سلوكية، ومعلومات وعادات وتقاليد معيّنة يكاد يكون لها قوة القانون؛ ذلك أن التراث الاجتماعي أساس هام في كل نوع من أنواع النشاط، واليه يرجع الفضل في تنظيم حياة المجتمع تنظيماً يقرب عن وسائل حياة الأفراد ويجعل منهم مجتمعاً متماسكاً.

ولذلك يذهب علماء الاجتماع الى تقسيم التراث الاجتماعي قسمين:

قسم منهما **غير مادي**، ويشمل اللغة، والعبادات، والعرف والتقاليد، والدين، والمعتقدات، والقانون، والنظم الاجتماعية المختلفة، ويطلقون عليه اسم الجانب الثقافي أو الجانب غير المادي في التراث الاجتماعي. والقسم **الآخر مادي**، يشمل كل ما يستطيع الانسان إدراكه عن طريق الحواس، ويطلقون عليه اسم الجانب الحضاري المادي في التراث الاجتماعي. ويستخدم الغربيون اصطلاحاً واحداً هو Culture ليدل على الجانبين الثقافي والحضاري معاً، ولكن علماء الاجتماع العرب يفضلون استخدام كلمة «**ثقافة**» لتدل على الجانب غير المادي في التراث الاجتماعي، وكلمة «**حضارة**» لتدل على الجانب المادي في التراث الاجتماعي.

والتراث الاجتماعي يعتمد في أساسه على أفكار تتركز في عقول الأفراد؛ وهنا تقوم وسائل الاعلام بوظيفة ربط عناصره المادية في أذهان الناس بالأفكار والقيم، التي تجعلهم يستخدمون هذا العنصر المادي أو يهملونه. وهكذا تتغير أفكار الناس بالتدريج، ويقبلون على استعمال العناصر المادية النافعة التي تروج لها وسائل الاعلام، حتى يصبح استعمالها شائعاً بينهم بعد مرور فترة من الزمان؛ مثل الهاتف، ومكبر الصوت.

ويذكر المؤرخون للملك عبد العزيز موقفاً هاماً في هذا السياق؛ حينما بدأ يأخذ بأساليب الحضارة الجديدة، فاعتبر الاخوان قبوله المخترعات الحديثة كالسيارة واللاسلكي والهاتف والمذياع خضوعاً منه للانجليز. وفي سنة ١٩٢١ م اضطر الملك عبد العزيز أن يأمر بايقاف العمل باللاسلكي الموجود في المدينة المنوّرة وعوقب خادم الملك الذي يركب الدرّاجة ـ عربة النيطان ـ على اعتبارها بدعة لأنها تسير بقوة السحر. ولم يرضوا عن تنظيم الملك عبد العزيز لحكومة حديثة في الحجاز بمعارضتهم التنظيمات الجديدة وبمعارضتهم للمخترعات الحديثة وبمعارضتهم لسن الضرائب التي لا غنى عنها.

ومن ذلك يتضح كيف عارض الاخوان أفكار الملك عبد العزيز الرامية

لانشاء دولة حديثة منظمة تعتمد على الآلات الميكانيكية؛ ولكن الملك عبد العزيز بوعيه الاسلامي وفكره الأصيل تمكن من القضاء على ثورة الاخوان' التي أعاقت الكثير من مسروعانه الاصلاحية التي تحتاجها دولته الناشئة وقال رحمه الله: «من اليوم سنحيا حياة جديدة». وبالفعل، ترتب على ذلك أن قبل البدو مشروعات التوطين والاستقرار التي بدأت في الجزيرة العربية لأول مرّة زمن الملك عبد العزيز آل سعود؛ وكسر المجتمع القبلي وأبدله بمجتمع حضري مقيم حول موارد الماء والواحات؛ وعمل سكانه في الزراعة، وكان هذا أكبر تغيير اجتماعي اقتصادي في الجزيرة العربية نجم عنه تأثر كبير على حياة المملكة العربية السعودية، حاضراً ومستقبلاً وفتح الباب أمام تحول اجتماعي كبير، وتأكيد مفهوم الدولة المنظمة بدلاً من سيادة القبيلة، وبهذا يكون الملك عبد العزيز قد أوجد مجتمعات زراعية دينية تدين بالطاعة للدولة. وعمّ البلاد سلام وازدهار اقتصادي.

وقد أدرك الملك عبد العزيز دور التعليم والتثقيف الديني في هذه المرحلة التحولية الخطيرة؛ فأرسل الى البدو العلماء والمطوعين، وغرس قيماً جديدة جعلت عند البدو نظرة واعية للحياة. وعندما دارت المناقشة حول المخترعات الأوروبية الحديثة كالسيارة والهاتف والبرق... الخ، قال الملك للثوار من الاخوان: «تطالبونني بعدم استعمال هذه لأنها من صنع الافرنج، فأنا أوافق معكم على شرط أن تحرقوا جميع بنادقكم لأنها من صنع الافرنج كذلك».

وبهذه الرؤية العلمية، استطاع الملك عبد العزيز أن يوحّد دولته وأن يبدأ فيها عهداً من الاصلاح والتجديد؛ فالى جانب اهتمامه بالتعليم انتشرت مجموعة من المكتبات العامة والمكتبات المدرسية الى جانب مجموعة من المكتبات القديمة. ولقد أنشأت الحكومة السعودية دار الاذاعة في مكة سنة ١٩٤٩ م ولأول مرّة في تاريخ الجزيرة العربية تدخل الاذاعة ومع أنها كانت من بداية الأمر مقتصرة على قراءة القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة،

وما يتصل بها من نفسير، الا أنها غدت من عوامل نشر النفافة الدينية والمدنية في البلاد السعودية.

ولعبت الصحافة دوراً هاماً في هذا المجال؛ ففى العهد السعودي وحتى فترة حكم ابن سعود كانت في البلاد مجموعة من الجرائد والمجلات، فكانت جريدة أم القرى وجريدة البلاد السعودية وقد حررتا بعد دخول ابن سعود الحجاز. وجريدة صوت الحجاز وجريدة المدينة المنورة. ومن المجـلات: مجلة المنهل ومجلة الحج ومجلة الاصلاح والمجلة الزراعية.

ومما تقدّم يتّضح لنا كيف حـاول الاخوان ربط أفكـار منفرة ببعض عناصر التراث الاجتماعي المادية الجديدة التي أدخلها الملك عبد العزيز؛ لأنهم يجهلون قيمتها، ويخشون منها؛ وكان ردّه السابق أبلغ رد في سباق الحديث عن التراث الاجتماعي؛ وسرعـان ما سـار بعجلة الاصلاح معتمـداً على التعليم والتنوير والاقتناع بفائدة العناصر الجديدة. وهكذا اتسم منهجه الاصـلاحي بالعلمية في تغيير أفكار الناس بالتدريج؛ واقبالهم على استعمال العناصر المادية بالتدريج أيضاً، حتى يصبح استعمالها شائعاً بينهم بعد مرور فترة من الزمان.

وقد اتخذنا من التجربة السعودية نموذجاً يوضح ارتباط العناصر المادية بغير المادية في التراث الاجتماعي؛ الأمر الذي يجعل لوسائـل الاعلام دوراً وظيفياً في تنوير الناس، من جهـة، وفي دعم العناصر الثقـافية في الـتراث الاجتـماعى وأهمها: الـدين، واللغة، والعـادات، والعرف والتقاليـد المختلفة. وسنركز هنا على الجانب الخاص بالعادات والتقاليد، التى تخضع لمنهج «الدعم» و«التغيير» لما تحتوي عليه من عناصر «ايجابية» وأخرى «سلبية».

أما العادات، فهي أنواع من السلوك اليومي لأفراد الجماعة تتعلق بنظام معيشتهم من مأكل وملبس، ومسكن، وعمل، وترويح عن النفس، ومعاملات اجتماعية أخرى. ولذلك يذهب علماء الاجتماع الى أن من أهم وظائف الجماعة الاسرية تعليم أفرادها الصغار أنماطاً مختلفة من الأفعال والسلوك. فإذا تكرّر

حدوث أفعال معيّنة في مناسبات معيّنة، تأصلت هذه الأفعال في نفوس الأفراد وصارت نظاماً رتيباً لا يتغير، ويصعب عليهم التحرر من القيود، وبخاصة اذا كانت تصادف قبولاً عاماً من أفراد الجماعة.

ومن الخصائص الايجابية للعادات انها تسير الحياة وتجعل الأفراد يؤدون الأفعال ويتصرفون في المواقف بسهولة وسرعة، معتادين في ذلك على ما اعتادوا في مثل هذه المواقف. ولذلك كانت العادات اقتصادية في نتائجها، إذ تختصر الوقت وتقلل الجهد الذي يبذل في التفكير في تفاصيل كل فعل يتكرر حدوثه.

فالعادة الجمعية، صورة من صور السلوك الاجتماعي استمرت فترة طويلة من الزمان، واستقرّت في مجتمع معيّن، وأصبحت تقليدية، واصطبغت الى حد ما بصبغة رسمية. والعادات الجمعية أساليب للفكر والعمل ترتبط بجماعة فرعية، أو بالمجتمع بأسره. وقد اكتسب المصطلح مكانة خاصة في الانثروبولوجية كمفهوم محدد يمكن الاستعانة به في التأويل الوصفي للثقافة.

وقد أسبغ علماء الانثروبولوجيا على مصطلح العادة الجمعية، مستويات مختلفة من التجريد، فهو يعني الاهتمام بالأفعال المتكرّرة في الحياة اليومية، والقواعد التي تكمن خلف هذه الأفعال، والنماذج الثقافية المميزة التى يمكن استخلاصها من كل ذلك. ويؤكد «مورتس» ان الاهتمام الرئيسي للانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية ينصب على العادات الجمعبة، إذ يتعيّن على الباحثين في هذين العلمين ملاحظة وتسجيل العادات، وأنماط السلوك الأخرى المرتبطة بها، كما نظر «مالينوفسكي» الى دراسة العادات الجمعية على أنها تمثل موضوعاً رئيسياً يجب أن تركز عليه الملاحظة المباشرة.

ويمثل تحليل العادات الجمعية، في ارتباطها بالعرف، والطرائق الشعبية، أحد الاهتمامات الرئيسية لعالم الاجتماع الأمريكى «وليام سومنر Sumner» فهي كلها من القوى التي تمارس على الأفراد قدراً من القهر والالزام. أما

«كليور» فقد أدخل «العادة الجمعية» ضمن تعريفه للثقافة، وأشار «سابير» إلى أن المصطلح له قيمة خاصة في تطوير التصور الانتربولوجي للثقافة وقد بذلت بعض المحاولات لتحديد مفهوم العادات الجمعية، والتفرقة بينها وبين مفاهيم أخرى مثل: الطرق الشعبية Folkways والأعراف Mores، لكن هذه المحاولات اعتمدت على محكات غامضة مثل التقليدية، والتلقائية، والدوام، والمعنى الاجتماعي، ولذلك لم تظهر كثيراً في تعريفه وتحديده وربما كان ذلك هو السبب الذي دفع «ماكيفر، وبيج» الى اعتبار العادات الجمعية جانباً فرعياً للطرق الشعبية والاعراف. على حين جعل «كنجزلي دافيز» من المصطلح مفهوماً شاملاً تتفرع عنه الطرق الشعبية والاعراف. و«الاعراف» Mores يقصد بها المعايير الاجتماعية التي توفر المستويات الاخلاقية للسلوك في الجماعة والمجتمع ويشعر أعضاء الجماعة بارتباط عاطفي بأعرافها، ويرون أن الحفاظ عليها ضروري لرفاهية الجماعة، ويشير المصطلح في الغالب الى مستويات السلوك التي تعتمد على الجزاءات غير الرسمية، والتي تندرج تحت قانون محدد. وعند عدد ضئيل من المؤلفين تعرف «الأعراف» على أنها كل قواعد السلوك التي يوافق عليها أعضاء المجتمع أو الجماعة. وقد يشير المصطلح الى أنماط السلوك المقبولة والتقليدية التي يمكن التنبؤ بها. ويعاقب الفرد إذا نقض عرفاً معاقبة أشد وأكثر صرامة مما لو تجاوز العادات الشعبية. ولا يتغير العرف إلا ببطء شديد، نظراً لأهمّيته البالغة في حفظ النظام الاجتماعي.

وعلى ذلك يوصف «العرف» بانه عادات مقتبسة اقتباساً أفقياً في الجيل الواحد، أي تنتقل بين الأفراد من واحد الى آخر عن طريق الاختلاط والتجاور في زمن معين وكلما ذاعت العادة وانتشرت تعارف الناس عليها أي صارت عرفاً بينهم وأصبح لها صفة الالزام.

أما التقاليد، فيمكن تعريفها بأنها عادات مقتبسة رأسياً؛ أي من الماضي الى الحاضر، ثم من الحاضر إلى المستقبل. فهي تنتقل من جيل الى جيل ومن سلف الى خلف على مر الزمان. وبينما يصادف الاقتباس الأفقي للعادات «أي

العرف» مفاومة سديدة ممن لا يسهل استهواؤهم بسرعة، فان اقتباس التماليد لا تقف في طريقه الموانع، لما بين المقتبس والُمعطى من النباين الكبير في التأثير. فالطفل مثلاً يميل الى التقليد كما أنه سريع التأثر بما يشاهده من سلوك الكبار الذين يتعاملون معه ولذلك كان تأثره بوالديه وبالكبار وبالتليفزيون ووسائل الاعلام كبيراً، وكذلك الحال بين الأمي والمتعلم والقروي والبدوي والمتحضر.

ويزداد تمسك الانسان بالتقاليد مع مرور الزمن لأن ما يفعله الانسان مرة ويستحسنه يميل الى فعله مرّة أخرى فمرات. واذا ما تكرّر فعله، وكان لا يزال يستحسنه ويستسهله فانه يودّ لو أن غيره يفعله أيضاً، ولا سيما اذا كان هذا «الغير» عزيزاً عنده، كابنه مثلاً. واذا استمر هذا الميل من جبل الى جيل قوي التقليد كثيراً.

وهكذا يمكن القول: إن التقاليد والعادات كالطريق الذي كلما سلكه الناس تمهد وسهل السير فيه حتى إنّهم يستصعبون في آخر الأمر العدول عنه الى طريق آخر غير مطروق.

ولذلك يطلق مصطلح «التقاليد» على انتقال بعض المعتقدات وأنماط السلوك والأنشطة من جيل الى آخر، كما تقدم، وقد يستخدم بمعنى «التراث» Tradition أو كعنصر ثقافي ينتقل عبر الزمان ويحقّق درجة من الدوام والاستمرار. والتراث قد يكون شفاهياً، أو مأثوراً شعبياً، أو رواية شعبية. وبالنسبة للنظم الاجتماعية ينتقل التراث عن طريق عمليات التنشئة الاجتماعية حيث يكتسب الطفل العرف وأنماط السلوك المعتادة من الأسرة، والمدرسة وجماعة الرفاق، ووسائل الاعلام. وقد يطلق المصطلح أيضاً على بعض العناصر الثقافية التي تنتقل من جيل الى آخر، وهنا يستخدم ـ كما تقدّم بمعنى التقاليد Traditions أي أنماط السلوك المقننة التى تنتجها الجماعة، وتعمل على تدعيم تماسكها ووعيها بذاتها، كما تحظى بالقبول من جانب الأعضاء.

وتأسيساً على هذا الفهم، نستطيع أن نقول إن نظم الاعلام لكونها تعمل على الاستقرار؛ فانها تميل دائماً إلى عرض القيم والمعتقدات في المجتمع الذي تعمل فيه. وعلى ذلك فإن مضمون الاعلام ـ في أي مجتمع ـ يصطبغ بالعادات والعرف والتقاليد، في هذا المجتمع. ولكن وسائل الاعلام في الجانب المقابل تقوم باحداث التغيير؛ ذلك أنها إحدى الوسائل التي تسير وفقاً لقانون «التحدي» في مقابل قانون «الاستجابة». ومن ثم فوسائل الاعلام ـ بالقياس الى مفهوم العادات والتقاليد في المجتمع ـ تميل إلى المحافظة عليها من جهة، وإلى تقويضها من جهة أخرى.

ولنظام الاعلام ـ كمؤسسة ـ سلطة كبرى في حد ذاته؛ وهو كذلك وسيلة تستطيع بها المؤسسات الأخرى أن تجعل قوّتها ملموسة. ذلك أن قدرة النظام الاعلامي على نشر الرسائل الى الجماهير ـ كما يقول «ريفرز» تجعل هذا النظام الاعلامي مصدراً للسلطه، بصرف النظر عما يحمله من معلومات وأفكار. ولذلك تسعى المؤسسات الأخرى الى استخدام النظام الاعلامي لأغراضها الخاصة، عن طريق التأثير على ما يحمله ذلك النظام من رسائل.

وهناك بعض المفكرين الذين لا يذهبون الى نهاية الشوط في اسناد تلك القوة الكبيرة الى وسائل الاعلام، ومع ذلك فهم يعتبرون وسائل الاعلام أداة قويّة للضبط الاجتماعي، وذراعاً للنظام الحاكم في المجتمع؛ وفي ذلك خروج كبير على النظرية الليبرالية، التي تنظر الى الصحافة على أنها تحرّر الناس من طغيان الجهل والخرافات الموروثة، وبذلك تمكنهم من حكم أنفسهم بالفكر السليم والضمير الفردي. وان كانت النظرية الحديثة لا تنفي بالضرورة الأهميّة التقليدية للصحافة في تنوير الجماهير. ولكنها لا تقدّم زاوية رؤية جديدة للنظر الى وسائل الاعلام دون مراعاة لما ينبغي أن تفعله أو تكون عليه.

ووظيفة الضبط الاجتماعي عن طريق وسائل الاعلام ـ في اطار التصور الاسلامي ـ تجعلنا نذهب إلى كونها الوظيفة الرئيسية للعادات والتقاليد في

التراث الاجتماعي الذي تعمل من خلاله هذه الوسائل، بهدف تحقيق التماسك بين الأفراد، حينما يشعرون شعوراً متشابهاً في معظم الظروف والمناسبات؛ ويخضعون في سلوكهم للغة ولعادات ولعرف ولتقاليد ولمعتقدات ولأفكار متشابهة تجعلهم يختلفون عن غيرهم من أفراد المجتمعات الأخرى.

ولذلك نرى أن «اصطلاح هندسة الرضا» الذي يطلقه «جوزيف كلابر» على عملية الضبط الاجتماعي، من أهم ملامح وسائل الاعلام. ومحاولات هندسة الرضا ليست جديدة أو مقصورة على الدوافع الشريرة طبعاً. وقد كانت إحدى مهام وسائل الاعلام دائماً: هندسة الرضا الضروري للمجتمع المستقر.

غير أن بعض علماء الاجتماع يرون انه لم يحدث من قبل ان كانت هندسة الرضا على مثل هذا النطاق الواسع، وعن طريق وسائل الاعلام التي تشترك في العمل بنغمة واحدة لا تسمح سوى بالقليل من الهندسة المضادة.

وقد تؤدّي هذه الهندسة المضادة الى التقليل من أهميّة العادات والتقاليد، لأنها تعنى عناية كبيرة بحاضر المجتمع كما هو، بغض النظر عن أصوله السالفة. ولكن استقرار أي مجتمع من المجتمعات لا يمكن أن يتم الا نتيجة وجود العناصر التي تكون التراث الاجتماعي ذلك أن الفرد يولد فيجد عناصر التراث موجودة فيقتبسها ويخضع لها كما اقتبسها وخضع لها غيره من الكبار. وهذا يبين قيمة التراث الاجتماعي في تماسك المجتمع وتحقيق الاستقرار فيه.

ولذلك لا يجمع المراقبون على أن الضبط الاجتماعي الذي تقوم به وسائل الاعلام له ذلك الاتساع وتلك الخطورة التي يتحدث عنها «كلابر» و«لازرسفيلد» و«ميرتون»، وينضم الى المخالفين لهذا الرأي كثيرون ممن يتحدثون عن وسائل الاعلام حديثاً مفعماً بالخوف.

فمثلاً، يعترف «لويس ويرث» بأن المواطن يزداد اعتماده على وسائل الاعلام من أجل الحصول على المعلومات والارشادات ولكنه يقول ان الدرجة

العالية من الاتفاق، الموجود من قبل في المجتمع، يعطى لوسائل الاعلام الكبير من تأثيرها الظاهري. ويذهب الى أن وسائل الاعلام تعمل في موافف معده لها من قبل في العملية الاجتماعية. ومن السهل أن نحصل على «انطباع خاطئ انها هي، أو مضمونها ورموزها التي تنشرها تقوم بالعمل».

وبذهب «رتشارد ت. لابير» في كتابه «نظرية الضبط الاجتماعي» الى أن عضوية الجماعات الصغيرة الأولية كالأسرة والكنيسة والدائرة الحميمة من الأصدقاء ـ أقوى تأثيراً في تقرير قيم الفرد، واتجاهاته، وسلوكه، من أي تأثيرات تقوم بها وسائل الاعلام. فيلجأ الناس الى وسائل الاعلام سعياً وراء ما يريدون منه، وليس ما تريد وسائل الاعلام أن تحدث فيهم من آثار. وللناس في ذلك خيار ضخم، نظراً لتعدد وسائل الاعلام وكثرة وحداتها. كما أن للناس دفاعاتهم، فهم يدافعون عن معتقداتهم الراسخة. ويميل الناس الى أن يعتمدوا اعتماداً كبيراً على فئاتهم الاجتماعية ومرشديهم الخصوصيين. وتعمل الفنوات الشخصية للاعلام جنباً الى جنب مع وسائل الاعلام، وتقوم بتصفية الرسائل الصادرة عن وسائل الاعلام. ولما كان كل فرد مطموراً في شبكات من الاتصال الشخصي، فإن نجاح أي رسالة صادرة عن وسائل الاعلام، يتوقف على مدى تأييد البيئة الاجتماعية أو الشبكة أو معارضتها للرسالة.

وتستطيع وسائل الاعلام أن تحدث تغييراً، وتقوم به فعلاً، ولا سيما عند ما تتفق العديد من الوسائل على ذلك، وعندما يحسن استخدامها؛ حتى لا تنشر الأكاذيب أو تضلّل الرأي العام؛ مما يؤدّي الى إثارة القلق واشاعة الاضطراب في هندسة الاتفاق الاجتماعي.

ان وظيفة «التغيير» في الاعلام الاسلامى حينما تستهدف العادات والتقاليد، يجب أن تؤدى بوعي شديد، حتى لا يكون المستهدف «الايجابي» منها بل «السلبي» والسلبي وحده؛ وحتى تؤدّي دورها في «التغيير الاجتماعى» الذي يتّسم بالسرعة في جانبه الحضاري والبطيء في الظواهر الثقافية التى تشمل في

أعطافها: العادات والتقاليد، والمثل العليا عند أفراد المجتمع. ولذلك ينبغي أن يكون المنهج التعادلي هو الأساس الذي تنطلق منه وسائل الاعلام، حتى لا يحدث اختلال في التوازن بين الظواهر الحضارية والظواهر الثقافية، وحتى تجنّب النظام الاجتماعي الذي تعمل في اطاره خطر «الانحلال أو التفكك بين العلاقات الاجتماعية».

ومعنى ذلك أن الجوانب المادية في التراث الاجتماعي تصبح ذات قيمة إذا استطاعت وسائل الاعلام أن تربط في الأذهان بينها وبين بعض المعاني أو القيم المستمدة من الدين والعادات والتقاليد. ذلك ان قيم المجتمع هي الأساس الذي يبنى عليه نظامه الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية التي يرتبط بها الأفراد.

وهكذا نقول مع أحد الدارسين، ينبغي الا ننظر الى قوة وسائل «الاعلام كموجة عالية، وانما كنهر عظيم يغذّي الأرض التي يلمسها متبعاً خطوط التضاريس الحالية، ولكنه يمهد الطريق للتغير على المدى الطويل. وقد يجد أحياناً بقعة تكون فيها الأرض رخوة ومهيأة، وهناك يشق مجرى جديداً، وأحياناً يكتسح أمامه جزءاً من الأرض، مما يعطي مجرى النهرى شكلاً جديداً».

الرسول ومنهج الدعوة

الداعية الأول والأمثل في الاسلام هو محمد بن عبدالله ﷺ، الذي اختاره الله وأدبه وأعدّه الاعداد الصالح اللازم للدعوة.. فكان مثلاً في الأمانة والشجاعة والصدق وكرم الأخلاق. ويكفى ان الله سبحانه وتعالى وصفه في القرآن الكريم بقوله ﴿وانك لعلى خُلُق عظيم﴾[1]. لقد كان خلقه القرآن، والله تعالى يقول ﴿لقد كان لكم في رسول الله أُسْوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾[2].

ولّما كان رسول الله ﷺ قد تخلّق بالقرآن، فان فعاله كانت تفسيراً له. ولّما كان قد انفعل بالقرآن فان نطقه كان تعبيراً عنه. وعلى المسلمين جميعاً خاصة رجال الاعلام والدعاة والمشتغلين بالاتصال الجماهيري في الدول الاسلامية كافة، أن ينسجوا على منواله وأن يسيروا على نهجه قدر استطاعتهم، وأن يحاولوا الوصول الى القمّة الشامخة السامقة التي تربّع عليها.

وأوّل ما اشتهر به رسول الله ﷺ هو الصدق والأمانة، حتى لقد سمي الصادق الأمين.. وحتى ان أعداءه من المشركين كانوا يشهدون له بالاجماع بهذه الصفات، ويذكر أصحاب الاخبار أن أبا سفيان الذي كان من زعماء الشرك في الوقت الذي جرى فيه حديث بينه وبين «هرقل» ملك الروم عن النبي ﷺ، وقد سأله عن نسبه الكريم قال «انه من أوسطنا نسباً»، ولّما سأله

---

(١) سورة القلم آية ٤

(٢) سورة الاحزاب الآية ٢١

عن أخلاقه ﷺ قال «لولا اني أخشى أن يحفظ عنى كذبة في العرب لكذبت، ولكننى أقولها ناصعة انه الصادق الأمين في القول وفي الفعل».

ولّما اختلفت قريش ووصل الخلاف بهم الى حد التهديد بسفك الدماء، حكموا بينهم أول داخل من باب المسجد. فلمّا دخل محمد بن عبدالله صاحوا جميعاً «هذا هو الصادق الأمين». وقد استطاع بعقله وحكمته وسداد رأيه أن يفض النزاع.

وكثيراً ما احتكم إليه المتخاصمون من العرب قبل بعثته ﷺ وقد روى له «الربيع بن خيثم» كان يتحاكم له رسول الله في الجاهلية قبل البعث، وذلك لما عرف به من الصدق والأمانة وحبّه للعدل وكونه لا ينطق إلاّ بالحق. ولقد بلغ من احساسه ﷺ بالعدل والأمانة أنه قام في مرض الموت وقد بلغ به الأعياء أشدّه وقال «أيها الناس من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليقتد منه، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليقتد منه، ومن أخذت منه مالاً فليأخذه مني ولا يخشى الشحناء فانها ليست من شأني، ألا وإن أحكم لي من أخذ مني حقاً ان كان له، أو حللني فلقيت ربّي وأنا طيب النفس».

ولقد كان عليه الصلاة والسلام ينهى عن الظلم ويحض على العدل، وكثيراً ما نبّه أصحابه والمسلمين الى العدل وقال «إتقوا دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب»، وقال «من مشى مع ظالم فقد سعى الى النار». وقال أيضاً: «لا يأخذ الله تعالى العامة بظلم الخاصة إلاّ اذا رأوا ولم ينكروا». وقال كذلك «والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على بد الظالم ولتأطرن على الحق أطراً، أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ثم تدعون فلا يستجاب لكم».

ويقول القاضى عياض في فضل عقل الرسول ﷺ وآثاره في الدعوة الاسلامية «انما وفور عقله وذكاء لبّه وقوّة حواسه وفصاحة لسانه واعتدال حركاته وحسن شمائله فلا مرية أنه كان أعقل الناس وأذكاهم، ومن تأمل

تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم، وسياسة العامة والخاصة مع عجيب شمائله وبديع سيره، فضلاً عما أفاضه من العلم وقرّره من الشرع دون تعلّم سبق، ولا ممارسة تقدّمت، ولا مطالعة للكتب منه.. لم يمتر في رجحان عقله وثقوب فهمه لأول بديهة وهذا ما لا يحتاج الى تقريره لتحقّقه. ولقد قال «وهب بن منبه» قرأت في أحد وسبعين كتاباً فوجدت في جميعها ان النبي ﷺ أرجح الناس عقلا وأفضلهم رأياً، وفي رواية أخرى فوجدت في جميعها ان الله لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا الى انقضائها من العقل إلى جنب عقله ﷺ إلاّ كحبّة رمل من بين رمال الدنيا».

أما بلاغته ﷺ وبراعته في الاتصال بالجماهير ومقدرته على اقناعهم، فقد كانت مثلاً يحتذى في هذه النواحي أيضاً، وقد وصف الجاحظ بلاغته فقال «الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجلّ عن الصفة ونزه عن التكلف. استعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغـريب الوحشي، ورغب عن الهجـين السوقي، فلم ينـطق الا عن ميراث حكمة، ولم يتكلّم الا بكلام حف بالعصمة وشدّ بالتأييد ويسرّ بالتوفيق. وهذا الكلام الذي ألقى الله تعالى المحبّة عليه، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة وبين حسن الافهام وقلّة عدد الكلام. وهو مع استغنائه عن اعادته، وقلّة حاجة السامع الى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلّت له قدم، ولا بارت له حجة، ولم يبرز له خصم ولا أفحمـه خطيب، بـل يبدأ الخـطب الطوال بالكلام القصير، ولا يلتمس اسكات الخصم إلاّ بما يعرفه الخصم، ولا يحتج الا بالصدق، ولا يطلب الفج الا بالحق، ولا يستعين بالخلابة ولا يستعمل المواربة. يهمز ولا يلمز، ولا يبطئ ولا يعجل، ولا يسهب ولا يحصر، ثم لا يسمع الناس بكلام قط أتم نفعاً، ولا أصدق لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح في معناه، ولا أبين عن فحواه من كلامه ﷺ.

وقالت عائشة رضي الله عنها في وصف كلامه ﷺ «ما كان رسول الله

ﷺ يسرد الكلام كسردكم هذا، ولكن كان يتكلّم بكلام بَيِّن فصل يحفظه من جلس إليه».

وما قاله القاضي عياض في وصف بلاغة الرسول وفصاحته ﷺ «وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يحلّ سلامة طبع وبراعة منزع وإيجاز مقطع ونصاعة لفظ وجزالة قول وصحة معان وقلة تكلف. أوتي جوامع الكلم، وخصّ ببدائع الحكم، وعلم ألسنة العرب فكان يخاطب كل أمة بلسانها، ويحاورها بلغتها ويباريها في منزع بلاغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله. ومن تأمل حديثه وسيرته علم ذلك وتحقّقه وليس مع قريش والانصار وأهل الحجاز ونجد هدف كلامه مع (وطيفة الهندي) و(قطن بن حارثة العليمي) و(الأشعث بن قيس) و(وائل بن حجر الكندي)... وغيرهم من أمثال (حمير وملوك اليمن).

ومن الذين وصفوه وصفاً دقيقاً صادقاً «ام معبد» فقد قالت تحدث زوجها عنه «مرّ بنا رجل مبارك، ما مسح ضرع الشاة الجاف بيده حتى تفاجت ودرت واشترت فأتيت له بالاناء فحلب فيه فجه حتى غلبه الثمال، وقد شربت حتى رويت فسقى صاحبيه حتى رويا وشرب هو آخرهم». وقالت في وصف النبي «هو رجل ظاهر الوضاءة، متبلج الوجه، حسن الخلق، وسيم قسيم، في عينيه دعج، وفي صوته صحل، ليس بالطويل المغط ولا بالقصير المتردّد ولا بالجعد القطط ولا السبط، شديد سواد الشعر، في عنقه سطع وفي لحيته كثافة. اذا مشى تقلع كأنما يمشي في طيب، واذا صمت فعليه الوقار، واذا تكلّم سما وعلاه البهاء، حلو المنطق فصل لا نذر ولا هذر، غصن بين غصنين»... الخ.

وإذا كانت نظريات الاعلام الحديثة تؤكد على ضرورة وجود الثقة كاملة بين المصدر والمتلقى بل إن النتائج التي وصل إليها الباحثون أخيراً في

جامعة ييل Yale نشير الى أن أهمّ مكوّنات تصديق المصدر تتلخّص في ثلاثة أشياء هي: النيّة والخبرة والثقة.. فان هذه الصفات كانت من أسس الدعوة المحمدية قبل هذا بأربعة عشر قرناً من الزمان. فقد كان ﷺ على خلق عظيم حبّب الناس فيه وجعلهم يثقون به ثقة كاملة.

وقد قال عن نفسه «انما بعثت لأتم مكارم الأخلاق». وقد وجهه الله سبحانه وتعالى الى أسلوب الدعوة القائمة على الخلق العظيم في قرآنه الحكيم **﴿فبما رحمةٍ من الله لِنْتَ لهم ولو كنت فظا غليظَ القلب لانفضوا من حولك فاعفُ عنهُم واستغفرْ لهم وشاورْهم في الأمر فاذا عزمتَ فتوكّل على الله ان الله يحبُ المتوكلين﴾**[٣].

ولقد أحبّ الناس محمد بن عبدالله وتآلفوا معه، وأقبلوا على دعوته لما اتّصف به من حلم وصبر وصفح وعفو عند المقدرة، وليس أدلّ على ذلك من قصته مع «غورث بن الحارث» حينما تصدّى ليفتك برسول الله وهو نائم في ظل شجرة وقت القيلولة، فلم ينتبه رسول الله ﷺ الا وهو قائم والسيف مصلت على رأسه في يد «غورث» وهو يقول «من يمنعك مني؟» فقال عليه السلام بهدوء وإيمان ولسان صادق «الله!» فسقط السيف من يد «غورث» فأخذه النبي ﷺ وقال لـ «غورث» «من يمنعك مني؟»؟ قال غورث «كن خير آخذ». فتركه وعفا عنه. فدنا قلب الرجل بعد نفور، وصار داعية لمحمد ﷺ بعد أن كان يريد قتله، وقد ذهب الرجل الى قومه يحببهم في محمد ﷺ ودينه، فقال لهم: «جئتكم من عند خير الناس». وهكذا حول عفو رسول الله «غورث» من الشر الى الخير، وجعله من خيرة الدعاة لمحمد ودينه بعد أن كان يريد قتله والقضاء على دينه.

ولقد كان العفو من الصفات التي جمعت القلوب على حب رسول الله ﷺ، وألفت بين النفوس وجعلت الناس يحبونه الى درجة جعلتهم على استعداد

---

(٣) سوره آل عمران آية ١٥٩

لفدائه بأرواحهم، ولم يخرج على هذا الاجماع إلاّ من ركب الشيطان رأسه فطغى وبغى واستكبر، وآثر الضلال على الهدى.

يقول هند بن هـالة ربيب رسـول الله ﷺ في وصفه «وان من أول صفات محمد بن عبدالله ﷺ انه يخزن لسانه فلا يظهره الا لخير يرتجيه.. فلا يشجع على نفرة، بل انه لا ينطق الا فيـها يعنى الذين يخـاطبهم ويفيدهم ويكون فيه تأليف لقلوبهم، وتقريب لنفوسهم وتأنيس غريبهم، ويأمر باعطاء ذي الحق، ولا يتكلّم في مراء، ولا يذم أحداً، ولا يكثر في قول خشية سقط اللسان، لا يعيب الحرمات، ولا يقطع على أحد حدبته حتى يشبع نهمة القول، فاذا تكلّم هو كان كلامه فصلاً، وكان قوله حكماً».

ومن أخلاق الرسول عليه الصلاة والسلام التي كان لها أثرها الكبير في الدعوة الاسلامية، أنه كان يأتلف مع أصحابه، ويـوزع محبته بينهم، وكـان متواضعاً، فإذا دخل على جماعة يجلس حيث ينتهي المجلس، وقد حثّ أصحابه على ذلك، وإن أرشـد ففي رفق يكتفي معه بـالاشارة، فـان لم يكف كان التعريض، فان لم يكف كان التنبيه في تعميم، فإذا رأى بعض الناس يسيء فلا يواجهه بالاساءة بل يقول ما بال أقوام بفعلون كذا وكذا؟ ومن ذلك ما قاله يوم خرج على الناس بعد قصة الافك فقال (أيها الناس.. مـا بال رجـال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت منهم إلاّ خيراً، وقد ذكروا رجلاً ما علمت منه إلاّ خيراً وما يدحل بيتاً من بيوتي إلاّ وهو معي).

ولم يكن ﷺ يذم أحداً مهما كان السبب، بل انه قد امتنع طول حياته عن الذم إلاّ أن يضطره الحق اضطراراً فانه يتكلّم بالكناية.

روى عروة بن الزبير عن خالته أم المؤمنين عـائشة أنها قـالت في أخلاق محمد ﷺ. ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً قط ولا امرأة، ولا ضرب بيده شيئاً إلاّ أن يجاهد في سبيل الله، وما خيّر بين شيئين إلاّ كان أحبّهما إليه أيسرهما إلاّ أن يكون اثماً، ولا انتقم لنفسه عن شيء يؤتى اليه

حتى تنتهك حرمات الله فينتقم لله عز وجل».

وقد وصفه أبو هريرة رضى الله عنه فقال «كان يقبـل جميعاً ويـدبر جميعاً ـ بأبي وأمى ـ لم يكن فاحشاً ولا متفحساً ولا صخاباً في الأسواق».

ومن هذا الوصف يتّضح لنا أنه ﷺ كان يحسن استقبال الناس فيقبل على الواحد منهم اقبالاً كاملاً، وإذا تركه فانه لا يتركه إلا بعد أن يتم حديثه وينتهي راضياً مستريح النفس، وانه ﷺ لم يكن فحشا أو يستعمل ألفاظاً نابية، أو يصخب أو يغاصب أو يمازح أو يجادل في الأسواق والأماكن العامة.

وروى أبو أمامة رضي الله عنه قال «خرج علينا رسول الله ﷺ متوكئاً على عصا فقمنا له، فقال «لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً». وقال «انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد».

وفي حديث لعمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم.. انما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله). وقال ﷺ «انما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد».

وقد أجمع الرواة على أنه ﷺ كان متواضعاً في غير ذلة، وكانت له هيبة ترهب الكفار والمشركين وتملأ قلوبهم رعباً وهلعاً.. وهي للمؤمنين رحمة تزيدهم إيماناً به وحبّاً له.

ومما يرويه ابن اسحق أن رجلاً من أراش قدم الى مكّة بـابل لـه، فاشتراها منه أبو الحكم عمرو بن هشام «أبو جهل» ثم ماطله في الدفع، فأقبل الأراشي حتى وقف بدار الندوة ورسول الله ﷺ بناحية من المسجد جالس، فقال الأراشي «يا معشر قريش من رجل يؤديني على أبي الحكم، فاني رجل غريب ابن سبيل وقد غلبني على حقي؟» فقال له أهل ذلك المجلس: «أترى ذلك الرجل الجالس؟» وأشاروا الى رسول الله وهمّ يهزءون به لما يعلمون بينه وبين أبي جهل من العداوة «اذهب اليه فانه يؤديك عليه». فأقبل الأراشي على

رسول الله وروى له القصة، فقام معه رسول الله ﷺ فلمّا رأوه قام معه قالوا لرجل ممن معهم «اتبعه فانظر ماذا يصنع». وخرج رسول الله حتى جاء بيت عمرو بن هشام فضرب عليه بابه، فقال عمرو بن هشام «من هذا؟» قال الرسول «محمد.. فاخرج الي» فخرج اليه وما في وجهه من رائحة قد امتقع لونه، فقال له الرسول «اعط هذا الرجل حقّه»، قال عمرو «نعم... لا تبرح حتى أعطيه الذي له». فدخل وعاد بحق الرجل فدفعه اليه، ثم انصرف رسول الله وقال للأراشي «الحق بشأنك». فأقبل الأراشي حتى وقف على الندوة وقال «جزاه الله خيراً فقد والله أخذ لي حقي». وجاء من بعده الرجل الذي بعثوا به معه فسألوه عمّا رأى فقال «عجباً من العجب.. والله ما هو إلا ان ضرب عليه بابه فخرج إليه وما معه روحه». وروى لهم ما حدث، ثم لم يلبث أن جاء عمرو بن هشام فقالوا له «ويلك.. ما لك؟ واللات ما رأينا مثل ما صنعت قط «قال: ويحكم!، واللات ما هو إلا أن ضرب على بابي وسمعت صوته فملئت رعباً، ثم خرجت إليه وان فوق رأسه لفحلا من الابل ما رأيت مثل هامته ولا قصارته ولا أنيابه لفحل قط.. واللات لو أبيت لأكلني».

وتروى لأبي جهل قصة مماثلة، فقد حاول يوماً أن يضرب رسول الله بحجر ضخم أعده لذلك عندما يسجد للصلاة، ولكنه ما كاد أن يرفع الحجر ويهم بإلقائه فوق رأس رسول الله ﷺ حتى انتابه الفزع وألقى بالحجر بعيداً، ثم أسرع الى أصحابه وهو يرتعد، فسألوه ما به فروى لهم القصة وقال «وما ان هممت بإلقاء الحجر حتى وجدت بيني وبين محمد فحلاً بشع الصورة مكشراً عن أنيابه يريد أن يلتهمني، فنجوت بنفسي».

ومن الأمور التي تؤكد ما كان لرسول الله ﷺ من هيبة ومهابة بين أصحابه وصف الواصفين لمجلسه، فقد أجمعوا على عظيم مهابته وشدّة وقاره وسمته وقالوا «ان مجلسه كان يحفه الوقار، لا يتكلّم فيه أحد إلا اذا اذن له الرسول في القول، وإذا صمت عليه السلام صمتوا جميعاً في هدوء واطمئنان».

ولهذا عجب عمر بن الخطاب رضى الله عنه أشد العجب عندما دخل يوماً الى رسول الله فوجد بعض النسوة يتسابقن في سؤاله ويتصايحن عليه، وما كدن يرين عمراً حتى سكتن جميعاً، فابتسم رسول الله ﷺ حتى بدت سنه، فقال عمر «أضحك الله سنك يا رسول الله.. ما الذي أضحكك؟» فقال عليه الصلاة والسلام «هؤلاء النسوة كن يتصايحن علي، فلما رأينك سكتن»، فقال عمر «أي عدوات أنفسهن، أتهبنني ولا تهبن رسول الله؟». فقالت احداهن «ولكنك أفظ وأغلظ». فأسكتها الرسول وقال نافياً الغلظة عن صاحبه «لا... ان الشيطان لا يسير في فج يسير فيه عمر».

ويروي عمرو بن العاص أن النبي ﷺ كان يطوف بالبيت والملأ من قريش جالسون في فنائه، فكلما مر النبي ﷺ غمزوا بالقول فيبدو ذلك في وجهه. وكرّروا ذلك سبعاً حتى اتى الطواف، ثم التفت اليهم وقال لهم في قوة المؤمن وهيبته «يا معشر قريش شاهت الوجوه وأرغم الله هذه المعاطس لقد جئتكم بالذبح». أو كما قال عليه الصلاة والسلام. فما كان منهم أحد إلا كان يقابله بأحسن القول ويقول «اذهب أبا القاسم موفوراً، ما علمنا عليك شر قط».

وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال «دخلت السوق مع النبي ﷺ فاشترى سراويل. وقال للوزان «زن وأرجح». فوثب التاجر الى يد النبي يقبّلها، فجذب يده وقال «هذا ما يفعله الأعاجم بملوكهم ولست بملك، انما أنا رجل منكم»، ثم أخذ السراويل فذهبت لأحملها، فقال ﷺ «صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله».

هكذا كان رسول الله من حيث التواضع والوقار والهيبة وهو على نفس الدرجة من الرحمة والشفقة والرأفة.. وقد وصفه الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز بقوله: ﴿لقد جاءكم رسولٌ من أنفسِكم عزيزٌ عليه ما عَنِتُّم حريصٌ

عليكم بالمؤمنين رؤوفٌ رحيمٌ﴾[٤] وقال جل سأنه ﴿وما أرسلناك الا ر
للعالمين﴾[٥].

سأله أصحابه يوماً قائلين، يا رسول الله، أكثرت من ذكر الرحمة.. ونح
نرحم أزواجنا وذريتنا» فقال ﷺ «ما هذا أريد.. انما أريد الرحمة بالكافة».

ومما يروى عن رحمته عليه السلام ان اعرابياً جاءه يطلب منه شي
فأعطاه ثم قال له «أأحسنت إليك؟». قال الاعـرابي «ولا أجملت». فغض
الحاضرون من المسلمين وقاموا الى الرجل. فأشار الرسول لهم أن كفوا..
قام عليه الصلاة والسلام ودخل منزله ثم أرسل الى الاعرابي وزاد شيئاً،
قال «أأحسنت اليك؟» قال «نعم.. فجزاك الله تعالى من أهل وعسيرة خير
فقال عليه الصلاة والسلام «انك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي من ذ
شيء، فـإن أحببت فقل ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك
قال: «نعم». فلما كان العشي جاء فقال ﷺ لأصحابه «ان هذا الاعرابي فال
قال فزدناه، فزعم انه رضي بذلك». قال الاعرابي «نعم فجزاك الله تعالى
أهل وعشيرة خيرا». فقال النبي ﷺ «مثلي ومثل هذا مثل رجل له نـ
شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها الا نفوراً، فناداهم صاحبها: خ
بيني وبين ناقتي فإني أرفق بها منكم وأعلم. فتوّجه لها بين يديها فأخذها
قمام الأرض فردّها حتى جاءت إليه واستناخت، وشد عليها رحلها واست
عليها، واني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار».

هذه صورة من صور الرحمة عند رسول الله ﷺ وهي تبين لنا ك
كان رحيماً مع المسلمين رؤوفاً بهم حريصاً على صالحهم، وكيف كان قدوة
وأسوة حسنة كما قال الله سبحانه وتعالى ﴿لقد كـان لكم في رسول
أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾[٦].

(٤) سورة التوبه، آية ١٢٨
(٥) سورة الأنبياء، آية ١٠٧
(٦) سورة الأحزاب، آية ٢١.

وهناك صور أخرى كثيرة تبيّن كيف ان الرحمة عند رسول الله ﷺ شيء عن حكمة الدعوة والارشاد والهداية الى الحق.. تقرب النارد وتصلحه ولا تعافيه أو تنفره وتسوس النفوس وتحولها من الباطل الى الحق وتضعها على الجادة بدون عنف أو قسوة، وفي ذلك كمال التبليغ للدعوة الاسلامية وبيان للاعلاميين والدعاة يشرح لهم كيف ان الرحمة وسيلة الوصول الى النفوس والاستئثار بالقلوب واقناع العقول.

وتتجلّى الرحمة في أرقى صورها وألطف مشاهدها بين الرسول وأهل بيته.. بينه وبين أولاده وأحفاده. فقد كان يسمع بكاء الطفل وهو يصلي فيخفّف في صلاته ليكون بجوار الطفل من يرحم بكاءه، وقد روت لنا الكتب أن احد السبطين كان يركب على ظهره وهو ساجد، فكان عليه السلام يطيل السجود حتى لا يزعجه ويستمر الطفل مرتحلاً ظهر جده الرؤوف الرحيم حتى يتركه.

وعندما أرسلت إليه ابنته زينب الكبرى لتقول ان ولدها يحتضر، أرسل اليها عليه الصلاة والسلام يقول «ان لله ما أخذ وما أعطى، وكل شيء عنده مسمّى فلنحتسب لنعتبر». فأصرّت زينب على أن يحضر وأقسمت عليه. فقام ﷺ ومعه من بحضرته من الصحابة، فلما رأى الطفل حمله ثم وضعه في حجره ونفس الطفل يخرج، ففاضت عيناه عليه الصلاة والسلام، فقال له سعد بن أبي وقاص ما هذا يا رسول الله؟ قال «هذه رحمة وضعها الله في قلوب من شاء من عباده، ولا يرحم الله من عباده الا الرحماء».

وكما كان ﷺ رحيماً بالابناء كان رحيماً بالآباء كذلك، والعلاقة بين الآباء والأبناء في الرسالة المحمدية تأخذ وضعاً سامياً رفيعاً.. وقد بلغ من تقدير القرآن لقوة هذه العلاقة ان قال تعالى ﴿وقضى ربُّك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدينِ احساناً إمّا يبلغَنَّ عندك الكِبر أحدُهما أو كلاهما فلا تقلْ لهما أفٍ ولا تنهرهُما وقل لهما قولاً كريماً • واخفضْ لهما جَنَاحَ الذلِ من الرحمة وقل ربِ ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾[7].

(٧) سوره الاسراء، الآيتان ٢٣، ٢٤.

ولم يسمح الاسلام للابن بأن يعنف أبويه حتى ولو كانا مشركين، ولكنّه أباح للابن ألا يطيع أبويه في الشرك دون أن يهدر حقّهما عليه، وأن يصاحبهما في الدنيا معروفاً.

﴿ووصَّينْا الانسان بوالديهِ حَمَلَتْهُ أمُّه وَهْناً على وهنٍ وفصالُـه في عامين ان اَشكر لي ولوالديك اليَّ المصيرُ • وان جاهَداك علىٰ أن تُشْرِكَ بي ما ليس لك به علم فلا تُطِعْهُما وصاحِبْهُما في الدنيا معروفاً﴾[8].

وقد قدّم الرسول ﷺ بر الوالدين على الجهاد في سبيل الله، جاء اليه رجل فقال «جئت أبايعك على الهجرة وتركت أبوي يبكيان»، فقال ﷺ «ارجع اليهما فاضحكهما كما أبكيتهما».

وجاءه صحابي يسأله الاذن في الجهاد، فسأله الرسول «ألك أبوان؟». قال «نعم». قال «ففيهما فجاهد». وحدث الصحابي «معاوية بن جاهمة السلمي»، قال «أتيت رسول الله ﷺ فقلت «يا رسول الله اني كنت أردت الجهاد معك أبتغي وجه الله والدار الآخرة». قال «ويحك أحيَّة أمّك؟». قلت «نعم». قال «ارجع فبرها». ثم أتيته من الجانب الآخر فقلت «يا رسول الله... اني كنت أردت الجهاد معك ابتغى وجه الله والدار الآخرة». قال «ويحك أحيَّة أمّك؟». قلت «نعم يا رسول الله». قال: «فارجع اليها فبرها». نم أتيت من أمامه وأعدت ما قلت.. فقال «ويحك الزم رجلها فثم الجنة».

وعن أبي أمامة أن رجلاً قال «يا رسول الله ما حق الوالـدين على ولدهما؟». قال: «هما جنتك ونارك».

واذا كنا فيما تقدّم قد تحدثنا عن الرحمة وصلة الرحم وعن الصلة بينهما وبين مفهوم الاتصال، فان الاعلام الاسلامي يحرص على أن تكون الرحمة بجميع أشكالها وصورها إحدى وسائله وأساليبه في الاتصال بالجماهير، وكذلك

(٨) سورة لقمان، الآيتـان ١٤، ١٥.

العفو والتسامح وهما صفتان من صفات رسول الله ﷺ. وقد أمره الله سبحانه وتعالى بهما في قوله الكريم ﴿خُذِ العَفْوَ وأمُرْ بالعُرْفِ واعرضْ عن الجاهلين﴾[9]. وفي قوله أيضاً ﴿ولا تستوي الحسنةُ ولا السيئةُ ادفَعْ بالتي هي أحسنُ فاذا الذي بينك وبينه عداوةٌ كأنه وَليٌّ حَميمٌ﴾[10].

قال «أنس بن مالك»: كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه برد غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذ بردائه جبذاً شديداً حتى نظرت الى صفحة عاتق رسول الله فإذا قد أثرت فيه حاشية البرد من شدة جبذته. ثم قال الاعرابي «يا محمد مر لي من مال الله تعالى الذي عندك». فالتفت اليه رسول الله ﷺ وضحك، ثم أمر له بالعطاء.

ولو كان أحد رجالات قريش في مكان رسول الله وقام هذا الاعرابي بهذا العمل معه لضربه فشدخه أو قتله، ولكن سماحة الرسول الكريم أبت عليه أن يفعل ذلك فالتفت اليه وضحك وكأن شيئاً لم يحدث، بل القارئ لهذه القصة قد يرى ان رسول الله ﷺ قد ضحك لكي يخفف من وقع هذا التصرف الغليظ على صاحبه وعلى من يشهدون الواقعة.

وروي انه كما كذبت قريش دعوة الاسلام وبالغت في الاساءة الى النبي وايذائه حتى انه لجأ الى ثقيف بالطائف يرجو أن يجد النصرة عندهم. فما كان منهم الا أن أغروا سفهاءهم به فطاردوه وضربوه بالحجارة، فاستكى الى الله سبحانه وتعالى ما يجد منهم وقال «اللهم اليك أشكو ضعف قوتي وقلّة حيلتي وهواني على الناس. يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي. الى من تكلني إلى بعيد يتجهمني أم الى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لى أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له

(٩) سورة الاعراف آية ١٩٩

(١٠) سورة فصلت آية ٣٤

الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك أو يحلّ علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوّة إلا بك». فأتاه جبريل عليه السلام فقال له «ان الله تعالى قد سمع قول قومك وما ردّوا به عليك، وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فناداه ملك الجبال وقال «مرني بما شئت.. إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين» قال النبي ونفسه تقطر رحمة وسماحة «اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون».

وعن السماحة والعفو عند رسول الله ﷺ تحدّثنا القصة التالية وقد وقعت يوم الفتح الأبلج ـ فتح مكة ـ فقد طلب الرسول الكريم عثمان بن طلحة بن ابي طلحة وأعطاه مفتاح الكعبة وهو يقول «خذوها يا بنى أبي طلحة تالدة مخالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم، يا عثمان، ان الله سبحانه ونعالى استأمنكم على بيته فخذها بأمانة الله عز وجل». وابتسم الرسول الكريم لعثمان ابتسامة ذات معنى، فأطرق عثمان في خجل وكان لذلك قصة. فقد كان الرسول ﷺ قد قال لعثمان يوماً وهو يدعوه للاسلام «لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت». فقال له عثمان يومها «قد هلكت قريش وذلت». فأجابه الرسول الكريم عليه أزكى الصلاة والسلام «بل عزت وعمرت يومئذ يا عثمان».

هكذا عفا رسول الله عن عثمان وسامحه في لحظة كان فيها هو المنتصر الذي بيده أن يمنع ويمنح، وكان فيها يستطيع أن يفعل بعثمان ما يشاء، ولكنه رسول الله ونبيه الكريم الذي جبل على مكارم الأخلاق.

وفي نفس اليوم ـ يوم الفتح ـ بعد الخطبة، التفت رسول الله ﷺ الى الذين عادوه وحاربوه بكل وحشية وشراسة وبذلوا كل ما في طاقتهم لكى يقضوا عليه وعلى دعوته، وقال لهم «ما ترون اني فاعل بكم؟». قالوا وهم يرتعدون «خيراً.. أخ كريم وابن أخ كريم». فقال ﷺ «اذهبوا فانتم الطلقاء».

فذهل القوم وتسابقوا الى الدخول في الاسلام، وباتت مكة ليلتها وقد رفرف عليها الإيمان.

نسنخلص من هذه القصص التي تؤكد ما كان عليه رسول الله من عفو وسماحة، ان الداعبة الاسلامي يجب أن يطهّر نفسه من كل حقد وغل حتى ولو كان لمقابلة اساءة قديمة بمثلها، أو الانتقام لموقف سبق أن تعرض له على يد أحد الذين يدعوهم، وان يطهر نفسه أيضاً من الأنانية والاثرة، ولن بكون له ذلك الا بالايثار والفناء في دعوته، ولقد قالت عائشة رضي الله عنها في هذا المعنى «ان النبي ﷺ لا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفـو ويصفح».

ومن الصفات التى زانها رسول الله ﷺ صفة الحياء وقد قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه «كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها». وقال القاضي عياض في كتابه الشفاء «كـان النبي ﷺ أشد النـاس حياء، وأكثرهم عن العورات إغضاء».

وقد تمثّل القاضي عياض بقول الله سبحانه وتعالى ﴿إنَّ ذلكم كان يُؤْذي النبي فيستحي منكم﴾ [11]. وقد نزلت هذه الآية لأن بعض أصحابه كانوا يستغلّون كرمه الشديد وحياءه الشديد أيضاً، فكانوا يجلسـون في بيته فيتناولون الطعام ويأخذون في الحديث مما يؤدي الى اضطراب في بيته واقلاق لراحة أهله، ولم يكن النبي لفرط حيائه يأمرهم عن ذلك أو يـطلب اليهم الخروج، فتولّى الله تعالى ذلك عنه وعلم المؤمنين الأدب في هذا المقام، وأعفى رسوله من هذه المهمة التي تجعله يخرج عن طبيعته في الحياء، فقال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتَ النبي إلَّا أنْ يُؤْذَنَ لكم الى طعام غير ناظرين إناه ولكن اذا دعيتم فادخلوا فاذا طَعِمْتم فانتشروا ولا مستأنسين لحـديثٍ ان ذَلِكُم كان يُؤْذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحقِ﴾ [12].

---

(١١) (١٢) سورة الأحزاب، آية ٥٣.

جاء في كتاب الشيخ محمد أبو زهرة سؤال حول صلة الحياة والشمائل النبوية بدعوة الرسول ﷺ وتبليغ الرسالة، وهو سؤال يرتبط بالاعلام الاسلامي بوجه عام.. يقول: «ان خلق الداعي يجذب الى موضوع الدعوة، فلو كان الداعي فحاشا، أو صخابا، أو يغلب .عليه أن يلوم وتقرع عباراته، لنفر منه الناس وما استجاب له الا أهل الحق الصرف الذين لا يهمهم لون الدعوة بمقدار ما يهمهم لبها».

وإذا كان الخلق الطيب يجذب النفوس ويوجهها نحو الحق، فان الحياء أشد الأخلاق اجتذاباً للنفوس، فان الحياء يجعل صاحبه لا يفجأ الناس بما لا يسرهم بل يجيء اليهم من جانب ما يألفون فلا تتشعب عن الحق، وان عنف الداعي وتفحش قوله يعوق دعوته ويكون استثقاله مؤدياً الى ردّه، واذا كان مع الحياء لين في الطبع من غير ضعف، وقوّة في الحق، وصل اليه في مداخل سهلة لينة. ولقد قال في وصفه علي بن ابي طالب «كان أوسع الناس صدراً وأصدق الناس لهجة وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة». ولقد كان لالتقاء الخلق الحسن اللطيف المعشر مع الحياء والاستمساك بالحق مزيجاً من أخلاق كريمة جعله لا يترك التنبيه الى الحق في رفق، وجعله يصل الى ما يريد من إيغاله في القلوب.

وقد ذكر ابن عباس صفات رسول الله ﷺ فقال: «كان أجود الناس خيراً، وأجود ما يكون في شهر رمضان، وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة».

ولقد قالت له خديجة رضي الله عنها «أبشر يا بن العم واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده اني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، ووالله لا يخزيك الله أبداً.. انك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقوي الضعيف وتعين على نوائب الحق».

وقد عرف عن النبي ﷺ انه ما كان يرد أحداً، وانه كان يجود بالموجود

كله، وقد ذكر أن رجلاً جاءه يسأله حاجة، فقال «ما عندي شيء ولكن اتبع علي فاذا جاءنا شيء قضيناه».

ولقد قال عمر رضي الله عنه وقد رأى الرسول الكريم يتحمل ثمن البيعات ليؤديه اذا لم يكن معه، فقال له: ما كلفك الله تعالى ما لا تقدر عليه» فكره عليه الصلاة والسلام من صاحبه ذلك لأنه لا يريد أن يحول أحد بينه وبين سجيته التي فطره الله عليها. وقد لاحظ انصاري كان في حضرة الرسول وصاحبه فقال «يا رسول الله أنفق ولا تخش من ذي العرش اقلالا». فتبسم رسول الله ﷺ بعد ذكره وعرف البشر في وجهه، وقال «بهذا أمرت».

والمعروف أنه كان يأمر بلالا قائلاً «أنفق بلال ولا تخش من ذي العرش اقلالا».

ويقول عليه الصلاة والسلام «ما من يوم يصبح الا وملكان يقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفاً».

والمطلع على السيرة النبوية يجد أن من شمائل الرسول ﷺ الوفاء بالعهد ورعايته، وأوضح مثل على ذلك وفاؤه بأم المؤمنين خديجة الى درجة جعلت عائشة رضي الله عنها تغار من كثرة ذكره لها وبره لمن كان على صلة بها، فقالت «هل كانت الا عجوزاً بدلك الله خيراً منها». فقال «والله ما أبدلني خيراً منها. آمنت بي اذ كفر الناس، وصدقتني اذ كذبني الناس، وواستنى بمالها اذ حرمني الناس، ورزقني منها الولد دون غيرها من النساء».

ومن ذلك بره بحليمة السعدية وأولادها، وبره بأم أيمن التي كان يقول عنها «هي أمي بعد أمي».

ولما كانت السجاعة إحدى الصفات التي يتحتم وجودها في الداعية بصفة خاصة، ورجل الاعلام بصفة عامة، فانها كانت في أعظم صورها إحدى صفات الرسول ﷺ ولم تكن شجاعة حسية فحسب وانما اجتمعت عنده ﷺ

الشجاعة الحسية مقترنة بالشجاعة المعنوية، وسلامة التصرف وسداد الرأي والاقدام حيث ينحتم والمبادرة حيث نكون إحدى الضرورات التى يفرضها الموقف.

وليس أدل على ذلك من تصرفاته قبل البعث حيث كان لا يحفل بأصنام القوم ولا يسجد لها ولا يعترف بها. وهو يعلم خطر ذلك عليه وانهم جميعاً يفرضون احترامها وتبجيلها. ولم يكن ﷺ يحلف بها، ويروى انه في إحدى رحلاته اختلف مع البائع على الثمن، فطلب منه البائع أن يحلف باللات والعزى فرفض.

وعندما اشتد الخلاف بين القبائل القرشية، وأصرّت كل واحدة منها أن تستأثر بشرف وضع الحجر الأسود الى مكانه من جسد الكعبة، واشتعلت الخصومة وتطاير الشرر ينذر باقتراب حرب طاحنة تأكل الأخضر واليابس، وبقيت قريش أربع ليال والخطر يتهددها، وراح الكل يستعد ويعد العدة للقضاء على الآخر، وحاول العقلاء والكبار من رجالات قريش أن يحسموا الأمر قائلين «ان رفع الحجر لم يكن ضمن الاقتراع عند البناء، وأنه يمكن الاقتراع عليه من جديد». ولكن محاولتهم كلها راحت عبثاً اذ استمر الخلاف واستحكم وبلغ أشده، وجاءت بنو عبد الدار بجفنة مليئة بالدماء وصاح كبيرهم «يا عبد الدار هذه جفنتنا قد امتلأت بالدماء فتعالوا واغمسوا أيديكم فيها ولنتعاقد على الموت ان فاتنا شرف وضع الحجر الأسود مكانه»، وجاء بنو عبد مناف وقالوا «لن يفوتنا هذا الشرف. الموت لنا ان فاتنا» وصاح بنو أسد «ونحن بنو أسد ومعنا بنو عدي نعلن أن هذ الشرف لن يستأثر به غيرنا الا بعد أن نكون قد أصبحنا طعاماً تهضمه بطون الوحوش في الجبال».

وهنا تقدّم منهم أبو حذيفة المخزومي وقال «كفى يا معشر قريش، لقد أردنا البر ولم نرد الشر فلا تحاسدوا ولا تنافسوا فان فعلتم تشتتت أموركم وطمع فيكم غيركم، حكموا بينكم أول من يدخل من هذا الباب يفصل في

خلافكم، فوافقت القبائل كلها على ذلك وتعلّقت أعينهم بالباب الذي أشار اليه أبو حذيفة، تترقب الداخل المجهول للحكم بينهم ويفض خلافهم. وانهم لكذلك إذ يدخل محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام، فهتفوا جميعاً «هذا الأمين.. هذا محمد بن عبدالله الهاشمي. قد رضينا بحكمه». وأقبلوا جميعاً عليه وشرحوا له ما كان من أمرهم، فطلب ثوباً ثم وضع الحجر بيده الكريمة فيه، وقال ﷺ «ليأتِ من كل ربع من أرباع قريش رجل». فكان في ربع عبد مناف عتبة بن ربيعة، وفي الربع الثاني أبو زمعة بن الأسود، وفي الربع الثالث العاص بن وائل، وفي الربع الرابع، أبو حذيفة المخزومي نفسه. ثم ارتقى ﷺ على الجدر ورفع القوم له الركن، حتى اذا بلغوا موضعه وضعه بيده الكريمة في مكانه. وهكذا حلّت المشكلة العويصة وحقنت دماء قريش.

قبل رسول الله ﷺ الحكم في هذا الخلاف المستحكم المشتعل بشجاعة، ولم يجفل أو يتردد مع علمه أن هذه القبائل قد جبلت على المشاكسة وحب السيطرة والاستئثار، وان ارضاءهم جميعاً أمر من الأمور التي تكاد تكون مستحيلة، ولكنه أقدم وحكم بشجاعة، فكان أن وفقه الله وجعلهم جميعاً يرضون عن حكمه.

وبعد ان بعثه الله تعالى بدعوة التوحيد تجلّت شجاعته في المجالين - المعنوي والحسي - في معارك الرأي ومعارك السيف.

عن علي رضي الله عنه قال(١٣)«لقد رأيت يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ وهو أقربنا الى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً».

وعنه أيضاً أنه قال «كنا اذا حمي البأس واحمرّت الحدق اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب الى العدو منه»(١٤).

---

(١٣) و(١٤) الحافظ بن محمد عبدالله الأصبهاني المتوفى سنه ٣٦٩ هـ كتاب أخلاق النبي ﷺ وأدابه (مخطوط)، حققه (حسن محمد مرسى)، وراجعه (محمد عبد الرحمن عثمان)، القاهره مؤسسة الاهرام ١٤٠١ هـ.

وعن سعد بن عياض النسالي قال «كان رسول الله ﷺ قليل الكلام قليل الحديث، فلما أمر بالقتال تسمر وكان من أشد الناس بأساً».

وحينما بلغ الخامسة عشرة من عمره ثارت حرب اشتركت فيها قريش وهي حرب الفجار، فإذا هو يصحب الجيش المحارب ويقف على خط القتال ويخوض أول معركة من المعارك الحربية، وكانوا قد حدّدوا له دوره في المعركة وهو أن ينبل على أعمامه أي يمدهم بالنبال ـ ولكن ما ان بدأت المعركة وحمي وطيسها حتى جاوز هذه المهمة وأخذ يرمي بالسهام والنبل.

لقد غلبته شجاعته ودفعته الى أن يكون مقاتلاً على الرغم من عوده الأخضر وسنه الصغيرة.

وهو الذي حدث فيما بعد بقوله «ليس من اللهو محمود الا ثلاثة: تأديب الرجل فرسه، وملاعبته أهله، ورميه بقوسه ونبله، فانهن من الحق.. ومن ترك الرمي بعد ما علمه رغبة فانها نعمة تركها».

وليس من شك في أن هذه الأمثلة ـ وغيرها كثير ـ للشجاعة النادرة تتيح لصاحبها أن يبلغ الدعوة وأن يؤدي الرسالة غير هياب ولا وجل ولا متردّد.

وقد فرض الجهاد في الاسلام بهدف تبليغ الدعوة، وكان ذلك بعد ان حاول الرسول بالحكمة والموعظة الحسنة، وبعد أن جادلهم بالتي هي أحسن ولم يبق الا أن يستعمل السيف.

يقول الدكتور إبراهيم امام «الأصل في الجهاد أنه يمهد الطريق لحرية الاعلام الاسلامي، ويتيح الفرصة امام رجاله كي يبلغوا الرسالة ويؤدوا الأمانة، لأنه «بعث رحمة للعالمين في وقت كان العالم فيه يئن تحت نير الظلم والتعسف والطغيان. وكانت الديانات السائدة آنذاك تفرض الطاعة المطلقة لكل طاغية غير أن تبليغ الرسالة والاعلام بالدين الحق أسمى واجبات

المسلمين مهما كانت العقبات التي تكتنف الطريق، ومهما كانت الصعوبات التي تواجه المؤمنين، وقد وعد الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم بأنه يعصمه من الناس في سبيل الدعوة الى الحق ﴿يا أيُّها الرسول بلِّغ ما أُنْزِلَ اليك من رَبِّك وإنْ لم تفعلْ فما بَلَّغْتَ رسالَتَه والله يعصِمُك من الناس إنَّ الله لا يَهْدِي القومَ الكافرين﴾[١٥].

وقد نسط الطغاة والأباطرة للقضاء على دعوة الاسلام ورسوله، فأرسل كسرى من يقتل النبى ﷺ قتل العديد من المؤمنين. وقد حاول بعض اليهود أن يقتلوا الرسول وأصحابه وحاولوا أن يفتنوه وأن يسحروه، ولكنهم فشلوا في ذلك فشلاً ذريعاً.

ولقد كان الجهاد في وقت من الأوقات هو الوسيلة الـوحيدة لتعبيـد الطريق وتمهيده أمام الاعلام الاسلامى، وتهيئة المناخ اللازم لابلاغ العباد كلمة الله العليا ﴿وقاتلوهم حتى لا تكونَ فتنةٌ ويكون الدِينُ للهِ فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾[١٦].

فالمسلمون يجاهدون بالسيف لرفع كلمة الله، ويقاتلون لإزاحة العقبات عن طريق الدعوة الى سبيله. وهم يؤمنون بأن حرية الاعلام هى القاعدة الأساسيّة التي يختار على هديها الانسـان دين الحق، فليس القتال لازهـاق الأرواح انما رغبة لاشاعة جو الدعوة الى التوحيد، واعلام النـاس بحقائق الدين القائم على الحق والحرية والعدل والايمان بالواحد الأحد ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبّوا شيئاً وهو شرّ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾[١٧].

(١٥) سوره المائده آيه ٦٧
(١٦) سورة البقرة آيه ١٩٣
(١٧) سورة البقره آيه ٢١٦

الاسوة الحسنة ووظائف الفن الروائي(*)

«الحمد لله الذي منَّ علينا بمحمد نبيه ﷺ دون الأمم الماضية والقرون السالفة، بقدرته التي لا تعجز عن شيء وان عظم، ولا يفوتها شيء وان لطف، فختم بنا على جميع من ذرا، وجعلنا شهداء، على من جحد، وكثرنا بمنه على من قل».

وجدت نفسي أتلو هذا الدعاء من صحيفه زين العابدين رضي الله عنه، فور الانتهاء من قراءة السطور الأخيرة من رواية الاستاذ ثروت أباظة الأخيرة، «خشوع» وهي سطور تؤكد صدق «المقدمات» المنطقية التي قامت عليها الرواية في «بنيتها»، اذ تصبح «القدوة» في حد ذاتها - سلاحاً - ضد الظلم وضد الشر، بل ان من مزايا «الاسوة الحسنة» كسلاح، انها تطهر الانسان من شر نفسه فيجد نفسه مدفوعاً مع النموذج البشري الذي رسمه ثروت اباظة ليجسد هذا المعنى، «رفعت الربيعي»، ليقول امام المحكمة المنعقدة، بصوت عميق الأغوار:

- رفعت الربيعى حاضر عن نفسه يا حضرة القاضى.

«وتقدّم رفعت الى المنصه في خطوات ثابتة، حتى إذا أصبح أمام القاضي قال أتسمح لي يا حضرة القاضي؟

- أنت مدّعى عليك... لا بدّ أن يتكلّم المدعى أولاً.

- ربّما أقول شيئاً يغنيه عن الكلام.

(*) الاهرام في ١٩٨٩/٥/١٤

ـ أتسمح يا أستاذ منصور؟

ـ لا مانع يا حضرة الفاضي.

وتكلّم رفعت الربيعي، كل القضايا المرفوعة ضدي من السيدة سامية نشأت أو من غيرها، أنا معترف بحق المدّعين فيها بلا استثناء، وكل القضايا المرفوعة ضدها أو ضد آخرين أنا متنازل عنها.. هذا اجمال أرجو أن يثبّت في محضر الجلسة، ثم أفضل الاجمال مع الاساتذة المحامين بتوقيع مني على ما يطلبون التوقيع عليه، ولا اله الا الله، محمد رسول الله.

وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلاّ همساً، وعنت الوجوه للحي القيوم، وكأنما أصبحت قلوب الجميع قلباً واحداً يردّد في إيمان عميق ووجيب نوراني «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

«محكمة» الضمير عند ثروت أباظة، ليست مثلاً يصعب الوصول إليه ولكنّها نسجت من مقوّمات الواقع المعاصر، نموذجاً روائياً يردّد مرحلة جديدة من مراحل تطوّر الرواية العربية المعاصرة، يرتكز على تاريخ عريض متشابك يتجاوز نموذج الشخصية الاسطورية، الذي استخدمه «شيلنج» ويختلف في طريقة تكوين النموذج البشري عن تصوّر «هيبوليت تين» (إذ تكون النماذج البشرية في رأيه من الواقع الى المثال). أما ثروت أباظة فيكون نماذجه الواقعية من «المثال» الذي يتّجه نحوه، بحيث يمكن الفول بان النموذج البشري لديه ـ يسير ـ من «المثال» الى «الواقع» على نحو ما صنع «دستوفسكي» مثلاً، حينما جعل أحد أبطال روايته يتخيّل ان السيد المسيح عليه السلام قد عاد الى الأرض في طوفة عابرة ونزل باشبيلية في ابان سطوة «التفتيش» فوعظ الناس وصنع المعجزات وأقبل عليه الضعاف والمرضى والمحزونون يلثمون قدميه ويسألونه العون والرحمة.

وهذه «الأمثولة»، كما يقول استاذنا العقاد رحمه الله: «تعاد ولا تمل» لأن العبر، بها لا تنقضي في حقبة واحدة، ولا تزال عبرة الدهر كلّه في أحاديث

المصلحين والمفسدين، ولم يبالغ الكاتب العظيم في تخيّله.

فماذا لو عاد محمد عليه الصلاة والسلام؟

يقول العقاد: لو عاد محمد عليه الصلاة والسلام لكان له نصيب ممن يرفعون العقيرة بهداية الاسلام والاسلام بريء منهم... ولكن كيف ينتفع المسلمون على أحسن الوجود بعودة النبى عليه الصلاة والسلام فترة قصيرة من الزمن؟ وما هي المسائل التي يرجعون بها الى شخصه الكريم فيسمعون منه فصل الخطاب فيها.

إنَّ ثروت أباظة، لم يتخيَّل مثل «دستوفسكي» عودة المسيح أو محمد عليهما الصلاة والسلام، ولكنّه لجأ الى المنهج الاسلامي في البناء القصصي، وهو منهج ـ أولاً ـ وظيفي، يتّضح من مفهوم «القص» في القرآن الكريم، حيث ينصرف عموماً الى معنى الهداية الى الاخبار والاثار الباقية، ويساق لمقاصد كثيرة منها العبرة والموعظة، أو القدوة وتثبيت العزيمة، أو للتعليم والهداية.

هذا المفهوم الوظيفي، يمثّل مفتاح القراءة لروايات ثروت أباظة.. الأخيرة خاصة، ومنها رواية «خشوع» التي ترسم فيها مفهوم القدوة، في قول الله تعالى: ﴿وكُلًّا نقصُّ عليكَ من أنباءِ الرُسلِ ما نثبتُ بهِ فُؤَادَكَ﴾(١).

وهو المفهوم الذي دفع بالكاتب الى أن يقص جهاد الرسل وعاقبة الصبر على الدعوة، تثبيتاً للأفئدة وتبشيراً للدعاة والمصلحين والنماذج الانسانية الخيرة بعاقبة الصبر على الجهاد.

وهو لم يتخذ من نماذجه الانسانية، مباشرة، نماذج الرسل عليهم السلام، وانما اتخذ من سيرتهم «اسوة حسنة» لنماذج انسانية أخرى معاصرة تعيش بين الناس، وتعاني ما يعانون وتفكّر فيما يفكرون، وهو في ذلك كلّه يستلهم قول الله تعالى من سورة الأحزاب:

---

(١) سورة هود آية ١٢٠

﴿لقد كانَ لكم في رسول ِ اللهِ أسوةٌ حسنةٌ﴾[٢] صدق الله العظيم..

اختار ثروت أباظة نموذجاً إنسانيّاً يقاس بسيرة رسول الله ﷺ، الذي سئلت عن خلقه السيدة عائشة رضي الله عنها فقالت: «كان خلقه القرآن».

فماذا يمكن أن يحدث لإنسان معاصر، يتخلّق بالقرآن الكريم، ويقتدي برسول الله ﷺ، ويتخذ منه أسوة حسنة، في شتى نواحي الحياة؟

ذلك هو السؤال، الذي تطرحه رواية «خشوع» من خلال أحداث معاصرة نسجها الكاتب الكبير من طبيعة النسيج الاجتماعي المعاصر، ومن خلال نماذج بشرية فيها سمات من الخير ومن الشر. في قرية «المهدية» التي تضم ناساً مثلهم مثل سائر الناس فيهم الطيب الشريف وفيهم المجرم الخبيث.. والخير في حياتنا نادر والشرّ على الناس غالب، ولكن ليس هناك إنسان كل ما فيه شرّ.. وحتى أهل الطيبة والورع قد تجد جانباً منهم لا يرضيك، فانه «لا كمال الا لنبي».

هكذا يؤدي «السرد» وظيفة تهيّئ المسرح، لشخصية «إبراهيم» الذي حفظ القرآن الكريم صغيراً، ونشأ في بيئة صالحة تدفع به الى تمثّل المثل الأعلى والاسوة الحسنة فيقاوم الشرّ ويواجه الطغيان، بثبات يدهش له أقرانه ومعاصروه من الكبار، الى أن يخجل الشرّ من نفسه، وينتصر الخير في نفس صاحبه عليه، فتدفعه القدوة البشرية الى «الاسوة الحسنة».

وإذا كانت المعركة بين الحق والباطل قديمة، فان الاسوة الحسنة هي التي تنير الظلام في هذا العصر، ولذلك اتسق النموذج الانساني في رواية «خشوع» بتأسي الشجاعة عند المثل الأعلى الذي قال فيه الإمام علي كرم الله وجهه: «كان أشجعنا أقربنا الى رسول الله ﷺ في القتال».

وكم يحتاج هذا العصر الى «شجاعة» تتآسى بشجاعة المثل الأعلى، في

(٢) سورة الأحزاب آية ٢١

واقع الأرض، حتى ينتصر الخير. ان رواية بروت أباظة الجديدة تؤكد ـ في ضوء التحليل الوظيفي للفن القصصي ـ ان «القدوة» من أهم وظائف الرواية المعاصرة، وهي قدوة تتوجه شطر «الاسوة الحسنة» المتجددة على مرّ الأجيال في واقع الناس، بهدف التغيير الى الأحسن، والانتصار على الشر والطغيان.

أما المعالجة الفنيّة في رواية «خشوع» فهي معالجة «مستهدية» تقوم على الأحداث الحاسمة ونقاط التحول واحداث الذروة، وتصوير تصادم الرغبات البشريّة، وكأني به قد أراد معالجة نموذجه البشري الذي ينتقل من «المثال» الى «واقع الناس»، في أحدث أشكال القص التي تؤدي الى كتابة القصة على أساس من الأفعال المنفردة، مشهداً اثر مشهد، من خلال محاكاة درامية للحياة.

الأدب الاسلامي.. ومواكب النور

من قصيدة شاعر الباكستان الكبير محمد اقبال نقرأ هذه الأبيات التي وجهها الى الأمة العربية:

أمـــة الصحـــراء يـــا شعب الخلود   من ســواكم حــل اغــلال الــورى
أي داع قبلكــم في ذا الـــوجـــود   صـــاح لا كسرى هنـــا لا قيصـــرا
من ســواكم في حــديث أو قـــديم   أطلع القـــرآن صبحـــا للرشـــاد
هـــاتفاً في مسمـــع الكـــون العـظيم   لـــيس غـــير الله ربـــا لـــلعـــبـــاد

نقرأ هذه القصيدة ونحن بعقولنا وأرواحنا مع حشود الحجيج هذه الأيام وفي مثلها من كل عام، يسعون إلى «البيت العتيق» محرمين متطهرين، خاشعين، قانتين، قد تجرّدوا من كل زينة وجاه وزهو، وطرحوا عنهم ما يتفاخر به الناس من أزياء وألقاب ورتب ومناصب، وتخففوا من أثقال المادية التى تئد روح الانسان، وتخنق فيه هيامه الفطري الى الحق والخير والجمال.. على حد تعبير د. بنت الشاطئ في كتابها القيم: «أرض المعجزات» حيث تصوّر كيف امحت الفروق اللونية والعنصرية والطبقية، وكيف تشهد الدنيا في هـذا الحرم آية المساواة عقيدة لا يتفاضل فيها الناس الا بالتقوى: أكرمهم عند الله أتقاهم: يمحق بها الدين في ختام رسالاته، كل ما يئود إنسان العصر من مآسي التفرقة العنصرية وجرائم الاضطهاد المذهبي، ولعنة الوثنية المادية، بصوت واحد، في حرم البيت العتيق غير بعيد عن غار حراء، يعلو هتاف المسلمين:

لـبـيـــك الـلـهـم لـبـيـــك

وإذا كان الاتصال الاعلامي بالمعنى الحديث وبأساليبه التكنـولوجيـة، يتجاوز اللقاء المباشر والتفاعل المواجهي، فان الحج يمثّل قمّة الاتصال بين المسلمين الذين يلتقون فيه من كل فج عميق على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم وتتحقّق فيه الدلالة الاسلامية لمفهوم «الأمة» على أفضل نحو، حيث جعل الله البيت العتيق منابة للناس وأمنا، وجعل الحج بين أركان الاسلام ومبانيه «عبادة العمر وختام الأمر وتمام الاسلام وكمال «الدين فيه» على حد تعبير الامام الغزالي رضي الله عنه. وقد أنزل الله عز وجل قوله: ﴿اليـومَ أكملتُ لكم دينَكُم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكُم الإسلامَ دِيناً﴾[1] وقال عز وجل: ﴿وأَذِّنْ في الناس بـالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾[2].

ولقد خطا الاسلام بالضمير الانساني شوطاً بعيداً في جميع مناسك الحج فالمسلم ـ كما يقول العقاد ـ لا يحج الى الكعبة ليعزز فيها سلطان الكهان أو ليقدم القرابين والاتاوات، وانما هي فريضة للأمـة وفي مصلحة الأمـة وعلى شريعة المساواة بين أبناء الأمة، وهي بهذه المثابة فريضة اجتماعية تعلن فيها الأمم الاسلامية وحدتها والمساواة بين الكبير والصغير أمام الله وعند بيت الله.

ويمتاز الحج في الاسلام بدلالته الروحية، إذ هو علاقة سماوية تناسب مقصدها الأسمى من تحقيق الرابطة بين الأمم التي تدين بعقيدة واحدة في أرجاء الكرة الأرضية، على تباعد مواقعها واختلاف أجوائها وفصولها. فهو رابطة من روابط السماء تؤمن بها أمم وحدتها العقيدة السماوية وان فرقت بينها شتى المطارح والبقاع.

ورسالة هذه الفريضة الاسلامية اليوم في العالم الاسلامي أعظم وألزم

---

(١) سورة المائدة آية ٣

(٢) سورة الحج آيه ٢٧

من رسالتها في جميع الأزمنة، لأنها المهد المجدد فى كل عام بين سعوب الاسلام، في عصرهم أحوج ما يكونون فيه الى الوفاق والوئام.

ولقد كان لقاء الرئيس محمد حسني مبارك مع أسفائه فى اللغه العربيه تجسيداً لمعنى الوفاق والوئام، وجمع النسمل للأمة العربيه، استلهاماً لفريضتها الاسلامية، التى تدفع بالمسلمين الى «الوحدة» في «أمة» واحدة، يسجّل لها التاريخ حضارة زاهرة دفعت الانسانية الى التقدم مئات السنين، وهي تواصل اليوم بناء نهضتها في جميع الميادين العلمية والفنيّه والاقتصادية والأدبية بما تحقّقه من «تعاون» عربي يستهدف تنسييد حضارة جديدة تحقّق مكانتها الكبرى بين أمم العالم، وهي التي تملك من قوّة الروح ومن الإيمان بالله ومن النسعور بمعاني الأخوة الانسانية بين البشر ما يمكن أن يصنع تاريخاً إنسانياً جديداً متل التاريخ الذي صنعه اسلامنا منذ خمسة عشر قرناً. تلك هى رسالة الأدب الاسلامي المعاصر، نطالع من صفحاتها ما كتبه أمير المسرح النسعري عزيز أباظة الذي نحتفل بذكراه اليوم، ونعني مسرحية «قافلة النور»، ونطالع معها الكتاب الجديد للدكتور سعد ظلام عن «المسرح الشعري بين شوقى وعزيز أباظة».

و«قافلة النور» تدور حوادثها حول دخول الاسلام الحيرة وتمكنه من قلوب أهلها قبل الفتح الاسلامي، وفيها نقرأ ذلك الحوار بىن المؤمنين والمنذر قائد جيش الحيرة الذي شاء الله أن تنفتح مساعره لاشراقة الحق ويسرح صدره بالاسلام.

منذر
قبل التوحيد في دينكم ذلك
عماد

سعد
صدقت.. كل العماد

ولا يزال المنذر بهم يسألهم عن رسول الله والقرآن الكريم والـوحي وتعاليم الاسلام فيجيبونه باليقين والحجة والدليل. وفي قافلة النور، نسمع غناء الحادي:

يـا نفس ان أفضيت للمنوره
ورواحتـك الروضـة النضره
صوت سنا الله وضمت منبره
وبضعه من ذاتـه المـطهـره

والشاعر هنا يستلهم المأثور الشعبي، الذي يتابع أغاني الحج التي تعبر عن مواكب النور، وهى الأغاني التي تضرب في الزمن، على نحو ما يذكر ابن الجوزي المتوفى عام ٥٩٧ هـ في كتابه «تلبيس ابليس» حيث يقول؛ ان الغناء يطلق على أشياء منها غناء الحجيج في الطرقات، فان أقوامـاً من الأعاجم يقدمون للحج فينشدون في الطرقات اشعاراً يصلون فيها زمزم والكعبة والمقام، وربما ضربوا مع الانشاد. فسماع شعرهم مباح، وليس في انشادهم إياها مـا يطرب ويخرج عن الاعتدال.

ويظهرنا د. حسين مجيب المصري عـلى صفحات مـطوية في «الأدب الشعبي الاسلامي المقارن» نتعرف فيها الى أغاني الحجيج التي تكشف عن أعماق الوجدان الإسلامي، وتنقسم هذه الأغاني قسمين: أولها تغنى أغانيه قبل الخروج الى بيت الله، والثاني خاص بالعودة منه، أو الأغاني التى يترنّم بها قبيل سفر الحاج، وتختلط فيه فرحة البشرى بأداء الفريضة بالحزن على فرقة الأهل والأحباب. أما بعد الإياب، ففي أغاني الحج فرحة المستقبلين المهنئين بسلامة العودة، ولنا أن نميّز من تلك الأغاني مـا يقال في وصف حـال من يلتمسون مرضاة الله سبحانه وتعالى وهم في مناسك الحج.

فالوجدان الشعبي الاسلامي يـظهرنـا اذن على تمثّـل فكرة «الأمـة» ووحدتها وهو ما عبّر عنه الشعراء فيها كتبوا من قصائد. يقول عزيز أباظة:

يـا بني مصر.. خـذوا أهبتكم لـغـد.. واستقبلوه حـذريـن
اقبلوا العـز من كـل يـد وانهلوا الاصلاح من كل معـن
اخفق الاصلاح ان لم يتسد في مـرامبه عـلى علم وديـن
كيف تـرضى امـة عن مصلح وهي لا تنجب غـير المصلحين

ويقول في قصيدة أخرى:

أيها العرب تناسوا جرحكم وأعـدوا لـلعـظيمات العـدد
وأديـروا الـرأي فيـا بينكم خاب من ضل عن السورى وند
اختـلاف الـرأي لا اثـم بـه انمـا الاثـم اتـفـاق مستبـد

وفي قصيدته «دار الكتاب اللبناني» يقول عن لبنان:

لبنـان مشرع هـدى أنت مـا بلد في الشرق الا سفاه غسك السرب
لبنـان أي جميـل قـد بـذلت لنـا سلمت وانحسرت عن شعبك النوب

أما «بغداد» فيقول عنها في مهرجان الشعر:

بغـداد لاسمك هـزة سحـريـه في كـل مصر للعـروبـه ينتمى
لـك في ضمائـرهم هـوى ودمـائهم مـكـلوءة حـرمـاتـه لم تـكـلم

وفي «أعباد المغرب» يقول:

ان للعـرب بـين شرق وغـرب هـدفـاً سـامق الـذرا منسـودا
فلنضـم القـلوب ولنـمض صفـا جـانب الحزم من يصـول وحيـدا

وفي مهرجان الشعر بتونس عام ١٩٧٣ ـ آخر مهرجان شعرى سهده يقول:

يـا تونس الخضراء همسة مهجـة لـك صختها يـا تـونس الخضراء
تـزجي إليـك تحيّـة ولـو انها لم تـرق مـا يـرقى لـه السعـراء

ويحيى «الجزائر» قائلاً:

هــذه أمــة الجــزائــر خــطت سفـر أمجادهـا بـأيـدي الخنـاجـر
قـد أخـذنـا عن الجـزائـر درسـاً كلنـا في الجهـاد شعب الجــزائـر

وكأني به يشارك السودان ثورته هذه الأيام في «ذكريات المقرن»، يقول:

قــد لمّ هــذا النهــر من شملنــا فكيف يوهي الشمل هـذا النهـر
وضــمـنـــا في نــوره مــرســل شــعـشــعــة الله هــدى لـلبشر

وهكذا تتعانق عرائس الشعر مع موكب النور في غناء يصدر عن وجدان الأمة العربية والاسلامية.

توفيق الحكيم والأدب الاسلامي

إنَّ مصدر الجمال في الفنّ هو ذلك الشعور بالسمو الذي يغير نفس الانسان عند اتصاله بالأثر الفني.. الأمر الذي جعل الفن في رؤيا الحكيم على اتصال وثيق بالدين، بل انه صرّح ان الفن لا بدّ أن يكون، مثل الدين قائماً على قواعد الأخلاق.

ولذلك ينقل مع «جويو» في ان الروح الاخلاقية عند الفنان كعبقريته يجب ان تنبعا معاً، وفي وقت واحد، من أعماق طبيعية.. وان الفن غير الأخلاقي هو على كل حال أحط مرتبة، حتى من وجهة النظر الفنية الخالصة.. ذلك ان الفن العالي ليس ذلك الذي يثير في النفس أحرّ المشاعر وأعمقها فحسب، ولكنّه الذي يثير فيها أكرم المشاعر وأرحمها، «ان خطر الفن يرجع الى تلك القدرة العجيبة فيه تلك التى يستطيع بها أن يستدر عطفك على مخلوقاته، ويستلبك إعجابك بصوره، وان العطف والاعجاب يعديان كالمرض، فاذا أبدع الفن في تصوير نوع من الشذوذ والانحطاط وحملك بهذا الابداع على أن تعطف على الانحلال وتعجب بالتدهور، فان مجتمعنا بأسره يمكن أن تسري فيه العدوى عن طريق الفن.

وفي ذكرى الحكيم هذا العام، نعيش مع صوت الرئيس مبارك في عيد الثورة، مؤكداً ان «بناء الانسان هو الأساس، وهو البناء الذي يسهم فيه الأدب والفن، اسهاماً يتلخّص في ابداع شيء حى نابض يؤثر في النفس والفكر» ذلك ان «نوع التأثير هو الذي يحدّد نوع الفن»، كما يقول الحكيم.

«وإذا طالعت أثراً فنيا، قصيدة أو قصة أو صورة وشعرت بعدئذ انها حركت مشاعرك العليا أو نفكيرك المرتفع فأنت أمام فن رفيع، فإذا لم تحرك إلا المبتذل من مساعرك والتافه من تفكيرك فأنت أمام فن رخيص». وحينها تتساءل عن مصدر التأثير في العمل الفنى، أهو الاسلوب أم اللب؟ أهو الشكل أم الموضوع؟ يقول الحكيم:

«إنَّ الأثر الفني الكامل في نظري هو ذلك الذي يحدث فينا ذلك الشعور الكامل بالارتفاع، وقلّما يحدث هذا الا عن طريق السمو في اللب والاسلوب لأن ضعف «الشكل» وسقم الأسلوب يحدثان في النفس شعوراً بالقبح والضيق والاشمئزاز، وهذا ينافي الشعور بالجمال والتناسق والانسجام! شأن رجل الفن، هنا أيضاً شأن رجل الدين لن ينير في نفسك احساساً علوياً حقاً، إلا إذا كان في طريق حياته، مستقيم السلوك، سليم الأسلوب بغير ذلك يختل التناسق بين الغاية والوسيلة».

وتأسيساً على هذا الفهم، يتّضح لنا مفهوم الأدب الاسلامي في رؤياه الابداعية، وهو المفهوم الذي نلتمس جذوره في سيرته الذاتية «سجن العمر» منذ بدأ اتصال الحكيم بالدين الاسلامي منذ عهد الطفولة والصبا في كتاب تحفيظ القرآن الكريم، ثم في مرحلة الاتصال العلميّ بمدرسة الحقوق من عام ١٩٢١ ـ ١٩٢٤ حيث تلقى الشريعة الاسلامية على يد الشيخ زيد، وهو العالم الثقة الذي اشتهر في ذلك العهد بان على يديه تلقى الشريعة كبار رجال مصر المعروفين في تاريخ القضاء والسياسة.

وحينها نحتفل اليوم بعيد الهجرة نلتقى مع الحكيم في كتابه الشهير «محمد الرسول البشير» الذي اعتمد فيه اعتماداً كلياً على الأحاديث المعتمدة ينطق بها الرسول وصحابته وكل من ورد ذكره في الكتاب.. ولذلك عكف على دراسة هذه الكتب المعتمدة وهى على سبيل الحصر.. سيرة ابن هشام وتفسيرها للسهيلي، وطبقات ابن سعد والاصابة لابن حجر، وأسد الغابة لابن الاثير،

وتاريخ الطبري، وصحيح البخـاري، وتيسير الـوصول والشـمائل والـترمذي والباجوري.

هـذا الكتاب تبنى المجلس الأعـلى للشئون الاسـلامية طبـع النسخة الانجليزية منه وتوزيعها في أنحاء العالم، وقد كتبه الحكيم في العصر الذي واجه فيه رجال التنوير في مصر مشكلة الغزو الفكري فرأوا توجيه جهودهم الى دعم القيم الايجابية في العقل المصري والعربي بعـد ان أحدث دورهم التنويري آثاره في «تغيير» بعض الاتجاهات السلبية فكتب د. «هيكل» «حياة محمد» وكتب «د. طه حسين» «على هامش السيرة»، وكتب «العقاد» «عبقرية محمد».

ذلك ان الفكر التنويري عند هذا الجيل، هو الـذي قام عـلى هدي وبصيرة فكر يستهدف «تغيير» الاتجاهات السلبية في المجتمع، ولكنه فكر يقظ لأخطار «الغزو الفكري» ولذلك كتب الحكيم مدافعاً عن الاسلام في كتابه «تحت شمس الفكر» سنة ١٩٣٨، فصولاً تحمل هذه العنوانات: «الدفاع عن الاسلام»، و«سر العظمة عند محمد ﷺ»، و«جوهر الدين»، وحينما أصدر «مختار تفسير القرطبي» قال في مقدمته ان ضرورته ما نراه اليوم من الاهتمام المخلص بالدين مما يقتضي الرجوع الى المنبع الأصلي للشريعة، ولما كانت المراجع مثل «تفسير القرطبي الجامع لاحكام القرآن» المشهـور بأنـه من أجل التفـاسير وأعظمها نفعاً يبلغ من الضخامة في مجلداته العشرين ما تشق قراءته على أكثر الناس، فقد رأيت أن أقوم بمثل ما قام به صاحب «مختار الصحاح» للتيسير على الناس باستخراج مختار في مجلد واحد للجامع لاحكام الفرآن، ودور رجل الفكر بين التنوير والتأصيل تلخصه لنا سيرة الحكيم الفكرية وهو الدور الذي يلخص مفهوم الأدب الاسلامي اليوم في ضوء التعادلية تأسيساً على ان الاسلام «يقوم على الايمان بوجود الدنيا ووجود الآخرة، ولكل وجود شأنه المستقل، فالدنيا وجود يعمل فيه الانسان كأنه يعيش أبداً، والآخرة وجود يعمل له الانسان كأنه يموت غداً، لا طغيان لأحـدهما عـلى الآخر الى حـد الافناء

والالغاء وان ما يميز الاسلام هو الاعتدال بعدم الغلو والتصرف والاسراف».

بل اننا نستطيع أن نقول إن الأدب الاسلامي ليس مصطلحاً ضيق المفهوم بل إنَّه أوسع وأشمل حينما يطبع رؤيا الكاتب بطابعه فتصدر عنها أعماله مترسمة قول الحكيم: «ان الدين مصدر أساسي من مصادر الفكر والالهام للأديب والمفكر والفنان، وخاصة في الاسلام حيث يقول رسوله صلوات الله عليه: «تفكر ساعة خير من عبادة سنة».

محمود حسن اسماعيل والشعر الاسلامي

«صوت من الله» ديوان جديد للشاعر المرحوم محمود حسن اسماعيل صدر بعد وفاته؛ يهديه الى «الروح التي أحالته يرى النور في حلك الظلام ويرتشف الشروق من أقداح الغيب». ويضم الديوان ٢٣ قصيده تدور جميعاً حول عنوان الديوان بالفعل «صوت من الله» مما يجعلنا نذهب الى أن هذا الديوان يمثل مرحلة متميزة من مراحل التطور الشعري عند شاعرنا الراحل، لها قسماتها الواضحة التي تفرق بينها وبين المراحل السابقة. على النحو الذي يجعلنا نذهب مع الدكتور عبد العزيز الدسوقي الى أن عالم محمود حسن اسماعيل الشعري، في حاجة الى عملية تذوق جمالي كاملة لسعره.

فمحمود حسن اسماعيل رائد من أكبر رواد مدرسة الشعر الوجداني في شعرنا العربي الحديث. وهو من هذا الجيل الذي جاء بعد جيل شوقي وحافظ ومطران وزملائهم، ذلك الجيل الذي هو «**جيل أبوللو**» نسبة الى تلك المدرسة الشعرية التي أسسها في مطلع الثلاثينات من هذا القرن الشاعر الرائد أحمد زكي أبو شادي، وتحلّق حولها كوكبة من السعراء الجدد، كان محمود حسن اسماعيل من أعظمهم، حيث استأثرت التجربة الشعرية بحياته كلها، ولعله الشاعر العربي المعاصر الوحيد الذي ظل ينجب ويغرد في حيوية وعذوبة وشباب طوال أربعين عاماً دون أن يتوقف، أو يحس نضوب معينه السعري الزاخر، أو يشعر بالقلق حيال أدواته الفنية، وقد ظل راهباً في محراب الفن طوال حياته، لم تستطع الأجناس الأدبية الأخرى أن تشده إليها، أو تجذبه الى

دروبها. عبر من خلاله عن تصوراته في الحياة والموت والتطور والاصلاح. ولقد كان يمتلك موهبة كبيرة، وطاقة شعرية عاتية، نقف حيالها مبهورين خاسعين، كما نقف حيال مظاهر الطبيعة الجليلة. وكانت له طريقة خاصة في التصوير والتعبير، وزاوية جديدة يرى من خلالها الأشياء وقاموس شعري متفرد، وقدرة خارقة على الغوص الى أعمق الهمسات وأدق الخفايا، وتصوير الأفكار وابداع الصور، والتقاط أعمق الأسرار من باطن التجربة الانسانية».

بدأت رحلته الشعرية وهو طالب في كلية دار العلوم، ديوانه الأول في يناير سنة ١٩٣٦ وكان بعنوان «أغاني الكوخ» وكان حدثا فريداً في عالم الحديث، ذلك أنه كما يقول د. الدسوقي «صور فيه بأسلوب فني نافذ حياة الريف وشقاء الفلاح، وتعاطف مع أحزانه وبؤسه. وأعاد الى الحياة الطبيعة في الريف». ثم توالت بعد ذلك دواوينه فأصدر في عام ١٩٣٧: «هكذا أغني» و«أين المفر» ١٩٤٧ و«نار وأصفاد» ١٩٥٩ و«قاب قوسين» ١٩٦٤ و«لا بد» ١٩٦٦، و«التائهون» ١٩٦٨ و«هدير البرزخ» ١٩٦٩ و«صلاة ورفض» ١٩٧٠ و«نهر الحقيقة» ١٩٧٢.

وترك قبل رحيله أربعة دواوين مخطوطة ومعدة للنشر هي «رياح المغيب» و«ديوان الحب» و«موسيقى الخبائز»، أما الديوان الرابع فهو «صوت من الله» الذي صدر مؤخراً، ليمثل مرحلة جديدة متميزة بعد مطولة «الشك» التأملية؛ ذلك أن محمود حسن اسماعيل، كما يقول د. الدسوقي «هو هذا الشاعر الفنان، ولكنه كان الى جانب ذلك أيضاً، شاعراً ملتهب الخيال محترم العاطفة، ورجلاً كثير الهاجس، غزير الشكوك. فإذا تجمعت هذه السجايا الشخصية والسمات الفنية والملامح الروحية لانسان فنان ومر بتجربة الشك، أبدع مثل هذا العمل الفني الرائع الذي يهز النفس الانسانية هزاً، وديوان «أين المفر» ١٩٤٧ يضم بين دفتيه عدداً من القصائد التي تقف بعض أبياتها عند تجربة الشك، مثل قصيدته «جلاد الظلال» أو غيرها من القصائد. ولكن هذه المطولة تدور كلها حول تجربة الشك. وهو شك محدد متميز، متجسد، فليس شكاً مطلقاً. وليس

شكلاً غائماً. ولكنه شك شاعر متميز الملامح في امرأة محددة. على مسرح محدد شهد حبهما وتجربتهما العاطفية».

ويذهب د. الدسوقي الى أن الخريطة الزمنية لتجربة محمود حسن اسماعيل الفنية مرت بثلاث فترات، يسمي الأولى «فترة التدفق الفني» والثانية «فترة التريث الفني» وهي التي تضمنت مرحلتي التوقف من ١٩٤٨ ـ ١٩٥٨، ومرحلة الأعراف، ومن حصادها ديوان «نار وأصفاد» ١٩٥٩، وفي هذه المرحلة أحس الشاعر أنه يقف بين عالمين، عالم انتهى، وعالم يحاول أن يعيش فيه، والفترة الثالثة هي فترة البعث الشعري.

ويمكننا أن نضيف الى هذه فترة رابعة؛ هي فترة الإيمان المطلق؛ من بعد مرحلة الاعراف، والتي تمثلت في ديوانه الجديد «صوت من الله» حيث تمثل هذه المرحلة انشغال الشاعر بوجهي «الوجود» ـ الظاهر والخفي ـ وانشغاله بمالك هذا الوجود ومدبر أمره، ومصرف شئونه؛ وفي هذه السبيل حشد الشاعر كل طاقاته الابداعية؛ وكل ما يملك من قوى الادراك ليكشف الطريق الى تلك الحقيقة؛ وكان من هذا كل القصائد التي سجلها في ديوانه «صوت من الله». يقول في القصيدة الأولى:

«سبحان وهاب الظلام لمن يريد بصيص نورا
سحبوا من الأكفان قدرته، ولجوا في النبور
وتأودوا خبباً، وتهتهة، ولياً للصدور
في حومة.. لا للسماء ولا التراب
لدفها نسب يثير!
.. زعموا لقاء الله وحدهم.. وجل!
فنوره غمر الدهور..
.. في الحب، في الأمل المحلق
في الأجنة، والبذور..

.. في الريح، في النسم المرنح،
في العشايا، والبكور
.. في الطيف تلمحه ظلال ظلاله فوق الغدير
.. في السفح في ضجر المغاور
في البرازخ، في البحور
.. في كل راقئ دمعه من جفن مظلوم ففير
.. في كل كاسر حلقة من قيد مقهور كسير
.. في كل رافض لقمة، لليل جالبها أجير
.. في كل واهب روحه لفدا التراب المستجير
.. في كل ذات حركت عدم الفراغ الى الصرير
في خطوة القدم الذي
هتك البراقع عن دجى القمر المنير!
وحدا السديم، ورش بين يديه أسرار الأثير
ومشى على الأجيال يسحق جهل عالمها الغرير
ويزيح ستر العقل عن اعجاز خالقه الكبير
.. الدرب ضوّأ للسراة
حقيقة، وحصاد نور
وهدى الدجى..
وتمزقت حجب الرياء على الحضور!

* * *

فالله يصحب كل من صحب النهار
.. وما لي عن غبش الستور!!!»

وكأنما الشاعر هنا يتوسّل بالدليل الوجودي، الذي يلمحه الانسان لمحاً، من خلال تصور للكائن الكامل، الذي يستعلي به على الكائنات الناقصة التي يجدها في الطبيعة؛ وإذن، كما يقول اقبال، فلا بدّ من وجود شيء خارجي يقابل

الفكرة الموجودة في عمولنا عن الكائن الكامل! كما يتوسّل بدلبل الغائية الذي تحدث عنه اقبال، حبب ينقصى الساعر المعلول للوصول الى نوع علّته، أي النظر في الأسياء، للوقوف على ما أودع فيها من عجائب الخلق، وبديع الصنع، ويستنتج من آثار الحكمة، ومن القصد، ومن التوافق في الطبيعة، ما يدل على وجود الخلق، يقول محمود حسن اسماعيل، من قصيدة: «الله والطبيعة»:

رب سبحانك دوماً يا إلهي
نغمة تسري بقلبي وشفاهي
كلما غرّد طبر في خميله
وضعن للحب دنياه الجميله
ونهادى العطر في الربوة من درب لدرب
عاشقاً يبحث في البستان عن قلب وحب
ونهلْتُ السحر والايمان من صمت الزهور
ورأيت الحب ينساب دعاء من شفاهي
وغناء من صفاء الروح يجري.. يا إلهي

وهذا الدليل، كما يقول الاستاذ عبد الكريم الخطيب، هو الذى دعا إليه القرآن الكريم في مقام التعرف على الله، والاقرار بوحدانيته.. وكان سبيل القرآن الكريم فيها الدعوة الى النظر في ملكوت السموات والأرض، نظر وتدبر وتفكر، يُسلم الناظر الى الاذعان لقدرة الله، والاخباب لجلاله وعظمته، حيث يرى عظمة الوجود، وروعته واتساقه، وإحكام نظامه، ما يسهد بجلال الخالق وعظمته، وقدرته.. يقول سبحانه وتعالى **﴿الذي خلقَ سبعَ سماواتٍ طباقاً، ما ترى في خَلْقِ الرَّحمٰنِ من تفاوُتٍ، فارجعِ البصرَ هل ترى من فُطور * ثم ارجعِ البصرَ كَرَّتَيْنِ ينقلبْ اليك البصرُ خاسِئاً، وهو حسيرٌ﴾**[1].

﴿أفلم ينظرُوا الى السَّماءِ فوقَهُمْ كيف بَنَيْنَاهَا وزينَّاهَا وما لها من

(١) سورة الملك الآيتان ٣ و٤.

فُروجٍ * والأرضَ مدَدْناها وألقَيْنَا فيها رواسي وَأَنْبَتْنا فيها من كل زوجٍ بهيجٍ * تبصرةً وذكرى لكلِّ عبدٍ منيبٍ﴾[2].

ولقد تمثّل الشاعر محمود حسن اسماعيل الآيات الكونية في القرآن الكريم، والتي تلفت العقول الى ما في الكون من آيات الله، الدالة على الخالق العظيم، وكمال علمه، وحكمته وقدرته. يقول الشاعر:

كلّما أشرق بالإيمان صدري
وهفت أشواقه الكبرى بثغري
نملت روحي من الحب ولاذت عند بابك
ورنا قلبي فشاهدت السنا خلف حجابك
وهفت عيني فأبصرتك في كل زمان
وانتشت روحي.. فشاهدتك في كل مكان
قوتي منك ومنها تنهل الحمد شفاهي
وتغني الروح تسبيحاً وشكراً يا الهي
إن يكن ذنبي توارى عن ضميري
وخطا التوبة تاهت في المسير
فأنا في كل خطوي، لك حمدٌ ومتاب
وحنين ردّدته حول أيامي الشعاب
فاسكب النور لقلبي، وارو بالسحر شفاهي
فأغني.. ربّ سبحانك دوماً يا الهي!

فمنهج الشاعر في البحث عن الله، يجعل الوجود كلّه كتاباً يقرأ في حروفه وكلماته الآيات الدالة على وجود الله، وعظمته؛ يقول الفيلسوف «تنيس»: «ليست الشمس والقمر والنجوم، والسهل والحزن، الا منظراً من مناظر رب العالمين». ويقول موكس مولر: «إنّ النظر في الظواهر الطبيعية، قاد

---

(٢) سورة ق الآيات ٦ ـ ٨

الانسان الى إدراك خالق وراء هذه الظواهر». ويقول محمود حسن اسماعيل في قصيدة: «الله والطريق»: إيماءة الروح لخطوات النبى عليه السلام في طريقه من الغار الى المدينة»:

كل حصاة في الطريق أومأت تنتظرُ
وكل ذرّات الأثير أقبلت تكبر
والريح من كل اتّجاه أيقظت ربابَها
وأسبلت على جبين أُفْقِها أهدابها
واسترسلت تعزف للسكون من صلاتها
وتستعيد شجوها همساً على لهاتها
وتسمع الجبال من تسبيحها أنغاما
لم تدر كيف انحدرت من قلبها إلهاما

وكأنما ينطبق على شاعرنا قول الفيلسوف إمرسن «ان في مقدور الانسان أن يرى الله في أعماق قلبه... وانه إذا أنصت الانسان الى صوت ضميره بأذن واعية، سمع صوت الله في دخيلة نفسه». يقول محمود حسن إسماعيل في قصيدة: «الله والذات.. وقفة على الأعتاب»:

وقفتُ طويلاً، على سُدّتكْ
أنادي ربّي النور في سدرتك
أنادي، وأجأر في حومةٍ
من الصمت.. نهدر في حضرتك
وأنشق ذاتين: ذاتا تنوحُ
وأخرى تسبّحُ من خشيتك
وكلتاهما من رياح الضمير
صدىً ذائب في صدى موجتك
تصيحان من غير ذكر، ولا

صلاةٍ تؤوب في خيمتك
أجرني يا ربّ.. من كل سيء
يصد طريقي الى ومضتك

أما في قصيدة: «الله والنفس» فقد تنكر الشاعر من ذاته، فقدمت له الرحيق لتروي ظمأها من عذابه، ثم جاءت تستجير:

وقالت: أجِرْني.. فقلتُ اخسئي
فمن غير رب السماء المُجير؟
تعامتِ.. حتى ركبت الظلامَ
على هودج من ضباب الغرور
جناحاهُ من سهوات الحياةِ
ومن يأسها في لقاء المصير
هوى بك في قاع ليل بهيم
تدورينَ فيه بخطو الضريرْ!
دعيني.. فما لي يدٌ في أساك
ولا عبرتُ في طريقي خطاكِ
تنكرتِ.. حتى وهى ساعداك
فأقبلت نادمةً تستجير

ولكن شاعرنا يتوسّل بمنهج الشريعة الاسلامية في الدعوة الى الله، والتعرف عليه؛ ذلك أن هذا المنهج يدعو إلى النظر في ملكوت السموات والأرض، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿.. لأُولي الألباب • الذين يذكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وقُعُوداً وعلى جُنُوبِهِم، ويتفكَّرُون في خَلْقِ السمواتِ والأرضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطلاً. سُبحانَك﴾[3].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿أفلا ينظُرُون إلى الإبلِ كيفَ خُلِقَتْ • وإلى

(٣) سورة آل عمران الآيتان، ١٩٠ ـ ١٩١.

السماء كيف رُفِعَتْ ٭ وإلى الجبالِ كيفَ نصبت ٭ وإلى الأرضِ كيفَ سُطِّحَتْ ٭ فَذَكِّرْ إنَّمَا أنت مُذَكِّرٌ ٭ لستَ عليهم بمسيطرٍ﴾[٤].

يقول الشاعر في قصيدة «سجدة لله» متمثلاً فيها المعنى القرآني الكريم:

كلّما هلّ الصباح
وهفا كل جناح
وعلى الربوة صاح
بلبل يشكو هواه،
رددي شكواه
واسجدي لله
كلّما رن أذان
موقظاً سمع الزمان
وشدا كل جنان
ضارعاً يدعو سماه
فاسمعي نجواه
واسجدي لله

كلّما رفرف عود
راقصاً بين الورود
ومضى فوق الوجود
هاتفاً يُحْيي ربّاه
باركي دنياه
واسجدي لله...

إيه يا نفس استعيني
بالرضا في كل حينِ

(٤) سورة الغاشية الآيات ١٧ ـ ٢٢

فـــهـــو نـــور لـــلـيـــفـــين
وهـــو صـــفـــو لـــلحـــيـــاة
وهـــو مـــن نـــور الالـــه
فـــاســـجـــدي لله

ولقد سئل الصديق أبو بكر رضي الله عنه: بم عرفت ربك فقال عرفت ربي بربي! ولولا ربي ما عرفت ربي! فقيل له: وكيف عرفته؟ فقال: العجز عن الإدراك إدراك.

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: «لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان. قريب من الأشياء غير ملامس، بعيد منها غير مباين، متكلّم لا بروّية، مريد، لا بهمة، صانع، لا بجارحة، لطيف لا يوصف بالخفاء، كبير، لا يوصف بالجفاء، بصير لا يوصف بالحاسة، رحيم، لا يوصف بالرقة، تعنو الوجوه لعظمته، وتجبُ القلوب من مخافته».

ولقد تمثّل شاعرنا محمود حسن اسماعيل الفكرة الالهية في الاسلام؛ وهي «فكرة تامة» كما يقول العقاد، لا يتغلب فيها جانب على جانب، ولا تسمح بعارض من عوارض النسرك والمشابهة، ولا تجعل الله مثيلاً في الحس ولا في الضمير. بل له ﴿**المثل الأعلى**﴾[٥] و﴿**ليس كمثله شيء**﴾[٦]. فالله وحده ﴿**لا شريك له**﴾[٧].. ﴿**ولم يكن له شريك في الملك**﴾[٨]، ﴿**فتعالى الله عما يشركون**﴾[٩] و﴿**سبحانه عمّا يشركون**﴾[١٠].

يقول محمود حسن اسماعيل في فصيدة «الله والشرك»:

---

(٥) سورة النحل آية ٦٠، والروم ٢٧
(٦) سوره الشورى آية ١١
(٧) سوره الأنعام آيه ١٦٣
(٨) سورة الفرهان آيه ٢
(٩) سورة الأعراف آية ١٩٠
(١٠) سورة التونة آيه ٣١

«كانت الأرض قصة من ظلام
ردّدتها قوافل الأيام،
وتناجت بها قلوب الخيام،
واستطارت بها نفوس الأنام
فهي إعصار جنَّةٍ في قتام
والبرايا في قبضتيه أسارَى

إلى أن يقول:

ربّ هذي مضارب الجاهليهْ
خيّمت فوقها العصور الشقيه
جاءها والزمان يجترُّ غيَّهْ
قادمٌ في خطاه فجرُ البريّهْ
وبكفَّيْه نجوةُ البشريّهْ
من قرون صبت عليها الحسارا
فيل بشرى الوجود؟ قالت: محمد
فأكبَّت أوثانُهم وهي تُعبَدْ
واستجارت نيرانهم وهي تخمد
وتهاوى ايوان كسرى الممرد

خطرة الطيف! وانتهى كل معبد
وغدا للزمان أعلى منارا
طهّر الكون من ضلال ورجس
أنقذ الناس من ظلام وبؤس
كم سرى نوره الى كل نفس
سيرة السمس بين ماء وغرس
ينبت الخير للحياة ويُرسي
مجدها، أينما على الأرض سارا

ويختم القصيدة بقوله:

ربّ بـــارك بـــنـــوره كـــل عصر
وافض هـــديـــه عـــلى كـــل مصر
وانـــفـــح الشرق مـــن ســـنـــاه بـــأزر
يجـــعـــل الحـــق في هـــواديـــه يجـــري
مـــاضي الخـــطو واصـــلاً كـــل نصر
يـــتـــحـــدى ويـــقـــهـــر الاقـــدارا

فليس الاله في الاسلام مصدر النظام وكفى، ولا مصدر الحركة الأولى وكفى، ولكن **﴿الله خـالق كل شيء﴾**[11] **﴿وخلق كـل شيء فقدره﴾**[12].. **﴿وهو بكل شيء عليم﴾**[13] ويقول العقاد إن من صفات الله في الاسلام ما يعتبر رداً على «فكرة الله» في الفلسفة الأرسطية كما يعتبر ردّاً على أصحاب التأويل في الأديان الكتابية وغير الكتابية. إنّ الله في الاسلام **﴿عالم الغيب والشهـادة﴾**[14] و**﴿لا يعـزبُ عنـه مثقـال ذرة﴾**[15] **﴿وهـو بكـل خلق عليم﴾**[16] **﴿ومـا كنا عن الخلق غـافلين﴾**[17].. **﴿وَسِعَ ربُّنـا كل شيء علماً﴾**[18].. **﴿ألا لَهُ الخلق والأمر﴾**[19].. **﴿عليم بذاتِ الصدور﴾**[20].

---

(١١) سورة الرعد الآية ١٦، والزمر ٦٢، وغافر ٦٢
(١٢) سورة الفرقان آية ٢
(١٣) ورودها كثير في الكتاب الكريم كما في البقرة ٢٩، والأنعام ١٠١ وغيرهما...
(١٤) سورة التوبة آية ٩٤، وآيه ١٠٥، الرعد ٩، المؤمنون ٩٢، السجدة ٦، الزمر ٤٦، الحشر ٢٢، والتغابن ١٨
(١٥) سورة سبأ آية ٣
(١٦) سورة يس آية ٧٩
(١٧) سورة المؤمنون آية ١٧
(١٨) سورة الأعراف آية ٨٩.
(١٩) سورة الأعراف آية ٥٤
(٢٠) سوره آل عمران آيه ١١٩

يقول شاعرنا في قصيدة: «الملك لله»:

عـلى الأرض نـور،. وفي الأفـق نـور
وفي كـل قـلب شـعـاع يـدورْ
ولحـن يـسـبـح طـي الـصـدور
ويـسـتـغـفـر الله مـن كـل ذنـب
ويـدعـوك يـا ربّ أنـت الملـبـي
ولـبّـيـك.. أنـت الـرحـيـم الـغـفـور.

وبعد.. فهذا الديوان «صوت من الله» لا يمثّل مرحلة جديدة من مراحل تطوّر الشاعر فحسب، ولكنّه يمثّل مرحلة جديدة في الأدب الاسلامي، الذي نرجو له أن يزدهر وأن يقوم بدوره المنشود في هذا العصر وفي كل العصور.

صلاة العيد.. والاعلام الاسلامي (*)

ونحن نحتفل بعيد الفطر المبارك نستعيد قول الرسول الكـريم ﷺ: «زيّنوا أعيادكم بالتكبير» لأن التكبير يمثل نشيداً قدسياً يعبّر عن فرحة المؤمن بإيمانه، كما أن خطبة العيد لها دورها الهام في التوجيه والإرشاد بعد الجو المفعم بالترقّب والانصات على أثر الانتهاء من الصلاة وترديـد التكبيرات تـرديداً سوياً ومؤثراً. وهكذا تسود مشاعر الحب والصفاء والخشوع.

من أجل ذلك يذهب الدكتور إبراهيم امام في أحدث كتبه: «الاعلام الاسـلامي» إلى أن صلاة العيـدين شعيرة تمثّـل الاتصال الجمعى في أروع مظاهره.. والاتصال الجمعي شكل من أشكال الاتصال، الذي أصبح بدوره علماً من أحدث العلوم الاجتماعية التي عرفها العلم الحديث، وهو علم يبحث ظاهرة التأثير في الناس بوسائل الاتصال المختلفة كالكلمة الشفهية المنطوقة، والكلمة المدوّنة، والكلمة المطبوعة، والخطابة والرسائل والصحـافة والاذاعـة المسموعة والاذاعة المرئيّة والأفلام والأشرطة المرئيّة وغيرها.

فالاتصال كلمة عامة شاملة تعبّر عن التفاعل الاجتماعي المباشر عن طريق الاتصال الطبيعي الشخصى والجمعي، وعن طريق الاتصال الصناعى غير المباشر والذي تستخدم فيه الوسائل التكنولوجية العصرية كوسائل للاتصال.

والاتصال كمفهوم أو مصطلح يشير الى العلاقة التي تكون بين الناس

(*) الأهرام ى ١٩٨٠/٨/١١

داخل نسق اجتماعي معيّن يختلف من حيث الحجم ومن حيث نوع النشاط السائد فيه، بمعنى أن هذا النسق قد يكون مجرّد علاقة ثنائيّة نمطية بين شخصين، أو بين جماعة صغيرة أو مجتمع محلّي أو مجتمع قوميّ، ويمكن أن يكون على مستوى العالم كلّه، ولكي تعبّر تلك العلاقة عن مفهوم الاتصال، فإنه من الضروري أن ينفل داخل تلك العلاقة بعض الخبرات أو المشاعر أو الأحاسيس أو المعلومات أو التوجيهات أو الأخبار أو غيرها.

وفي كتابه عن «الاعلام الاسلامي» يقدّم الدكتور امام نظرية الاعلام الاسلامي يستمد منطلقاتها من القرآن الكريم والسنّة الصحيحة، ويقسم وسائل الاتصال بالناس في التاريخ الاسلامي الى أربعة أنواع تميّزت بها أربع مراحل وهي: مرحلة الاتصال الشفهي في صدر الاسلام وعصر بنى أميّة، ثم مرحلة الاتصال التكويني أو الصحفي وهي مرحلة طويلة تمتد من العصر العباسي الى العصور الحديثة، حين بدأت الطباعة وانتشرت معها فنون الصحافة، فكانت المرحلة الثالثة وهي مرحلة الاتصال الجماعى والصحفي، وأخيراً جاءت مرحلة الاتصال الاذاعي في أوائل القرن الحالي بعد اكتشاف موجات الاذاعة.

ويذهب الى أن أدوات التأثير الاعلامى في الاسلام أدوات شفهيّة مثل الآذان والخطبة والقصّة والقصيدة، أو مكتوبة كالرسائل والكتب، أو مطبوعة كالصحف والمجلات والنشرات، أو مسموعة كالاذاعة أو مرئيّة كالتليفزيون ولكنّه يوضّح أن الطابع العام للاتصال في صدر الاسلام كان أغلبه شفهياً، يعتمد على الاتصال الشخصي المباشر، وهو اتصال ناجح في الاقناع لأنه يتلافى سلبيات الاعلام الأخرى وخاصة مقاومة المستقبل، وهى مقاومة تضعف تأثير الإعلام، ولكن الاتصال الشفهي يتّسم بالحوار والاقناع وتبادل الأفكار، ويحصّن الحجج والبراهين، ومحاولة التغلّب على كل أساليب الاحتجاج حتى نصل الى ذروة الاقناع.

ولذلك عني الدكتور إمام بدراسة ما يسمّيه بالاعلام الشعري، ذلك أن الشعر لم يكن مجرّد قصائد تنظم في أغراض كالمديح والهجاء والغزل والرثاء والحماسة وغيرها، وانّما كان في حقيقة الأمر نظاماً إعلامياً كاملاً يقصد به التأثير في الناس على نحو ما تفعله أجهزة الاعلام الحديثة.

الخطابة وبلاغة الاتصال

الثابت تاريخياً أن الخطابة كانت رائجة عند العرب وأن البلاغة كانت لها مكانة عظيمة الى درجة أن العبارة البليغة كانت تهبمهم وتفعدهم بما تثيره في نفوسهم من انفعالات النخوة والشهامة والحماسة والاندفاع الى القتال.

وقد كان للخطيب عند العرب الجاهليين مقام كبير، لفصاحة لسانة وقوّة بيانه ومقدرته على الدفاع عن قومه والذب عنهم والتكلّم باسمهم، فهو في هذه الأمور مثل الشاعر لسان القبيلة ووجهها ورجل اعلامها. وقد ذكر أهل الأخبار أسماء جماعة من الخطباء اشتهروا بقوّة بيانهم وسحر كلامهم وأوردوا نماذج من خطبهم، ومنهم من اشتهر بنظم الشعر وعد من الفحول، مثل عمرو ابن كلثوم.

وذكر الجاحظ «أن العرب استعملت الموزون والمقفى والمنثور في مساجلة الخصوم، والرجز في الأعمال التي تحتاج الى تنسيط وبعث همّة، وعند مجافاة الخصم وساعة المشاولة، وفي نفس المجادلة والمحاورة، واستعملت الأسجاع عند المنافرة والمفاخرة واستعملت المنثور في الأغراض الأخرى». وقال الجاحظ أيضاً «وكل شيء للعرب فانما بديهة وارتجال وكأنّه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة ولا استعانة، وإنّما هو أن يصرف همّه الى جملة المذهب، والى العمود الذي إليه يقصد، فيأتيه المعنى إرسالاً، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً، ثم لا يقيده على نفسه، ولا يدرسه أحد من ولده، وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلّفون. وكان الكلام الجيّد عندهم أظهر

وأكثر، وهم عليه أقدر، وله أقهر، وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع، وخطباؤهم للكلام أجود، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا الى تحفظ، ويحتاجوا الى تدارس وليس هم كمن حفظ علم غيره، واحتذى على كلام من كان قبله، فلم يحفظوا إلاّ ما علق بقلوبهم، والتحم بصدورهم، واتصل بعقولهم، من غير تكلّف ولا قصد، ولا تحفّظ ولا طلب».

وقسم الجاحظ الخطب الى قسمين فقال: «اعلم أن جميع خطب العرب من أهل المدر والوبر، من البدو والحضر، على ضربين، منها الطوال ومنها القصار، ولكل ذلك مكان يليق به وموضع يحسن فيه. ومن الطوال ما يكون مستوياً في الجودة، ومتشاكلاً في استواء الصنعة، ومنها ذات الفقر الحسان، والنتف الجياد، وليس فيها بعد ذلك شيء يستحق الحفظ، وانما حفظه التخليد في بطون الصحف، ووجدنا عدد القصار أكثر، ورواة العلم الى حفظها أسرع».

هذا وقد استخدم العرب الخطابة كسلاح فعال في المفاوضات التي تكوّن داخل القبيلة في السلم وفي الحرب، وفي المفاوضات التي تكون بين القبيلة وغيرها من القبائل.

ومن الخطباء الجاهليين جماعة تخصصت في إلقاء المواعظ والخطب الدينية والأخلاقية، وهم قوم يسمّون بالأحناف، وكانوا على دين إبراهيم عليه السلام، وقد عادوا الى مكة مع أبناء اسماعيل عليه السلام، واستقروا فى الحرم حيث كانوا يقومون بالتدريس للناس.

ومن أشهر الخطب المنسوبة للعرب الجاهليين، الخطب التي قالها النعمان ابن المنذر ورجاله لكسرى انوشروان، وكان الأخير قد تكلّم في العرب بما اعتبره الأول مهانة للعرب، وأراد أن يردّ عليه فيلقمه حجراً.. فقال:

«أصلح الله الملك.. حق لأمة الملك منها أن يسمو فضلها ويعظم حظّها،

وتعلو درجتها، إلاّ أن عندي جواباً في كل ما نطق به الملك، وفي غير ردّ عليه ولا تكذيب له، فان امنني غضبه نطقت به». فلمّا أمنّه كسرى قال «أما أمتك أيها الملك فليست تنازع في الفضل لموضعها الذي هي به من عقولها وأحلامها، وبسطة محلها وبحبوحة عزها، وما أكرمها الله به ولاية آبائك وولايتك.. وأما الأمم التي ذكرت فأي أمة تقرنها بالعرب الا فضلتها». فقال كسرى «بماذا؟»، فأجابه النعمان «بعزها ومنعتها وحسن وجوهها، وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها، وشدّة عقولها وأنفتها ووفائها. فأمّا عزتها ومنعتها فإنها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دخلوا البلاد ووطدوا الملك وقادوا الجند، لم يطمع فيهم طامع ولم ينلهم نائل، حصونهم ظهور خيلهم، ومهادهم الأرض، وسقوفهم السماء، وجنّتهم السيوف، وعدّتهم الصبر.. إذ غيرها من الأمم إنّما عزّها الحجارة والطين وجزائر البحور. وأما حسن وجوهها وألوانها فقد يعرف فضلهم في ذلك على غيرهم من الهند المنحرفة، والصين المتمغة، والترك المشوّهة، والروم المقشرة، وأمّا أنسابها وأحسابها فليست أمّة من الأمم إلاّ وقد جهلت آباءها وأصولها وكثيراً من أولها.. حتى إن أحدهم ليسأل عن أصل أبيه ديناً فلا ينسبه ولا يعرفه.. وليس أحد من العرب إلاّ يسمّى أباً فأباً، أحاطوا بذلك احسابهم، وحفظوا به أنسابهم، فلا يدخلُ رجل في غير قومه، ولا ينتسب غير نسبه، ولا يدعي الى غير أبيه.

وأما سخاؤها فإن أدناهم رجلاً الذي تكون عنده البكرة والناس عليهم بلاغة في حمولة وشبعة ورية، فيطرق الطارق الذي يكتفي بالفلذة ويجزي بالشربة فيعقرها له ويرضى أن يخرج عن دنياه كلّها فيما يكسبه حسن الأحدوثة وطيب الذكر.

وأمّا حكمة ألسنتهم فإن الله أعطاهم في اشعارهم ورونق كلامهم، وحسنه ووزنه وقوافيه، مع معرفتهم الأشياء وضربهم للأمثال وإبلاغهم في الصفات، ما ليس لشيء من ألسنة الأجناس. ثم خيلهم أفضل الخيل، ونساؤهم أعف النساء، ولباسهم أفضل اللباس، ومعادنهم الذهب والفضة،

وحجارة جبالهم الجزع، ومطاياهم التى لا يبلغ على مثلها سفن، ولا يقطع بمثلها بلد قفر.

وأمّا دينها وشريعتها فانّهم متمسكون به حتى يبلغ أحدهم من تمسكه بدينه أن لهم أشهراً حرماً وبلداً محرماً، وبيتاً محجوجاً ينسكون فيه مناسكهم ويذبحون فيه ذبائحهم. فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه وهو قادر على أخذ ثأره وإدراك وطره منه، فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله بالأذى.

وأمّا وفاؤها فإن أحدهم يلحظ اللحظة ويومئ بالإيماءة فهي ولث «عهد» وعقدة لا يحلّها إلاّ خروج نفسه. وإنّ أحدهم يرفع عوداً من الأرض فيكون رهناً بدينه فلا يغلق ولا تختفر ذمته. وإنّ أحدهم ليبلغه أن رجلاً استجار به ـ وعسى أن يكون نائياً عن داره فيصاب فلا يرضى حتى يفني تلك القبيلة التي أصابته أو تفنى قبيلته لما أخفر من جوار. وإنّه ليلجأ إليهم المجرم المحدث من غير معرفة ولا قرابة، فتكون أنفسهم دون نفسه وأموالهم دون ماله.

وأمّا قولك أن أفضل طعامهم لحوم الإبل على ما وصفت منها أيّها الملك.. فما تركوا ما دونها إلاّ احتقاراً له ـ فعمدوا الى أجلها وأفضلها فكانت مراكبهم وطعامهم، مع أنها أكثر البهائم شحوماً وأطيبها لحوماً وأرقّها ألباناً وأقلّها غائلة وأحلاها مضغة.. وإنه لا شيء من اللحمان يعالج ما يعالج به لحمها الا استبان فضلها عليه.

وأما تحاربهم وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم، فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم إذا أنست من نفسها ضعفاً وتخوفت نهوض عدوها إليها بالزحف.. وإنه إنما يكون في المملكة العظيمة أهل بيت واحد يعرف فضلهم على سائر غيرهم، فيلقون اليهم أمورهم وينقادون إليهم بأزمتهم. وأمّا العرب فإن ذلك كثير فيهم حتى حاولوا أن يكونوا ملوكاً أجمعين.. مع انفتهم من أداء الخراج والعطف بالعسف».

أعجب كسرى بما سمع وعجب له، ثم قال للنعمان «أنك لأهل لموضعك من الرياسة في اقلبمك ولما هو أفضل». ثم كساه من كسوبه وسرحه الى الحيرة. فلمّا قدمها وفي النفس ما فيها مما سمع من كسرى من تنقص العرب وتهجين أمرهم، بعث الى أكثم بن صيفى وحاجب بن زرارة التميميين، وإلى الحارث بن ظالم وقيس بن سعود البكريين والى خالد بن جعفر وعلقمة بن علاثه وعامر بن الطفيل، والى عمرو بن الشريد السلمى وعمرو بن معد يكرب الزبيدي. فلما قدموا عليه قال لهم:

«قد عرفتم هذه الأعاجم وقرب جوار العرب منها، وقد سمعت من كسرى مقالات تخوّفت أن يكون لها غور، ويكون انما أظهرها لأمر أراد أن يتخذ به العرب خولا كبعض طماطمته في تأديه الخراج إليه كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله».

ثم حدثهم بما قاله كسرى وما رد به عليه فقالوا:

«أيها الملك، وفقك الله. ما أحسن ما رددت وما أبلغ ما حججته به، فمرنا بأمرك وادعنا الى ما شئت».

فقال النعمان «انما أنا رجل منكم وانما ملكت وعززت بمكانكم وما يتخوف من ناحيتكم، وليس شيء أحب إلي مما سدد الله به أمركم وأصلح به شأنكم وأدام به عزكم. والرأي أن تسيروا بجماعتكم أيها الرهط وتنطلقوا الى كسرى. فإذا دخلتم نطق كل رجل منكم بما حضره ليعلم أن العرب على غير ما ظن أو حدثته نفسه. ولا ينطق رجل منكم بما يغضبه فإنه ملك عظيم السلطان كثير الأعوان مترف معجب بنفسه. ولا تنخذلوا له انخذال الخاضع الذليل. وليكن أمر بين ذلك تظهر به وثاقة حلومكم وفضل منزلتكم وعظيم أخطاركم. وليكن أول من يبدأ الكلام منكم أكثم بن صيفي لسنى حاله. ثم تتابعوا على الأمر من منازلكم التى وضعتم بها، فإنما دعاني الى التقدمة اليكم علمي بجميل كل رجل منكم على التقدم قبل صاحبه، فلا يكونن ذلك منكم فيجد في آدابكم مطعناً فانه ملك قادر مسلّط».

ثم دعا لهم بما في خزائنه من طرائف الحلل والعمائم، وأمر لكل رجل بنجيبة مهرية، وكتب معهم كتاباً قال فيه «أمّا بعد، فإن الملك ألقى إلي من أمر العرب ما قد علم، وقد أوفدت الى الملك رهطاً من العرب لهم فضل في أحسابهم وأنسابهم وعقولهم وآدابهم، فليسمع الملك، وليغامض عن جفاء ان ظهر في منطقهم، وليكرّمني بإكرامهم وتعجيل سراحهم، وقد نسبتهم في أسفل كتابي الى عشائرهم.

وانطلق الرجال حتى دخلوا على كسرى وألقوا اليه بكتاب النعمان فقرأه، وأمر بإنزالهم الى أن يجلس لهم مجلساً يسمع منهم. فلمّا ان كان بعد ذلك بأيام أمر مرازبته ووجوه أهل مملكته فحضروا وجلسوا على يمينه وشماله.. ثم دعا بهم على الولاء والمراتب التي وصفهم النعمان بها في كتابه وأقام الترجمان ليؤدي اليه كلامهم، ثم أذن لهم في الكلام فقام اكثم وقال «ان أفضل الأشياء أعاليها، وأعلى الرجال ملوكها، وأفضل الملوك أعمها نفعاً.. وخير الأزمنة أخصبها، وأحسن الخطباء أصدقها. الصدق منجاة، والكذب مهواة، والشر لجاجة، والحزم مركب صعب، والعجز مركب وطيء. آفة الرأي الهوى، والضعف مفتاح الفقر، وخير الأمور الصبر، حسن الظن ورطة، وسوء الظن عصمة. إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعي. من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء. شرّ البلاد بلاد لا أمور فيها، وشرّ الملوك من خافه البريء. أفضل الأولاد البررة. خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة. أحق الجند بالنصر من حسنت سريرته. يكفيك من الزاد ما بلغك المحل. البلاغة الايجاز. من شرد نفر، ومن تراحم تآلف.

فأخذت الدهشة كسرى وقال «ويحك يا أكثم.. ما أحكمك وأوثق كلامك، لو وضعك كلامك في غير موضعه».

فأجابه أكثم «الصدق ينبئ عنك لا الوعيد.

فقال كسرى «لو لم يكن للعرب غيرك لكفى».

فقال أكثم «رب قول أنفذ من صول» (الصول: الوثبة عند الخصوم).

ثم قام حاجب بن زراره فقال «وري زندك وعلت يدك وهيب سلطانك. إنّ العرب أمّة فد غلظت أكبادها واستحصدت موتها ومنعت درّتها، وهي لك واقعة ما تألفتها، مسترسلة ما لاينتها، سامعة ما سامحتها، وهي العلقم مرارة، والصاب غضاضة، والعسل حلاوة، والماء الزلال سلاسة. نحن وفودها إليك، وألسنتها لديك. ذمتنا محفوظة، وأحسابنا ممنوعة وعشائرنا فينا مطيعة ان نؤب لك حامدين خيراً فلك بذلك عموم محمدتنا، وأن تذم لم تخض بالذم دونها».

قال كسرى «يا حاجب ما أشبه حجر التلال بألوان صخرها».

ردّ حاجب «بل زئير الأسد بصولتها».

قال كسرى «هو ذلك».

ثم قام الحارث فقال «دامت لك المملكة باستكمال جزيل حظها وعلو شناها، من طال رشاؤه كثر منحه (سقاؤه)، ومن ذهب ماله قل منحه. ومن تناقل الأقاويل يعرف اللب. وهذا مقام سيرجف بما تنطق به الركب، وتعرف به كنه حالنا العجم والعرب. ونحن جيرانك الأدنون، وأعوانك المعينون، خيولنا جمّة، وجيوشنا فخمة، ان استنجدتنا فغير ريض (غير مقصرين). وإنْ استطرقتنا فغير جهض (غير مانعين). وإن طلبتنا فغير غمض - لا ننثني لذعر ولا نتنكر لدهر، رماحنا طوال وأعمارنا قصار».

قال كسرى «لو قصر عمرك لم تستول على لسانك نفسك».

فأجابه الحارث «أيها الملك إن الفارس إذا حمل نفسه على الكتيبة معزاً بنفسه على الموت، فهي منية استقبلها وجنان استدبرها. والعرب تعلم أني أبعث العرب قدماً، وأحبسها وهي تسرف بها حتى اذا جاشت نارها، وسعرت لظاها، وكشفت عن ساقها، جعلت مقادها رمحي، وبرفها سيفي، ورعدها زئيري، ولم أقصر عن خوف ضحضاحها، حتى أنغمس في غمرات لججها. وأكون فلكا لفرساني الى بحبوحة كبشها فاستمطرها دماً، واترك حماتها جزر السباع وكل نسر قشعم».

فالتفت كسرى الى بقية أصحاب الحارث وسألهم «أهو كذلك؟»
قالوا «فعاله أنطق من لسانه».

فقام عمرو بن الشريد السلمي وقال «أيها الملك نعم بالك، ودام في السرور حالك. إنَّ عاقبة الكلام متدبّرة، وأشكال الأمور معتبرة، وفي كثير نقلة، وفي قليل بلغة (ما يتبلغ به). وفي الملوك سورة السفر. وهذا منطق له ما بعده.. شرف فيه من سرف وخمل فيه من خمل. لم نأت لضيمك، ولم نفد لسخطك، ولم نتعرض لرفدك. إنَّ في أموالنا منتقداً، وعلى عزنا معتمداً. إن أورينا نارا نقتنا، وإن أرود دهرنا بنا اعتدلنا. ألاَ إنَّا مع ذلك لجوارك حافظون، ولمن رامك كافحون، حتى يحمد الصدر، ويستطاب الخبر».

قال كسرى «ما يقوم قصد منطقك بافراطك، ولا مدحك بذمك».
قال عمرو «كفى بقليل قصدي هادياً وبأيسر افراطي مخبراً، ولم يلم من عزبت نفسه عما يعلم، ورضي من القصد بما بلغ».

قال كسرى «ما كل ما يعرف المرء ينطق به. اجلس».

ثم قام خالد فقال «أحضر الله الملك اسعاداً، وأرشده إرشاداً.. إنّ لكل منطق فرصة، ولكل حاجة غصة. وعي المنطق أسد من وعي السكوت. وعثار القول انكأ من عثار الوعث، وما فرصة المنطق عندنا إلاَّ بما تهوى. وغصّة المنطق بما لا تهوى غير مساغة. وتركي ما أعلم من نفسي، ويعلم من سمعي انني له مطيق، أحبّ إليَّ من نكاني ما أتخوّف ويتخوّف مني. وقد أوفدنا إليك ملكنا النعمان، وهو لك من خير الأعوان ونعم حامل المعروف والاحسان. أنفسنا بالطاعة لك باخعة، ورقابنا بالنصيحة خاضعة، وأيدينا لك بالوفاء رهينة».

قال كسرى «نطقت بعقل، وسموت بفضل، وعلوت بنبل».

ثم قام علقمة فقال «نهجت لك سبل الرشاد، وخضعت لك رقاب

العباد. إنَّ للأقاويل مناهج، وللآراء مدالج، وللعويص مخارج، وخير القول أصدقه، وأفضل الطلب أنجحه. وأنا وإن كانت المحبّة أحضرتنا، والوفادة قربتنا، فليس من حضرك منا بأفضل مما غرب عنا.. بل لو فست كل رجل منهم وعلمت ما علمنا، لوجدت له في آبائه ديناً أنداداً وأكفاء، كلّهم الى الفضل منسوب، وبالشرف والسؤدد موصوف، وبالرأي السليم والأدب النافذ معروف يحمي حماه ويروي نداماه، ويذود أعداه. لا تخمد ناره، ولا يحترز منه جاره.

وان من يبل العرب أيها الملك يعرف فضلهم، فاصطنع العرب فإنهم الجبال الرواسي عزاً، والبحور الزواخر طيباً، والنجوم الزواهر شرفاً، والحصى بالصحارى عدداً، فإن تعرف فضلهم يعزوك، وإن تستصرخهم لا يخذلوك».

قال كسرى «حسبك.. أبلغت وأحسنت».

ثم قام عمرو بن معد يكرب فقال «انما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، فبلاغ المنطق الصواب، وملاك النجدة الارتياد. وعفو الرأي خير من استكراه الفكرة. وتوقيف الخبرة خير من اعتساف الحيرة. فاجتبذ طاعتنا بلفظك، واكتظم بادرتنا بحلمك وألن لنا كنفك يسلس لك قيادنا. يوقس صفاتنا قراع منافير من أراد لنا قضما، ولكن معنا حمانا من كل من رام لنا هضماً».

ثم قام عامر الطفيل ـ وكان قد سمع من أحبار اليهود ورهبان النصارى والمنجمين والكهان أن نبياً يوشك أن يولد في العرب، يجمع التنافر من القبائل العربية، ويخرجهم من الظلمات الى النور، ويرفعهم فوق هامات البشر جميعاً، فتحدث بمثل هذا تلميحاً.

فقال له كسرى «متى تكاهنت يا ابن الطفيل؟».

فأجابه عامر «لست بكاهن، ولكني بالرمح طاعن».

واستمر هذا الحوار الخطابي بين كسرى وبين الرجال العرب، وهو

معجب بقولهم حتى انتهوا فقال «قد فهمت ما نطقت به خطباؤكم، وتفنن فيه متكلموكم وقد قبلت فيما كان من منطقكم من صواب، وصفحت عما كان فيه من خلل. فانصرفوا الى ملككم فأحسنوا مؤازرته والزموا طاعته، فإن في ذلك صلاح العامة.

ومن الخطب التى تحفظها واعيه التاريخ العربي أيضاً، خطب عبد المطلب جد رسول الله ﷺ. ومن أشهرها خطبته في تهنئة سيف بن ذي يزن باليمن حيث قال «إن الله أحلك أيها الملك محلاً رفيعاً، صعباً منيعاً، سامخاً باذخاً، وانبتك منبتاً طابت أرومته، وعزّت جرثومته، وثبت أصله، وسبق فرعه في أكرم موطن وأطيب معدن، وأنت ـ أبيت اللعن ـ ملك العرب وربيعها الذى يخصب، وأنت رأس العرب الذى إليه تنقاد، وعمودها الذي عليه العماد، ومعقلها الذي تلجأ اليه العباد. سلفك خير سلف.. وأنت لنا منهم خير خلف. فلن يخمل ذكر من أنت سلفه، ولن يهلك من أنت خلفه. ونحن أيها الملك أهل حرم الله وسدنة بيته، أشخصنا اليك الذي أبهجنا لكشف الكرب الذي فدحنا، فنحن وفد التهنئة، لا وفد المرزئة».

«إن كيد الشيطان كان ضعيفا»(1)

ماذا يريد سلمان بآياته الشيطانية؟؟

فى الكلمه النمهيدية الى قدم بها العقاد لكتابه عن «ابليس» قال. إنَّ معرفة الانسان للشيطان كانت فاتحة خير.. لأنه لم يعرف السيطان إلاَّ بعد أن عرف الخير والشرّ، وعرف الفرق بين السرّ والضرر. فعرف أن السرّ لا يجوز وكان كل ما يعرفه منه أنه لا يسرّ ولا يوافق مآربه وسهواته، وعـرف أن مخالفه المآرب والسهوات لا يكون سرّاً على الدوام بل هى خير في كثير من الأحيان، ومن ىم عرف كيف يكبح مآربه وسهواته وهو راضٍ مطمئن لأنه يعلم أنه عامل للخير مستقيم على نهج الصلاح.

وقارن العقاد بين اسلوب الدين فى تعليم الأخـلاق، وأسلوب التلقين والتعليم، الذى سمّاه أسلوب المطالعة والدراسة وأنّ بين الأسلوبين فى أعماق النفس وفى ميادين العمل لبونا جد بعيد، لأن حدود الخير والسر فى أحدهما حيويه تمتزج بالسعور والوجدان وسمو الى تقديس الخيرات أو تنحـدر الى النفور من نجاسه السرور، وما الأسلوب الآخر - أسلوب التلقين والمطالعة - إلاَّ أسلوب أوراق وأدواق تنقسم فيه معاني الخير والسرّ فى الضمير والفكر كأنها أقسام في صفحات أو تصنيفات فى الودائع والمخزونات.

وأحسب أن صاحب «آيات السيطان» حينما طلع على الناس بكتابه، انما صنّف معانى السرّ جميعاً فى نفسه، حيلة جديدة من حيل السيطان فى سويه صورة الخير، ممثلة في الاسلام.

---

(1) سوره النساء، الآيه ٧٦

وكان من الطبيعي أن يلجأ تلميذ ابلبس إلى حدبث خرافة بتوسّل به في بث سموم الشرّ واللعنة إذ من الطبيعي أيضاً أن يواصل إبليس من خلال جنوده في الأرض محاربة ذلك الشوق العميق من أسواق النفس الإنسانية، إلى الإيمان الذي ينساق إلبه الانسان بباعث من فطرته. ويسوء ابليس واجناده في الأرض أن يغمر هذا السوق الإيماني أقطار العالم، ويسوؤه أكثر أن ينتشر الاسلام ـ بقوّته الذاتيّة ـ في أوربا، وأن يقبل على اعتناقه مفكرون وأدباء ونماذج رفيعة من نماذج القدوة بين الأوروبيين.. دفعت بالمفكر الفرنسي المسلم «رجاء جارودي» الى أن يقول: «إنّها قضيّة مستقبلنا، فضيّة مستقبل جميع البشر. الاقتراب الجديد من الاسلام كقوّة حيّة، ليس في ماضيه فحسب، وانما في كل ما يستطيع أن يسهم به اليوم في ابتكار المستقبل».

ويرى «جارودي» أن: القضيّة الرئيسية هي «النظرة» التي يحملها «الغرب» منذ أكثر من ألف سنة عن الاسلام. في البداية كان الخوف والخوف كما يقال ناصح سيّئ. هذه النظرة للاسلام يتاح لنا تحديدها وتقدير مدى ما تزال تفسد وتشوّه علينا حكمنا».

و«آيات الشيطان» سلمان رشدي، إذن جاءت في إطار تشويه الاسلام، وفق مخطط دعائي قديم، يرتكز على التضليل والتحريف وعكس الحقائق، يجدده إبليس وأجناده في الأرض، بعد ان وجد أوروبا تنجب مفكّرين وأدباء منصفين، بعضهم أعلن إسلامه، وبعضهم أعلن تقديره واحترامه للاسلام دون أن يدخل فيه، حتى لنقول مع اللورد «هدلي»: «إنني أعتقد أن هناك آلافاً من الرجال أيضاً، مسلمون قلباً، ولكن خوف الانتقاد والرغبة في الابتعاد الناشئ عن التغير، تآمرا على منعهم من إظهار معتقداتهم».

ويروي لنا الإمام الأكبر د. عبد الحليم محمود رحمه الله قصّة تفكير «الكونت هنري دي كاستري» في دراسة الاسلام، إذ كان من كبار الموظفين بالجزائر، رغم سنّه المبكرة، وكان يسير ممتطياً صهوة جواده، ويسير خلفه

ثلاثون من فرسان العرب الأقوياء، فخوراً بمركزه، وكان يملؤه الغرور، للمدح الذي يزجيه إليه الذين تحت امرته.. وفجأه وجدهم يقولون له، في سيء من الخشونة، وفي كثير من الاعتداد بالنفس: «**لقد حان موعد صلاة العصر**»...

ودون أن يستأذنوه في الوقوف، ترجّلوا واصطفوا للصلاة متجهين الى القبلة، ودوّت في أرجاء الصحراء كلمة الاسلام الخالدة: «**الله أكبر**»..

شعر «الكونت» في هذه اللحظة بكثير من الاكبار والاعجاب بهؤلاء الذين لا يبالون به، ذلك لأنهم اتجهوا الى الله وحده، بكل كيانهم، وبدأ يتساءل: **ما الاسلام**؟ أهو ذلك الدين الذي يصوّره أعداؤه في صورة بشعة تنفر منها النفس، ولا يطمئن إليها الوجدان؟!.. وبدأ يدرس الاسلام، ونغيّرت فكرته عنه، ورأى من واجبه أن يعلن ما اهتدى إليه، فكان كتاب «**الاسلام خواطر وسوانح**» الذي ترجمه المرحوم فتحي زغلول.. وفي هذا الكتاب تحدّث الكونت عن كثير من جوانب الاسلام ورسوله وتعاليمه، وتحدّث ـ الى جانب ذلك ـ عن آراء مواطنيه، خصوصاً القدماء منهم في صورة من السخرية، والتهكم، وهي الآراء التي تبناها سلمان في آياته الشيطانية اليوم، ومنها ما ذهبوا إليه من أن «صورة ماهوم كانت تصنع من أنفس الأحجار والمعادن بأحكم صنع وأدق اتقان» وغير ذلك من «حديث خرافة» حول دين يحارب الأوثان والأصنام. وفي ذلك يقول الكونت: «ولقد أطلنا القول في تلك الأضاليل، لأن تاريخ القسيس اسكندر دويون الذي تضمنه كتابه عام ١١٥٨ عن النبي عليه السلام، يتضمن الكثير من الأضاليل، التي تركت أثراً في الأذهان وصل الى أهل هذه الأيام»، الى أن ابتكر منها سلمان روايته في تشويه صورة الاسلام.

ويتجدّد السؤال: ما سرّ هذه الحملة الضالة التي تهزأ بالضمير، ولا يقرّها دين من الأديان؟

يقول الكونت: إنّها رغبة من يريد حفظ روح البغضاء في نفوس قومهم ضد الحق.

وقائمة المجنّدين لهذه الرغبة من فبل إبليس، قائمة لا تنتهي، ربّما كان أحدث مجند فيها هو «سلمان» وآياته الشيطانية، الذي يذكّرنا بكتاب للمستشرق «بريدو» الإنجليزي عام ١٧٣٣، والذي جعل عنوانه «حياة ذي البدع» ونستغفر الله تعالى مما جاء في آياته النسيطانية في القرن الثامن عشر، والتي يجدّدها صاحب الآبات التشيطانبة أواخر القرن العشرين. وسلاحهم ـ كما يقول الكونت المنصف ـ «أن يشبعوا خصمهم سبّاً وشتماً، وأن يحرفوا في النقل مهما استطاعوا».

ولكن صوتاً من أصوات الحق في لغات الغرب، ينطق على لسان **«كارلايل»** أحد كبار الأدباء الانجليز، قائلاً:

ـ «من العار أن يصغي أي انسان متديّن من أبناء هذا الجيل الى وهم القائلين: إنّ دين الاسلام كذب، وإن محمداً لم يكن على حق».

ويهتف صوت آخر من أصوات الحق ـ على لسان اللورد هيدلي الذي أعلن إسلامه:

ـ «ليس في وسع الانسان، في الحقيفة إلاّ أن بعتقد أن مدبجي وناسجي هذه الافتراءات، لم يتعلّموا، حتى ولا أول مبادئ دينهم، والا لما استطاعوا أن ينشروا في جميع أنحاء العالم تقارير معروف لديهم انها محض كذب واختلاق. إنّ تعاليم القرآن الكريم، فد نفذت ومورست في حياة محمد ـ عليه السلام ـ سواء في أيام تحمله الألم والاضطهاد، أو في زمن انتصاره ونجاحه ـ أظهر أشرف الصفات الخلقية التى لا بتسنى لمخلوق آخر اظهارها».

إنّ صوت الحق يعلو في أوربا، ويتزايد عدد المعتنقين للاسلام يوماً بعد يوم رغم ادعاءات المخطط الدعائي ضد الاسلام، وفى «**المجلة الاسلامية**» التى أسسها اللورد هيدلي، إجابة عن السؤال الذي يتردد دائماً: لماذا أسلم بعض الانجليز وغيرهم من الاوربيين؟.. «لأنهم كانوا يلتمسون عقيدة سهلة معقولة عملية في جوهرها، لأننا نقول معاشر الانجليز دائماً، بأننا أكثر أهل الأرض

نشيئاً بالعمل. عقيدة تكون ملائمه لأحوال الشعوب جميعاً وأعمالهم وعاداتهم، عقيده دينه صحيحه يقف المخلوق بها أمام الخالق دون وسيط».

فماذا يريد «سلمان» اليوم «بآياته الشيطانيه» إلاَّ أن يقول مع الشاعر:

وكنت فتى من جند إبليس فارتقى بي الحال حتى صار إبليس من جندي

فليفرح سلمان بمنصبه هذا في دوله إبليس، وما كان سحر الشيطان إلاَّ ضرباً من الخيال أو الخبال، على حد تعبير استاذنا العقاد رحمه الله، ذلك أنّ إبليس لا يستطيع أن يهزم ضمير الانسان، ومهما كان الشيطان قوّه للشرّ، فإنها قوّة لا سلطان لها على الضمير الانساني ما لم يستسلم لها بهواه أو بضعف منه عن مقاومه الاغراء، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿إنَّ عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾[2]
﴿إنَّ كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾[3]

---

(٢) سوره الاسراء، آيه ٦٥
(٣) سوره النساء، ايه ٧٦

الاعلام في القرآن الكريم(*)

في هذه الأيام، يطالعنا الأستاذ الدكتور محمد عبد القادر حاتم بسفر علمي قيّم عن «الاعلام في القرآن الكريم»: يؤكد فيه ابتداء أن مبادئ الاعلام السليم التي نحن في أشدّ الحاجة إليهـا الآن، سواء في الـدعوة الدينية أو الاجتماعية او السياسية تتضح لنا، في أجلى صورة وأوضـح بيان، في القرآن الكريم، وهي بعد تمثّل توجيهاً إلهياً وسنّة نبويّة تتصف بكل الكمال.

ولقد اقتضى المنهج العلمي أن يقسم د. حاتم كتابه إلى أجزاء خمسة يناقش في الجزء الأول: الاعـلام في القرآن الكـريم، حيث يتناول نـظرية الاعلام وثورة الاتصال بالجماهير، والرأي العام، والحياة على شبـه الجزيـرة العربية قبل نزول القرآن والاعلام قبـل الاسلام. ثم يتحـدّث عن الحالـة السياسية والاجتماعية في العالم قبل نزول القرآن الكريم.

أمّا الجزء الثاني فقد جعل عنوانه: «القرآن الكريم: الموضوع والوسيلة والغاية»: وفيه يتحدّث عن القرآن والاسلام وعالمية وشمول دعوة القرآن. لينتقل الى الجزء الثالث عن الرسول عليه الصلاة والسلام، ومـا ينبغي أن يتوفّر للداعي من صفات، استلهاماً لشخصية الرسول ورسـالته في القـرآن الكريم. ويخصص الجزء الرابع لدراسة «القرآن والاعلام» فيتحدث عن أهميّة الاعلام في الدعوة الى الاسلام ثم، عن أساليب الاعلام في القرآن الكريم.

أما الجزء الأخير، فقد خصّصه لدراسة «الانسان في القـرآن»، حيث

(*) جريدة الاهرام في ١٩٨٦/٩/٢٠.

يتحدّث عن عقل الانسان، وتنوّع أساليب مخاطبة القرآن للناس واستمرار الدعوة للدين ما استمرت الحياة، والمسئوليـة الاعلاميـه في القرآن الكـريم واستمرارها. ويتناول بالتفصيل تصوّره العلمى لجهاز الاعلام الاسلامى، وعلم المستقبل. ذلك أن المسئولية الاعلامية تأتي بتوجيه مباشر من الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ، في قوله تعالى: ﴿**يا أيّها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربّك، وإنْ لم تفعل فما بلغت رسالته**﴾[1].

وقد حملت أمته هذه المسئولية من بعده، ولها فيه أسوة حسنة، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، ولذلك يلزم على جهاز الاعلام الاسلامي أن ينشر أهداف دين الله، ثم يبيّن كيف وبأي أسلوب ينشرها وما أكثر الأساليب التي وضّحها المؤلف وجاءت في كتاب الله الكريم. عليه أن يحصر هذه الأهداف في أمور ثلاثة ينطوي فيها كل ما جاء في الكتاب والسنّة من الأوامر والنواهي وما يتصل بها من الصالحات الباقيات هي:

- **إصلاح حال العبد فيما بينه وبين ربه.**
- **إصلاح حال العبد فيما بينه وبين نفسه.**
- **إصلاح حال المجتمع الاسلامي، وواجب كل فرد نحو هذا المجتمع الذي يعيش فيه.**

ونحن على اتفاق تام مع المؤلف: في أن جهاز الاعلام الاسلامي عليه أنْ يتبع بعض الأساليب الجديدة للدعوة، تأسيساً على أن أساليب الدعـوة تتكيّف بحال العصر، من أساليب الاعلام، وقد صارت الآن طرق الاعلام متعدّدة النواحى فمنها الكتب المنشورة، والصحف السيارة، والأقوال المذاعة مرئياً وسمعياً، ومنها اللقاء بالجماهير والآحاد.

ويذهب د. حاتم: إلى أنّ الواجب علينا اليوم بحتم أنْ نضع تخطيطاً

(١) سورة المائده آيه ٦٧

مستقبليّاً للاعلام الاسلامي، مستفيدين من الاعلام القرآني والسنّة المحمدية، وما فصله التراث الاسلامي من وسائل وأساليب تفوق كل ما جاء في نظريات الاعلام الحديثة، وهناك مبادئ لهذا التخـطيط المستقبلي: يلزم أولاً إعـداد الدعاة وتدريبهم على مبادئ الاعلام القرآني ثم تدريس نظريات الاعـلام الحديثة، ووسائل الاتصال الجماهيرية من مرئية ومسموعة، مع دراسة مستقبلية لهذه الوسائل المختلفة، ومن بينها الأقمار الصناعية التي ستقوم بإرسال البرامج مباشرة من أجهزة البثّ لتستقبلها أجهزة التليفزيون في منازلنا دون أن يمرّ هذا الارسال بمحطة أرضية.

توظيف التراث الاسلامي في الأدب(*)

التراث العربي الاسلامي هو المنارة التي تضيء للأجيال مستقبلها، وهو الدرع والملاذ الذي يحمي هويّتنا الاسلامية في مواجهة الثقافات المعادية. هذا التراث هو الذي أضاء أوربا بالفكر والعلوم وكان الأساس الذي شيّد الغرب عليه حضارته التي يتباهى بها اليوم علينا. كيف نبعث هذا التراث ونستثمره في إشعال نهضة فكرية وثقافية ذات ملامح عربية وإسلامية أصيلة؟

حدّد الدكتور عز الدين اسماعيل في دراسة له عن «توظيف التراث في المسرح» عدّة مستويات لتوظيف التراث منها: إستعادة التراث مع بعض الاضافة. واستعادة التراث مع تفجيره، والاستلهام الموضوعي للتراث عن بعد، والاستلهام الجمالي للتراث شكلاً وموضوعاً والمواجهة مع التراث.

وبشكل عام يحتاج توظيف التراث على أي مستوى من هذه المستويات أن يكون الكاتب ذا رؤية خاصة، ولديه من الجرأة قدر يسمح له بعدم الوقوف عند ظاهر التراث، ومن الشجاعة قدر يسمح له بالتعامل مع التراث دون خوف.

..وتشويه الحاضر أيضاً

فهناك نظرتان متناقضتان للتراث: الأولى، كما يقول الدكتور علي الراعي: تنادي بالاحتفاظ بالتراث بقده وقديده وهي نظرة جامدة لأنها تضفي

(*) جريدة المسلمون ١٧ ـ ٢٣ ذو العقدة ١٤٠٥ هـ

القداسة على الماضي، ونجعل من المتعذر تقديم التراث بطريقة يفهمها المواطن المعاصر.

والثانية: وهي على النقيض تدعو إلى فحص التراث واستخراج القيم الحية منه. أي التي لا يزال لها رصيد في الحاضر وبالتالي فهي مقبولة عند المواطن المعاصر. ويمكن استخدام التراث هنا مع استبعاد الأجزاء الميتة منه

وتتم عملية استلهام التراث بطريقة ممتازة في ميدان المسرح في المغرب. فكانت «همزات بديع الزمان» للطيب الصديقي. وهذا لا يعد مسخاً ولا تشويهاً إذ أن هؤلاء الكتاب اختاروا النقط المضيئة والصاعدة التي كانت الأمة فيها في أوج تقدمها. لكن هناك مسرحيات شوّهت التراث جداً والتشويه هنا لا ينسحب على التراث فحسب بل امتد إلى تشويه الحاضر أيضاً

وبروز حادثة أو اثنتين أو أكثر لتشويه التراث الاسلامي عند استدعائه في العمل الأدبي لا يجعلنا نستهين بما حدث أو نقف مكتوفي الأيدي حياله ونقول إنّها مجرّد حادثة واحدة فقط لا تستطيع أن تؤثر في جبل التراث الشامخ الذي يتكئ عليه المسلمون، ويسندون ظهورهم الفكرية والعقلية إليه.

وهنا لا بدَّ من إحياء التراث ـ حسبما يقول الدكتور رمضان عبد التواب عميد كليّة الآداب بجامعة عين شمس بمصر ـ كما تركه المؤلفون القدامى لأن هذا من حقّهم علينا ثم يمكن استلهام هذا التراث في إبداع نصوص للمسرح أو للسينما أو حتى لطلاب المدارس والجامعات بلغة عصرية ملائمة لكل سن.

ولكن لا يجوز بأي حال من الأحوال مسخ هذا التراث الاسلامي بصورة تنافي الحقيقة لأن في هذا إهداراً لقيَمنا الاسلامية ومكتسباتنا التاريخية وخلفيّاتنا الحضارية التى يعتد بها المسلمون.

وهذا المسخ والتشويه للشخصيات وللتاريخ يجعلنا نطرح هذا السؤال: إلى أيّ مدى يجوز للفنان أن يخرج عن إطار التاريخ؟

و.. نراثنا الاسلامي كما ترى الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) يستوعب كل ذخائر مخطوطاته من اللغة والأدب والتراجم والتاريخ وفي علوم الطبيعيات والرياضيات كالطب والكيمياء والصيدلة والفلك والرياضة والجغرافيا والملاحة والطبيعة. بل يستوعب كذلك ما حملت الشعوب التي أسلمت في الفتوح الكبرى وتعرّبت من ميراث ماضيها الذي صار من ماضي الأمة.

يقول الدكتور عبد العزيز شرف: أولاً لا بدَّ أن نفرق بين كتابة التاريخ واستلهام التاريخ والتفرقة أساسية وإن كانت لا تعطي حقوقاً للتشويه أو المسخ فكتابة التاريخ تقتضي الموضوعية الخالصة التي نجعل منها فى نهاية الأمر مصدراً موثوقاً به لمن يستلهم التاريخ.

والتراث بصفة عامة من المواد الخصبة التي يجب استلهامها في العصر الحديث. وهناك رأيان: رأي يقول لا بدَّ من تقديم هذه المخطوطات كما هى وبما فيها من مواد قد تختلف فيها آراء القارئين في العصر الحديث.

والرأي الآخر كان يذهب في اتجاه ما يسمّى بتهذيب التراث فظهر مثلاً «تهذيب الأغاني» ولكن هذا الاتجاه لم يلق قبولاً لدى قادة الفكر الذين كانوا ينظرون إلى هذا التراث على أنه وثائق اجتماعية وفكرية يجب ألا يحذف منها شيء وأن تقدّم من خلالها التحقيق العلمي الذي يردّها إلى مصادرها فقط.

ثم في ظهور حضارة الاذاعة والتلفزيون كان لا بدَّ لهذه الحضارة الجديدة أن ترث الحضارات الاتصالية السابقة لتسهم في تعميق مفهوم الأصالة.

ومن هنا كان على هذه الأجهزة أن تقوم بعملية (ترجمة) للتراث العربي والاسلامي. ويشترط فيمن يستلهم التراث ويقدّمه من خلال عمل فنى معاصر الأمانة والدقّة. كما يجب عليه أن يكون مستوعباً وفاهماً لمعطيات التراث وملابساته.

الاعلام القرآني ورسالة الأمة العربية(*)

قبيل صدور هذا العدد بأيام قلائل قرأت كتابا قيما تحت اسم «الاعلام في القرآن الكريم» تأليف واحد من أعلام العلماء في الاعلام والرأي العام، ورائد دراسات المستقبل في لغة الضاد: الدكتور محمد عبد القادر حاتم، تحمل هذه الهدية كتابه القيم عن «الاعلام في القرآن الكريم».

نرى من الواجب أن نستهلّ هذا الحديث، بحقيقة استهل بها الكاتب كتابه، اتّضحت له بعد ممارسة علميّة وعمليّة للاعلام استمرّت ثلاثين عاماً، فحوى هذه الحقيقة الناصعة أن كل ما تقول اليوم في الاعلام، لا جديد فيه، ويستطيع كل من يقرأ القرآن الكريم، ويتدبر الانتشار الواسع والسريع للاسلام الذي لا مثيل له في تاريخ الرسالات أن يتبين بوضوح وجلاء أن الدعوة الى الاسلام والوسائل والأساليب التي اتبعت في هذه الدعوة بتوجيه من القرآن الكريم كانت الأساس المكين لانتشار الاسلام وأساس إيمان فئات الملايين من البشرية الأمر الذي يدعونا الى الاعتراف بأن هذه الأساليب والوسائل تمثّل أفضل وأكثر وسائل الاعلام وأساليبه فاعلية وتأثيراً في نفوس الأفراد والجماعات والشعوب، وأن المثل الأعلى لأي داعية أو دعوة يوجد كاملاً في القرآن الكريم.

وإذا كانت نظريّات الاعلام الحديثة تدور حول عناصر يمكن حصرها بالمبادئ التالية:

(*) جريدة الرأي العام المصرية العدد ٦٦

□ وجود عقيدة أو فكر يراد نشرها.

□ توافر أساليب ووسائل اعلامية مقروءة ومسموعة ومرئيّة لتوصيلها للناس.

□ معرفة مدى استجابة مستقبل الرسالة لها.

□ قياس وتحديد مدى ما يظهر من سلوكه متفقاً مع هذه الرسالة، وهو ما يعبّر عنه برد الفعل.

□ مراجعة الرسالة نفسها على ضوء ما قام به الداعية أو حقيقة الوسائل.. أو الأساليب لمعالجة رد الفعل إذا لم يتفق مع مضمون الرسالة..

فإننا نقول ـ مع د. حاتم ـ عندما ننتقل الى الاعلام في القرآن، ان مثلنا يكون كمثل من سما بفكره وقلبه من الأرض الى السماء.

ذلك ان الرسالة هنا هي رسالة الله سبحانه وتعالى.. والداعية هو الرسول النبي محمد عليه الصلاة والسلام، الانسان الكامل والوسائل والأساليب أنزلت له بوحي من السماء وهي تتصف بذلك مع كمالها وسموّها بسماتها المؤثرة الى الانسانية تتفق مع العقل وطبيعة الانسان، والمستقبل في القرآن الكريم هو الانسان خليفة الله في أرضه.

ونتوقف هنا عند دراسة د. حاتم القيمة للرأي العام عند ظهور الاسلام، حيث يبين لنا كيف تناولت آيات الكتاب المحكم شرح أساليب الكفار والمنافقين، وكيف تحدث الاعلام في القرآن عن كل نوع من أنواع الرأي العام، عن المشركين الذين يعبدون الأصنام، وعن أهل الكتاب الموجودين في هذا العهد، وعن غير هؤلاء ممن كان في مجتمعهم.

ثم نتوقف عند فصول الكتاب التي ترسم ـ علمياً ـ أسس الاعلام الاسلامي، على نحو مسبوق، وندلف منها الى تصوّر رائد للدراسات المستقبلية العربية، لمستقبل الاعلام الاسلامى، والذي تعد صحيفتك هذه يا عزيزي القارئ: «الرأي العام» من أهم وسائله الصحفية في العصر الحديث، فنجد أن

الدكتور حاتم يؤكد لنا ان الاعلام المعاصر مقصر في حق الدعوة الاسلامية، وان وسائل الاتصال الحديثة قد استخدمت بمهارة لدعاوى أقلّ شأناً من الدين بنجاح وأحدثت وتحدث تأثيراً قوياً لتغير القيم والاتجاهات عند الناس لصالح المذاهب السياسية والاجتماعية، ولكن استخدامها في الدعوة الى الدين ما زال مشوباً بالقصور والعجز مع ان الدين هو مرفأ النجاة الذي ترجو الانسانية الوصول اليه لانقاذها من الفوضى الخلقية والانهيار الاجتماعي بسبب كثير من الآفات والعادات السيئة التي تعصف بالشباب وغيرهم، لذلك يكون من الخير أن نبين ـ مع د. حاتم ـ من منبر «الرأي العام» بعض النقاط التي يمكن أن تكون معالم على الطريق لتحقيق إعلام إسلامي أفضل، ومنها:

◽ ضرورة اجراء تقييم شامل لكل أوضاع أجهزة الاعلام الاسلامية لمعرفة الايجابيات فنستثمرها ونعرف السلبيات فنتجنبها.

◽ الحاجة الى إعلام إسلامي يقوم على أساليب الرأي العام التي جاءت في القرآن الكريم، لخدمة القضايا والمصالح الاسلامية.

◽ إعداد شامل للدعاة من الناحية الثقافية، ودراسة الاعلام في القرآن الكريم، ومعرفة أساليب وأنواع الاعلام في العالم المعاصر، فلا يكفي أن نقول إن الاسلام صالح لكل زمان ومكان، بل يجب أن نمارس هذا عملياً وفعلياً.

◽ جعل المسجد منارة اسلامية، مع إعداد الائمة إعداداً إعلامياً إسلامياً.

◽ لو اتبعت برامج الاذاعة والتليفزيون الأسلوب الإعلامى كما جاء في القرآن الكريم فإنها ستجد الاقبال الجيّد، فإن البرامج المشوقة الجذابة والعرض الذي يتفق مع النظرية الاعلامية سيساعد على انتشار هذه البرامج التي تبث قيم الاسلام ومبادئه السابقة.

◽ إنّ ربط الاعلام الاسلامى بالقضايا الجماهيرية الراهنة التي تهم المسلمين أمر حيوي لنجاح هذا الاعلام.

□ إنّ الاعلام الاسلامي مطالب بشرح العقيدة والشريعة والأخلاق الاسلامية لجميع الدول الاسلامية سواء لا تنطق العربيه أو تنطق بها، كما هو مطالب بشرح مبادئ الاسلام بأسلوب مفهوم من جانب الناطقين بغير العربية.

□ إنّ الاسلام لديه الحلول لكثير من مشاكل اليوم سواء المشاكل الاقتصادية أو الاجتماعية فواجب وسائل الاعلام ورجاله أن يتصدوا لطرح الحلول.

□ يلزم عمل تخطيط اسلامى لدوائر عالمية لشرح الاسلام بأسلوب مبسّط يتّفق مع كل مجتمع.

□ إنتاج أفلام سينمائية وأشرطة فيديو تخدم الدعوة الاسلامية بكل اللغات الحيّة وتوفيرها لجماهير المسلمين بأثمان في متناولهم جميعاً.

□ تخصيص مساحات أكبر في برامج الاذاعة والتلفزيون للمادة الدينيه المفسرة تفسيراً علمياً وخاصة ما يتّصل منها بالسلوكيات والأخلاق التى تهم كل انسان لتبين الخطأ والصواب فيما يسلك أو يعتقد.

وبين رسالة الماضي ورسالة الحاضر، نقول مع د. حاتم، إن طاقة النور التي انطلقت من النفس العربية قبل أربعة عشر قرناً لتحقق ذاتها وامكاناتها وتؤدي رسالة، لم تفقد حيويتها وروحها، وأن الأمة العربية التي بعثت لتسود العالم وحدها للحق والعدل والسلام، لا بدَّ أن تبعث من جديد في القرن الخامس عشر الهجري، في العصر الذي اختصرت فيه الاختراعات الحديثة المسافات وعمّت الثقافات، وزوّدت ترابط العالم بعضه ببعض، وأن تبعث برسالة مستمدة من حقيقة وجودها ومن كونها حملت رسالة في الماضي وستحمل رسالة في المستقبل.

عبد المنعم خلاف.. والعقل المؤمن(*)

يذهب علماء الأخلاق إلى أنّ أهل الفكر طبقة لا تسيطر على وسائل الانتاج وانما تشتغل بالعمل العقلي وخدمة القيم الروحية، ولذلك أدّت الأخلاق دورها في جميع العصور والمجتمعات باعتبارها نظاماً أساسياً لتنظيم السلوك الانساني، ويوضح «لوبوميرد راماليف» أستاذ علم الأخلاق بجامعة صوفيا، كيف أدّت الأخلاق دورها في مجالات ثلاثة: مجال الفرد والأسرة، ومجال البناء العلوي في المجتمع، حيث يتولى القانون والوعي السياسي تنظيم العلاقات بين الناس في المجتمع، والمجال الثالث هو مجال الظواهر الانتاجية أو الظواهر المتصلة بالعمل، ثم يوضح المسئوليات والواجبات السياسية والأخلاقية لأهل الفكر، بمثل يضربه لأهل الفكر من رجال العلم، العلم النظري والتطبيقي بطبيعة الحال، ومجالات هذا العلم هي الفيزياء والكيمياء والتكنولوجيا وما الى ذلك، فيقول: إنّ العلم قوّة انتاجية مباشرة، ولكن مسئولية العالم الأدبية عمّا يمكن أن يترتب من نتائج على اكتشافاته العلمية وتطبيقها هي الأساس، ومن أبلغ الأمثلة على ذلك مشكلة الطاقة الذرية والأزمات البيئية، وهذه المشكلات لا يمكن حلّها إلاّ بطريقة جماعية لا فرديّة، وذلك بتضافر جميع الجهود القوميّة والدولية.

وفي هذه الأيام نحتفل بالعيد التاسع والسبعين لواحد من رواد الفكر عمره، وفي حياته وفكره صورة

حيّة لمسئوليات أهل الفكر تجاه قضايا عصرهم ومجتمعهم، ولا سيما من حيث الفكر الديني، وانعاش التوجه العروبي في مصر منذ الثلانينات.

ولقد انتهى ابنه المستشار هاني خلاف من تأليف كتاب عنه يقدّم فيه صوراً ومواقف من فكر وجهاد عبد المنعم خلاف، تلقي الضوء على بعض الحقائق والأعمال والصور والمراحل التي ترتبط بفكره وحياته، وذلك ان الأستاذ عبد المنعم خلاف منذ ثلاثينات هذا القرن قد أثرى حياتنا الاسلامية العربية بمعالجته الدقيقة لكثير من المسائل الإيمانية والإنسانية والوطنية، قدّمها بأسلوبه العربي البليغ الذي تجتمع فيه شاعرية الفنّان ودقّة العالم وعمق الفيلسوف كمفكر اسلامي - أسهم منذ هذا الوقت المبكر في ارساء بعض المفاهيم الجديدة والرؤى المتميزة للعقل المؤمن استطاعت بها الأجيال اللاحقة مواجهة مغالطات الفكر الالحادي وتحدّياته الصادرة عن الفتنة بالعلم السطحي، وكان لشروحه الجديدة التي تجلّي عظمة القدوة النبوية المحمدية الشريفة وحكمة التشريع الاسلامي اثرها في تعميق الفكر الاجتماعي العربي، ولذلك حرص منذ كتاباته المبكرة على دعوة الناس الى فهم الدين وأخذه مأخذ العقل والابتعاد فيه وبه عن التهويمات والشطحات والعصبيات.

وكمفكر عربي - يعد أحد المنظرين لفكرة القومية العربية، منذ الثلاثينات.

ثم كانت متابعاته الميدانية لقضايا العرب والعروبة حين انتقل إلى العمل بالجامعة العربية عقب تأسيسها فرصة كبرى خلّف فيها رصيداً مذكوراً.

ولد الأستاذ عبد المنعم خلاف في ٢٧ ابريل سنة ١٩٠٧ - مدّ الله في عمره - بقرية ميت حبيش البحرية مركز طنطا، وكان والده فضيلة الشيخ محمد خلاف من كبار علماء الأزهر الشريف، وحرص على تنشئة أبنائه تنشئة دينية يحفظون فيها القرآن الكريم قولاً وسلوكاً.

وكانت دراسته في دار العلوم تجمع بين الأدب العربي والفقه الاسلامي وتاريخ الحضارات، أحاطه اساتذته بالرعاية والتشجيع، وكان من بينهم، علي الجارم، محمد رفعت، أحمد حسن الزيّات.. وغيرهم من كبار الأدباء والعلماء، وكان من بين زملائه الدكتور محمد مهدي علام، ود. عبد السلام هارون، ود. أحمد الحوفي، وبدأ ينشر مقالاته وبحوثه في الصحف والدوريات منذ بداية الثلاثينات، ولم يكن عمره قد تجاوز بعد الخامسة والعشرين، عندما نشر له المرحوم الاستاذ أحمد حسن الزيات في مجلة (الرسالة) مقاله الأول عام ١٩٣١ بعنوان «الحياة الصادقة»، وكانت له سلسلة شهيرة من المقالات في «الرسالة».. تحت عنوان «نحو أساس روحى للحضارة المادية» وأصبحت هذه السلسلة نواة لبعض كتبه التي أصدرها بعد ذلك. وشارك في بعض المساجلات الأدبية مع بعض عمالقة الفكر حول قضية «الفصحى والعامية» و«قضية العروبة في مصر».

وعندما سافر الى العراق عام ١٩٣٦ كان اسمه قد سبقه مع إعداد الرسالة، فاحتفى به قراؤه وتلاميذه، ونشرت له صحيفتا الأخبار العراقية والفيض عدداً من المقالات عن العروبة والتاريخ الاسلامي، كما نشرت له أيضاً مجلة الآمال اللبنانية عدداً من الفصول والدراسات. وعقب عودته عام ١٩٣٩، استمر في عطائه الفكري بمجلة الرسالة ومجلات: الثقافة، الشبان المسلمين، الجديد، الصرخة، الهلال، كما نشرت له صحف الأهرام ـ المؤيد ـ المصري، طوال الأربعينات.

وبعد قيام ثورة ١٩٥٢، واصل عطاءه الفكري في صحيفة الجمهورية وسلسلة اخترنا لك، التي نشر فيها بحثاً عن القومية العربية والاستعمار، الى جانب كتاباته في مجلة الأزهر في أواخر الستينات بعد أن تولاّها الاستاذ الزيات، كما نشرت له بحوث في دائرة المعارف الاسلامية التي أشرف على اصدارها د. عبد الحميد يونس، والاستاذ ابراهيم زكي خورشيد.

وقد أضاف الاستاذ خلاف الى ذلك رصيداً ثرياً ومنتظماً بعد عام ١٩٥٨

في أحاديثه الاذاعية الدينية والقومية التى عددها حوالى مائة وخمسة أحاديث حول تاريخ الحضارة الاسلامية ودور القرآن الكريم في بنائها، وبيان أوجه العظمة في سيرة الرسول الكريم وأخلاقه وصفاته، وأصول التربية الأسرية في الاسلام ومواقف الاسلام من قضايا حقوق الانسان والمرأة والشباب والعمل والانتاج والتسامح الديني والشورى ونظرة الاسلام الى العلم والعلماء.

الدولة الاسلامية على عهد الرسول(*)

«نشأة الدولة الاسلامية على عهد رسول الله ﷺ: دراسة في وثائق العهد النبوي» كتاب المفكّر السوداني الدكتور عون الشريف قاسم؛ صدر مع مطلع القرن الخامس عشر لهجرة سيد المرسلين ورسول رب العالمين؛ يؤكّد فيه مؤلفه أن قيام الدولة الاسلامية في المدينة المنوّرة، وامتداد نفوذها بالتدريج الى معظم أجزاء شبه جزيرة العرب في حياة الرسول ﷺ؛ كان ثمرة مجهودات كبيرة: حربية وسياسية وتشريعية. وكانت حصيلة النشاط السياسي والدبلوماسي الذي اضطلع به النبي عليه السلام في هذا السبيل، مجموعة كبيرة من الرسائل والصكوك والمعاهدات، تحدد العلاقات بين السلطة المركزية في المدينة، وبين قبائل العرب في بقيّة شبه جزيرة العرب. وقد اختلفت طبيعة هذه الوثائق وأهدافها، باختلاف الظروف والملابسات التي تحكّمت في كتابتها.

وقد كتب الرسول عليه الصلاة والسلام معظم هذه الوثائق حفاً، وكان كثير منها محفوظاً في خزائن الأسر المختلفة قروناً طويلة بعد وفاته عليه السلام. وقد لفتت هذه الوثائق انظار الباحثين منذ القرن الأول للهجرة، باعتبارها آثارا للرسول الكريم، الى جانب قيمتها التشريعية والتاريخية. وقد اعتبرها الرواة ضرباً من الحديث النبوي، ولذلك أرفقوا ما رووه عنها بسلسلة من الأسانيد كثيراً ما تنتهي بالأسرة التي تحتفظ بالوثيقة المعنية.

(*) الأهرام في ١٩٨١/٧/٢٤

وقد ميّز المؤلف بين مرحلتين في هذه النصوص، مرحلة أوليّة كان العنصر السياسي فيها هو الغالب، إذ توجّهت جهود الرسول ﷺ فيها الى هزيمة قريش بكسب القبائل المختلفة الى جانبه ثم مرحلة متأخرة تأكد فيها العنصر الديني، لأن النبي عليه السلام كان في هذه الفترة في موقف يمكنه من تحقيق هدفه الأول في الدعوة الى الله.

الاسلام والابداع الفني(*)

ما أن ينتهى القارئ من الرحلة الممعة بين صفحات كتاب القيم الجمالية في العمارة الاسلامية التي قاربت الأربعمائة حتى يخرج بانطباع عام، يتلّخص في أن المؤلف إنّما اتخذ من العمارة الاسلامية مدخلاً لفتح باب الاجتهاد في دراسة الابداع الفنيّ الاسلامي، في كل أنواع الفنون، وهو لذلك يصرّح منذ الصفحات الأولى أنه لم يرد أن يجيء كتابه بحثاً أكاديمياً معمارياً، وإنما أراد أن يشرك القارئ العربي معه في الاحساس بمواطن الجمال الخصبة التي خلفها أسلافنا المسلمون في آثارهم المعمارية. وأحب أن يشرك هذا القارئ معه في ارتشاف هذه المتعة النادرة التى تذوقها بين حنايا عمائرنا المنتشرة عبر عالمنا الاسلامى الكبير، من سمرقند وبخارى عبر إيران والعراق والشام وتركيا ومصر إلى تونس والأندلس.

وهذا الكتاب يضيف إلى (الموسوعة الفنية) التى قدّمها د. ثروت عكاشة إلى المكتبة العربية بعداً جديداً هو البعد الاسلامي. بعد أن تناول الفن المصري القديم، والعراقي القديم. والاغريقى، وتاريخ الفن، إلى ما قدّمه عن التصوير الاسلامى من دراسات، يجعلنا نذهب إلى أن الدكتور عكاشة يمثّل فى فكرنا العربي المعاصر إتّجاهاً فنياً يتميز بالتمثل الحضاري. والبحث عن القيم الجمالية في شتى مظاهر الابداع الفني، تأسيساً على أن الفن يمثّل قوّة خلاقة يستطيع بها الانسان أن يبني عالماً بأكمله.. سواء عن طريق السيمفونيات،

(*) الأهرام فى ١٩٨٢/١/٣١.

والمقطوعات الموسيقية، والملاحم الشعرية، وغيرها من الابداعات اللامادية، أو الابداعات الماديه مثل المساجد والمآذن والاهرامات، والمسلات. ولعلّ الدكتور عكاشة في نظرته التكاملية للفنون إنما يريد أن ينقب عن (القدرة الابداعية) التي تكمن وراء الابداعات الفنية جميعاً، وهنا نغدو (القدرة الابداعية) هي القاسم المشترك الأعظم بين جميع الفنون من أدب وتصوير ونحت وعمارة وغيرها. والرؤيا الفنية عند الدكتور ثروت عكاشة، رؤيا إستطيقية، تضعنا أمام «العمل» الفني باعتباره (الموضوع الجمالي). وهو لذلك يتّفق مع علماء الجمال وفلاسفة الفن الذين يرفضون فصل الصورة عن المادة، كما فعل أرسطو وكانط مثلاً، وربما كان في رؤياه أقرب إلى رؤيا (سوريو) التي لا ترى فعل التأمل عبارة عن نشاط ذاتي يخلع فيه المتأمل صورة على الموضوع الذي يتأمله، بل تراه عملية إدراك تحيط فيها الذات المتأملة علماً بصورة الموضوع المركبة المستقلة.

ولذلك، إن المهندس حسن فتحي قد أكد في تقديمه لكتاب د. ثروت عكاشة، أنه إذا ما غاب عن الناقد أحد عناصر الشكل أو المضمون، فقد اعتور نقده نقص يعيب نظرته. ويقول: (وإذا كان نقاد الغرب قد وقفوا عند حد الشكل في نقدهم للاثار الفنية لقصور عن النفاذ إلى ما بعد الشكل المنظور من الرمز الذي يكشف قوانين الابداع الاسلامى في البيئة الشرقية، والتي تختلف دون شك عن قوانين الابداع في البيئات غير الاسلامية، فقد كان للدكتور ثروت عكاشة ميزة إنتمائه إلى نفس البيئة التي أبدعت فوق أرضها تلك المنجزات الفذة).

الدعوة.. والدعاة
أسباب التخلف ومنهج التطبيق(*)

«الدعوة والدعاة ـ أسباب التخلف ومنهج التطبيق» من أهم الكتب في موضوعه، كتبه عالم غيور جريء.. يوضح الطريق الصحيح للدعوة الاسلامية.. ويضع الأسس القديمة للدعاة، يبين أصول نشر الدعوة ـ كما جاءت في كتاب الله وسنة رسوله ـ ويشرح خطوات الدعاة ـ كما قام بها الأنبياء ـ مع المقارنة بين الماضي والحاضر ويرشد الى قيام الوحدة الاسلامية.. ودور الأزهر ورجاله.. ويكشف عن عوامل التخلف والضعف وكيف يكون الخلاص منها.

والمؤلف المرحوم الشيخ علي سرور الزنكلوني.. تلميذ الإمام محمد عبده.. ومن أئمة النهضة الحديثة، وكان من قوّاد الحركة الاسلامية، يقول الدكتور محمد البهي في تقديمه للكتاب: انه يعيش بتفكيره اليوم بيننا، وفي إطار مشاكلنا الاسلامية كما عاش بالأمس، ويعيش غداً كذلك، لأنه ارتبط بالقرآن وحده. في الإيمان به، وفي النصح بالعمل بمبادئه. وفي دفع الانحراف عنها، وتوضيح أسباب الانحراف.

وتتضمن فصول هذا الكتاب، الحاجة الى هداية الدين ـ وظيفة الرسالة ومهمّة كتاب الله ـ طريق السعادة ـ بعثة الرسول عليه السلام وحياته ـ موقف القرآن امام العالم ـ وجوه الاعجاز ـ الكلام على صورة القرآن وبعض ما يعتمد عليه العقل في إدراك كمالها وإعجازها ـ تكوين الوحدات في الأمم

(*) جريدة الأهرام فى ١٩٨٣/٦/٢٦

والشعوب ـ الدين ضروري للانسان ـ تكوين الأنبياء للوحدة الدينية ـ النظر في وجوه الاعجاز من جانب المعنى ـ موضوع القرآن ـ أركان القرآن ـ نسم التوحيد ـ البعث وحديث اليوم الآخر ـ التكاليف الشرعية ـ علوم القرآن المعنوية ـ أسباب تخلف العلماء ـ النار وتفسير القرآن ـ القرآن والمسلمون ـ حياة الاسلام اليوم ـ أسباب التخلف للاسلام ولعلمائه ـ الطعن على الاسلام ـ الأزهر في عهده الأخير ـ سر بقاء الأزهر ـ مثال من الشبه التي يرددها خصوم القرآن ـ ما ينبغي للمسلم إذا جادل.

وفي الكتاب ينصح المؤلف الدعاة الى الله بألاَّ يراعوا في دعوتهم إلاَّ الخالق سبحانه وتعالى؛ فأهل القرآن أحقّ بخشية الله من كل داع، لأنهم يناجون الله بكتابه، ويخاطبون الناس بلسان رسوله، فيجب أن يكون تفسير المعنى واللفظ سارياً في أرواحهم، فيفيض هذا التأثير على سمعتهم وسيرتهم. ويظهر على ألسنتهم، فينبعث منها الصوت الممثل لحلاوة اللفظ، وقوة المعنى، وهذا هو الشأن في كل الأنبياء والمصلحين.

التفكير فريضة إسلامية(*)

بعد عشرين عاماً من رحيل المفكر الكبير عبّاس محمود العقاد، تتجدّد الذكرى، لتؤكد لنا أن الفكر الأصيل لا يمكن أن يموت. ولقد كـان العقاد بالفعل في المنهج والأسلوب يمثل عبقرية الفكـر الاسلامي في الفن والأدب والابداع والنقد والفلسفة، وهو الأمر الذي يجعلنا بعد عشرين عاماً نقول إنّ الفكر الاسلامي المعاصر فكر مستقلّ له أسسه الراسخـة، التي تجعل أهـل الفكر في مشرق الأرض ومغربها، يفيدون منه، وينهلون من مورده العظيم.

وأذكر في هذه الذكرى كتابه العظيم «التفكير: فريضة إسلامية»، وهذا الكتاب في تقديري من أعظم وأعمق ما كتب العقاد، بل إن هذا الكتاب يمثّل مفتاح شخصيته الفكرية، ذلك أنه قدم على نحو فريد رؤية إسلامية للفن وللفكر وللحياة قل ان نجد لها نظيراً عند غيره من المفكرين، وهـو الأمر الذي وجدنا آثاره واضحة في فكر المفكر المسلم جارودي الذي كنت أتمنى أن يتم بينه وبين العقاد حوار فكري بعد أن أشهر جارودي اسلامه، ذلك أن العقليّة التي عرض العقـاد من خلالهـا فكره الاسـلامي هي عقيدة القـرن العشرين وما تلاه من قرون. فلم يكن العقاد يكتب محلّلاً الماضي فحسب أو الحاضر فحسب وانما كان يكتب مستشرفاً آفاق المستقبل، كذلك.

إنَّ الاتجاهات الفكرية والفنيّة المعاصرة، والتى تسعى نحـو التأصيـل والرجوع إلى منابع الفكر الاسلامي تدين للعقاد ولفكره ولرؤياه الابداعية،

(*) جريدة الاهرام فى ١٦/٣/١٩٨٤

ولا أبالغ حين أقول إننا في دراستنا المعاصرة لأحدث علوم الاعلام، وأعني الاعلام الاسلامى انما خرجنا جميعاً من معطف العقاد، الذى يرجع إليه فضل الريادة في كل تجديد ينبع من الأصالة، وهو الأمر الذي يلخص سبرة العقاد الفكرية والتي تجعلنا نقول اليوم وكل يوم إنّه يمثل عبقرية الفكر الاسلامي.

الشخصية الاسلامية(*)

(الشخصية الاسلامية) موضوع رحب المجال، يمكن أن يتوافر عليه أصحاب الدراسات الفلسفية والتاريخية والاجتماعية، وخبراء النظريات والنظم المذهبية وهذا كلّه تتوفر عليه الدكتورة عائشة عبد الرحمن في آخر كتاب صدر لها بعنوان «الشخصية الإسلامية» من خلال منهج واحد هو منهج القرآن.

وهذا المنهج يمكن أن نفهم من خلاله، كما تقول المؤلفة، ما لحق بالشخصية الاسلامية من عوارض أو شوائب تفسر ما امتحنت به الأمّة من نكبة فادحة في حزيران (يونيو) ١٩٦٧، وهي نكبة يمكن أن تعصى على التفسير والفهم بمنطق الأسباب العسكرية وحدها، وكذلك حساب العوامل المادية وظروف الصراع وما الى ذلك.

كما أنّ هذه الدراسة التي تقدّمها لنا الدكتورة بنت الشاطئ تفسّر انتصار الشخصية الاسلامية في العاشر من رمضان، لأن الإنسان ـ كما تقول المؤلفة كان وسيظل أبداً، العامل الأول في صراع البقاء وسباق التقدم، فالأمة لا تحمي وجودها ولا تحقّق تقدّمها إلاّ بمقدار ما تملك من رصيد ذخيرتها البشرية قيمة ونوعاً. وان بدا في ظاهر الأمر ان صراع البقاء لا يعرف غير الأسلحة الحربية، وان سباق التقدم محكوم بأسباب القوى المادية والتفوق التكنولوجي.

والكاتبة لا تغض من خطر هذا وقيمته، ولكنّها تقول لنا إن الانسان

(*) جريدة الشرق الأوسط في ١٩٨١/٩/١

هو الذي يبدع الحضارة ويكتشف أسرار الطبيعة وخواص العناصر، ويصمّم الآلات ويصنع الأجهزة، وبغير الانسان، تتعطل الأسلحة نووية أو غير نووية، لأنّه الذي يعطي السلاح قوّته وفاعليته، وبغير الانسان لا تعدو الأجهزة العصرية أن تكون آلات صمّاء، لأنه وحده الذي يديرها، وهو الذي يوجّه العقول الالكترونية ويتحكّم في الكهرباء والأثير والذرة، ويغزو الفضاء ويرتاد الاجرام العليا.

وتطيل الدكتورة بنت الشاطئ التفكير فيما تتعرّض له شعوب العالم الاسلامي الافريقي من تآكل وتصدّع، وما تمتحن به من مذابح ومجازر وهزائم، ويصك مسمعها ومسمعنا ما يتردّد في الأفق من أصوات الشكّ في صلاحية إنسان هذه الأمة للبقاء، بحكم جمود شخصيته ورجعية تفكيره، وتخلّف عقليّته المعطلة للأسباب.

الشخصية الاسلامية وعصر العلم

من أجل هذا، فإن الكتاب جدير بالاهتمام لمواجهة تحديّات القرن الهجري الجديد، ذلك انه يجيب عن السؤال المطروح والذي يصك مسامعنا في كل مكان.

.. هل تكون الشخصية الاسلامية بطبيعة فكرها الديني غير صالحة للانسجام مع عقلية عصر العلم الحديث؟

لقد بعد العهد بالمسلمين الاولين ممن كانوا يمثلون الشخصية الاسلامية كما عرفوها في مثلها القدوة، نبي الاسلام ومبلغ رسالته، عليه الصلاة والسلام. وطرأ على هذه الشخصية الاسلامية ما طرأ من ميراث الشعوب التي دخلت في الاسلام بعد الفتوح الكبرى، لكن العقيدة بقيت مناط وحدتها الجامعية ولواء وجودها الحر الذي حقّقته باصالة واقتدار في الدور القيادي للحضارة الاسلامية التي أضاءت للغرب الاوروبي ظلمات عصوره الوسطى، فغذ السير الى العصر

الحديث وانتقلت إليه قيادة الحضارة، ودخلنا نحن في ليل التخلف بفعل سنن حتمية يعرفها كل من قرأ التاريخ.

وطال علينا الليل، فكان سر بقاء هذه الأمة ان بقي لها القرآن دليل مسراها وقد انفرد بمجال النفوذ عليها والتأثير فيها، قبل عصر الطباعة والصحف والسينما والاذاعة ـ فكان لجماهير الأميين كتاب دينها الذي سهر على حمايتها من الضياع، ونسخ أميّتها بنور الوعي، وقادها الى معارك التحرير الباسلة ضد الاستعمار الاوروبي.

غير انا ما كدنا ننجو من الاحتلال العسكري، حتى انكشف لنا ما ورثنا من تركة مثقلة برواسب ليل التخلف، مشحونة بمخلّفات الغزو المعنوي الذي ألحّ على شخصيتنا بالمسخ والتشويه، فكان أول ما واجهنا بعد الاستقلال، هذا التصدع في الكيان العام للأمة وفقدان التعاصر بين أبناء الجيل الواحد في البلد الواحد بحكم انتمائهم الفكري والوجداني الى مدارس شتى وعصور متفاوتة وبيئات متباعدة. وماج الفراغ السحيق بينها بتيارات شتى وافدة، لا توقفها سدود ولا تعوقها حواجز وضج الميدان بدوي الصدام بين قديم وجديد، بين يمين ويسار، بين شرق وغرب.. وتأسيساً على هذا الفهم تقدّم لنا بنت الشاطئ كتابها عن الشخصية الاسلامية وتبحث عن جوهرها الحر، ليضبط لنا المقاييس المضطربة فيما يغيب عنا من ملامحها النقيّة، وما يتشابه الأمر فيه علينا فنحسبه أصيلاً وهو في الحق دخيل.

الشخصية الاسلامية.. والاسلام

والمؤلفة تحتكم في تمثل الشخصية الاسلامية الى أدلّة وشواهد من نصوص الكتاب المحكم وصحيح السنة، لتبلغ من قومها مبلغ الاقناع، وقد بلغت.

فهي تقدم لنا المقومات الايجابية في الشخصية الاسلامية حين تتحدّث

عن الاسلام والإيمان، وبشريّة الشخصية، والتعادلية الاسلامية بين المادية والروحية، بين العبادة والعمل، بين الدين والعقل، بين المحافظة والتجديد، والذاتية الاسلامية بين الفردية والجماعية.

وفي نهاية المطاف، وبعد أن تجلو هذه القيم الاسلامية، تجيب عن السؤال المطروح حول الشخصية الاسلامية التي يرتاب المرتابون في قدرتها على الانسجام مع النظرة الطبيعية للكون والحياة.. حين تذكر لنا كلمة جعفر بن أبي طالب لنجاشي الحبشة حين أرسلت إليه قريش تطلب تسليم المهاجرين الأولين، وهي الكلمة التى وعاها التاريخ من أوائل عصر البعث.

«أيّها الملك، كنّا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منّا الضعيف، حتى بعث الله فينا رسولاً منّا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا الى الله لنعبده وحده ونخلع ما كنا نعبد نحن وأباؤنا من الأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وإداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصّنات فصدقّناه وآمنّا به، واتبعناه فعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الأوثان وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث».

فلماذا نوصم اليوم بالرجعية، في إيماننا بقيم علىا تعطي الانسان قيمته ومعناه فوق حيوانيته المادية التي يستوي فيها والبهم والدواب.. ولماذا يتهم فكرنا الديني؟ وكأن لم يكن الوازع الديني رقيباً على الانسان في خلقه وسلوكه وكأن الأمة على المدى الطويل لم تجد من عطاء عقيدتها ما حررها من اغلال الشرك ووثنية المادة ومهانة العبودية للبشر، وخلصها من فوضى العبنية ولعنة العدمية، وما فرق عن بصيرتها من حجب الغفلة وعن عقلها غشاوة الجهل والعمى ففتحت الدنيا وارتادت درب العلم، ومجاهل الطريق إلى آفاق الفضاء.

من عجب ـ على حد تعبير بنت الشاطئ ـ أن تشتد الحملة على

الاسلام ويقال بتخلفه، ناظرين اليه من وراء أربعة عشر قرناً، ولا ينظر الى سائر الأديان والعقائد والملل قبله من وراء عشرين قرناً وأربعين.. فما أحوجنا فيما فرطنا من أمرنا وما يغشانا من جاهلية، الى أن نتدبر آية الله تعالى فينا:

﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين • وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم﴾[1] صدق الله العظيم.

(١) سورة الجمعة الآيتان ٢ و٣

التفسير الاسلامي
للتراجم الادبية..(*)

يذهب النقد الى أنّ التراجم الأدبية من أمس أنواع الأدب بدراسة الانسان، حينما نتناول بالتعرف حياة شخصية أو أكثر. ولذلك يذهبون الى أنّ نتائج الدراسات النفسية وبحوث الشخصية من العمد الأساسية لمن يتصدى لدراسة هذا الفن، والابداع فيه، سواء كانت الترجمة الأدبية ذاتية أو غيرية. فكاتب الترجمة يعتمد على تفسير الطبيعة الانسانية حينما يترجم لنفسه. وحينما يترجم لغيره وهو لذلك معني بدراسة العوامل الاجتماعية المختلفة التي تشترك في تكوين السلوك الانساني وتوجيهه.

ولقد نظر الفلاسفة وعلماء الأخلاق الى الطبيعة الانسانيـة من زوايا متعدّدة. وترتب على ذلك ان كانت أراؤهم متباينة، وتعقدت الدراسات حول الطبيعة الانسانية في أكثر من علم، وفي أكثر من اتجاه، ولكنّها جميعاً ضرورية لهذا الفن الأدبي الذي يترجم «للشخصية الانسانية»، ترجمة تجلو خصائصها وتكشف عن عناصر التمييز الانساني فيها.

وإذا كانت هذه الدراسات قد تباينت وتشعّبت في دراسة الانسان فإنّ التفسير الاسلامي للتراجم الأدبية، يتّجه الى إيجاد علم للطبيعة الانسانية يفيد من هذا الشتات بين العلوم، ويستخلص منه ما يثري هذا النوع الأدبي، ذلك ان الطبيعة الانسانية قد حظيت في القرآن الكريم بالدلالة المميزة، فلقد ورد

(*) عكاظ العدد ٦٧٦٤ في ١٩٨٤/١٢/١٩

لفظ «الانسان» ـ مثلاً ـ كما تقول الدكتورة بنت الشاطئ ـ في خمسة وستّين موضعاً، في القرآن الكريم.

وأحسب أن هـذا التفسير الاسـلامي هو الـذي يكمن وراء الكتاب الجديد الذي طالعنا به الشاعر المبدع والكاتب الاسلامي المحقّق الاستاذ عبد المنعم قنديل في هذه الأيام، والذي جعل عنوانه، «حياة الصالحين» حيث توسّل بهذا النوع الأدبي ـ في التراجم ـ في عرض وتحليل القيم الانسانية من خلال حياة عدد من الشخصيات الاسلامية دراسة تجلو خصـائصها، وتكشف عن عناصر التمييز الانساني فيها.

ويوضح الأستاذ قنديل الدوافع وراء اختياره لهذه الشخصيات، وهي دوافع الانصاف لتاريخها، وما قدمته للحياة الانسـانية عـبر العصور، سـواء بالجهاد في ميدان القتال، أو بالكلمة في ميدان الدعوة. أو بالسلوك في محراب العبادة، وحسب الأستاذ قنديل هذه الدوافع النبيلة، التي دفعت به الى اداء واجب الوفاء نحو «حياة الصالحين» حيث وظّف ثقافته الموسوعية لاظهار أهمّ خصائصهم ومزاياهم، لأنّه يؤمن أن «كتابة التاريخ أمانة في عنق الكـاتب، ويؤكّد أنه أقدم على حمل هذه الأمانة من منطلق العقيدة مراقباً الله في كل كلمة خطها، وفي كل حـرف كتبه، ولـذلك عـايش المؤلف معظم المـراجع التاريخية المعتمدة، معايشة فحص وتمعن، وخرج من هذه المعايشة بترجمة لحياة الصالحين في إطار من الأمانة التاريخية. وتكشف في مجموعها للقارئ عن نماذج مضيئة من أسلافنا، وكيف كانوا يستمدون أفعالهم من قيم الاسلام، ويرتكزون في تصرفاتهم على مبادئ الدين الحنيف. وبهذا سادوا الدنيا وفتحوا البلدان.

ولهذا يعرفنا المؤلف من خلال الترجمة الفنية لحياة الصالحين كيف كان المسلمون الأوائل يقيمون حياتهم على الحب والأخوة والإيثار والرحمة.. فهم ملائكة في محراب العبادة، وفرسان في ساعات القتال، يجاهدون النفس بالصيام والصلاة، ويجاهدون العدو بالسلاح والعـزيمة، جمعـوا بين مقـاومة شهـواتهم،

ومقاومة أعدائهم في الوقت نفسه، سيّان الشيوخ منهم والشباب ولذلك فإن هذا الكتاب ـ كما يقول المؤلف بحق ـ ينصف تاريخ الشباب، كما ينصف تاريخ الشيوخ. وهو ليس مقصوراً على عهد الرسول، وعهد خلفائه الراشدين، وإنما هو ممتد في أعماق التاريخ، يبحث عن حامل السلاح والراية في الميدان كما يبحث عن حامل المصحف في المحراب، ويستقصي سيرة حياة كلٍ منهما في صدق وأمانة وانصاف.

وهذا الكتاب ـ كما تقدّم ـ يثير قضية التفسير الاسلامي للتراجم الأدبية على نحو جديد، يكشف من جهة عن «الطبيعة الانسانية» ويفسّر من جهة أخرى تفوق الأدب العربي والاسلامي على غيره من الآداب العالمية الأخرى. في هذا الباب ـ باب التراجم الأدبية ـ بصفة خاصة، من حيث الكثرة والتنوّع والافتنان في ترتيب الاعلام المترجمة. وفي تبويب الموضوعات والاهتمام بها حتى في كتب التاريخ العام وكتب الشروح اللغوية، والترجمة لأعيان كل بلد أو كل مدينة في كتاب واحد، والترجمة لاعلام النساء بجانب أعلام الرجال. وتحقيق الوفيات والمواليد قدر ما سمحت به ظروف حياتهم الاجتماعية والاستشهاد بآثار المترجم لهم في النثر والشعر، وضبط الاعلام وتحقيق المتشابه منها.

ونجد تفصيل ذلك في الكتاب القيم الذي اشترك في وضعه لجنة من أدباء الأقطار العربية عن «التراجم والسير» وقدّم له الأستاذ عبد الغني حسن، ونتعرف منه كذلك على أساليب هذا الفن وتطوره في الأدب العربي، منذ القرن الثاني للهجرة، والذي تنوّع على توالي العصور. وبلغ نتاجه من الكثرة في التراث العربي والاسلامي حداً لم يبلغه في تراث أي أمة أخرى معروفة في التاريخ القديم والحديث.

فقد ظلّت انجلترا ـ مثلاً ـ على رسوخ قدمها في فن التراجم ـ معطلة في هذا الباب عشرات من القرون، الى أن ظهر صموىل ببيس ١٦٣٣ ـ ١٧٠٣ م فكتب. يومياته ومذكراته التي يعدونها أول خطوة في كتابة التراجم

الذاتية ومثيلاتها من أنواع التراجم، وظلّت فرنسا كذلك إلى أن ظهر في القرن السابع عشر أيضاً المؤرخ ركيز فكتب مذكراته سنة ١٦٧٢. فحين بدأ فن التراجم يظهر في انجلترا وفرنسا بصورة ساذجة كانت التراجم العربية والاسلامية قد بلغت حداً من الكثرة والتنوع وسعة المجال.

ولقد أخذت التراجم والسير العربية في القرن العشرين تخرج في إطار جديد يفيد من تطور المناهج الكتابية والتحليلية النفسية، فظهرت العبقريات للعقاد وحياة محمد والصديق أبو بكر للدكتور هيكل وعثمان وعلي وبنوه للدكتور طه حسين، وأخذت شخصيات التاريخ الاسلامي من الصحابة والتابعين والخلفاء والقواد والملوك والولاة والعلماء والأدباء تكتب بأقلام جديدة، استقام لأصحابها المنهج في الترجمة لحياة الفقهاء والآئمة من رجال الدين، على نحو ما نجد في تراجم الاساتذة أبو زهرة، أمين الخولي، عبد الحليم الجندي، وعبد الرحمن الشرقاوي.. وغيرهم من اعلام الكتاب في أدبنا الحديث، على نحو ما وجدنا في كتاب الاستاذ قنديل عن «حياة الصالحين».

الشعراوي.. والأدب الاسلامي(*)

في هذه الأيام نستقبل عاماً جديداً في القرن الخامس عشر الهجري، وهذا العام الجديد يثير مجدّداً قضية الأدب الاسلامي، الذي يصدر عن الاسلام منهجاً وفكراً، ويعبّر عن الشخصية الاسلامية ومواجهاتها لتحديات الحاضر والمستقبل.

وفي هذا يقول المفكر الفرنسي المسلم «رجاء جارودي» «إنَّ الأدب الاسلامي هو في جوهره أدب الاستشراف والتسامي بالنفس الانسانية، انه أدب يستلهم القرآن الكريم» في بناء الانسان، ذلك أن الاسلام ـ كما يقول جارودي أيضاً: «يحمل بذور تغيير جذري على مستوى الانسانية كلها، ولذلك أضفى على التيار الذي سيسود الفكر العالمي والأدب الانساني، العقيدة السامية التي لا تكف أبداً عن الهام الفكر والأدب».

وفي هذه الآونة يطالعنا الكاتب الأديب الأستاذ عبده مباشر بكتاب عن المفكر الاسلامي الكبير الشيخ محمد متولّي الشعراوي، يؤكد فيه هذه الوظيفة الجوهرية للأدب الاسلامي من خلال القضايا المعاصرة التي ناقشها، وطرحها، ذلك أن الشيخ الشعراوي قد امتدّ به الطريق سنوات طوالا على طريق الدعوة الاسلامية، عبر القارات من أفريقيا إلى آسيا فأروبا فأميركا الشمالية، وتعدّدت الوسائل الاتصالية التي يتصل من خلالها بالجماهير، وتعدّدت الفنون القولية التي توسّل بها كذلك، فكانت كتابة الشعر في المرحلة الأولى

(*) الاهرام فى ١٩٨٤/٩/٣٠

من حياته، وركّز على توجيه المضمون الفكري الذي يجب أن يتبناه الأدب الاسلامي في الفنون الأدبية المختلفة، من شعر وقصة، ومسرحيه، ومقالة، وملحمة، تأسيساً على المفهوم الذي يقدّمه للأدب الاسلامي، وهو المفهوم الذي ينظر الى الاسلام قبل أن يكون «نظاماً وقبل أن يكون سلوكاً ومنهجاً، أن يكون عقيدة تغمر القلب بالإيمان المطلق بالله «وهنا يستطيع الأدب الاسلامي أن يواجه الدعايات المزيّفة، والنظريات الوضعية، من خلال العرض الفني للفكرة الأساسية المستمدّة من الاسلام، ونبذ «الفكرة الوافدة» ذلك أن «الاسلام بمفهومه ليس من صنع فكر البشر لأنه من وضع الحق سبحانه وتعالى، والحق هو الخير المطلق والكمال المطلق» وحين يعرض الأديب لفكرة الخير يعرضها عرض الأديب المتمكن من أدواته الفنية، والتي يوظفها توظيفاً فنياً في عرض الفكر الاسلامي بعد دراسة الأفكار الوافدة. يقول الشعراوي:

«ولا شك، أن من يستقبل الفكرين وبدون هدي مسبق سينتهي إلى أن ينتصر لقضية الاسلام المقابلة للفكر المعاصر، وقد قال الله تعالى ﴿**ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم**﴾[1].

ومن كلمات الشعراوي التي قدمها الأستاذ عبده مباشر، يتحدّد لنا إطار الأدب الاسلامي المعاصر، ومن ذلك قوله «من حلاوة ما ذقته في القرآن الكريم.. أريد أن أنقل هذه الحلاوة الى الناس» و«لا تناقض بين الحقائق القرآنية.. والحقائق الكونية» و«نفخة واحدة.. تطفئ، ونفخة واحدة.. تؤجج» و«إذا كانت النفس البشرية لغزاً لا نستطيع أن نفهمه، فإن فيها فطرة نحس بها جميعاً، هي صلة هذه النفس بالله». إنّ هذا المنهج الذي يطرحه الأستاذ مباشر من خلال فكر الشيخ الشعراوي، يؤكّد ما ذهب إليه مفكّرنا الفرنسى المسلم جارودي، الذي عني بدارسة الأدب الاسلامى، حينما يؤكد ان «ازدهار الأدب العربي الاسلامي في عصرنا هذا ينقل على مستوى قلق وهموم وآمال الانسان المعاصر، اتّجاه الأدب الاستنرافي المتسامي».

---

(١) سورة النساء آية ٨٣

ذلك أن جارودي قد توقّف أمام نماذج من الأدب الاسلامي في عصور مختلفة، توصل منها الى أنها جميعاً تصدر عن استلهام القرآن الكريم، إيماناً من مبدعيها بقول الله تعالى ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾[٢].

وحينما ازدهر الأدب الاسلامي كان تأثيره عميقاً في الآداب الاوربية التي يقدم منها جارودي نماذج من «جوته» في مؤلفه «الديوان الغربي الشرقي» حيث يعبر عن الحركة المزدوجة والتعدد في الكون والعودة الى التوحيد بالحب، يقول «العالم في وحدته الاولى كان يستكين في أبدية الله فخلق الله الزمن بأن قرر للعالم أن يكون».

(٢) سورة البقرة آية ١١٥

مواكب الحياة والشعر الاسلامي*

منذ فترة طالعنا الشاعر الدكتور عزّت سندي بديوانه «مواكب الحياة» والذي يثير مجدّداً قضيّة الأدب الاسلامي حينما ينتسب الى الاسلام عقيدة ورؤيا، ويستمد أسسه وأصوله من ينبوعه الكريم، ويتأثّر بـه أسلوباً ومعنى وصوراً وأفكاراً، ذلك أن الأدب الاسلامي ـ كمصطلح ـ لم ينته بعصر ظهور الاسلام ـ ولكنّه لا يزال يؤدّي رسالته إبداعاً ونقداً، وفي ـ الأدب الاسلامي ـ مستقبل الأدب المعبّر بالعربية وبغيرها من اللغات طالما يبدعه أدباء مسلمون يصدرون عن الاسلام في فكرهم وإبداعهم.

والشعر الاسلامي المعاصر يصدر عن الرؤيا الفكرية للأدب الاسلامي، حينما يستمد أفكاره وقيمه من الاسلام ويؤدي رسالته في العمل على إيجاد اليقظة الاسلامية والوعي الحضـاري في مواجهـة الغزو الفكـري الضاري. وديوان الشاعر الدكتور عزّت شندي «مواكب الحياة» يعبّر عن هذه المعاني، حينما يتوجّه الشاعر بصلواته الى بـارئ الكون سبحانه وتعالى:

يا بارئ الكـون لا تنفك مبـدعه — وخـالق الخلق من انس ومن بهم
تصـوّر الكـون في فن ومفـدرة — تسـير الفلك في سـام من النـظم
أرى سنـاءك في البدر المنـير ضيـا — وأشهـد البشر فيـه جـد مـرتسم

من أجل ذلك يشد الشاعر ركابه سعياً الى عصر المصطفى ﷺ، ذلك العصر الذي عاش فيه الانسان ينتقل من مجد إلى فخر الى نصر متطلعاً الى

(*) جريدة الاهرام في ١٩٨٥/٧/٢٨

أعظم مثل الحياة وأكرم قيم الفضائل يضيء طريقه دين القيمة ويهديه الى غاياته الرفيعة شريعة كريمة يقول الشاعر الدكتور شندي:

يـا مصـطفى اني شـددت ركـابي سعيـاً إليـك ألـوذ منـك ببـاب
وتـركت أبنـائي وأحبـابي الى الـ أغـلى من الأبنـاء والأحبـاب

إلى أن يقول:

ولقـد مدحتـك يـا حبيب فعزَّ بي اصـلي وطـارت للذرى انسـابي
والفخـر افعم جـانبي واعـرقت مما امتدحتـك في الورى اعقـابي
يـا «مصطفى» اني نـذرت كهولتي وقفـا عليـك كـما نـذرت شبـابي

ويصوّر الدكتـور شندي في هـذه القصيدة الـطويلة القيم المكتسبة من السيرة العطرة يستهدي بها الانسان في القرن الخامس عشر وما يليه من قرون يقول من قصيدة «في مهجر الرسول»:

واشـدت بالعلم الحكيم لنـرتـوي من نبعـه واشـدت بـالعلماء
والحلم قـد مجدتـه وحمـدتـه وكم امتـدحـت مكـارم الحلماء
والصـبر قد عـظمت اجر دعـاتـه وضمنت اجـرهم لـدى الارزاء
خلق هـو الاسلام انت فقيهـه ولـنعـم مـا شرعت لـلفقـهـاء

وفي صفحات الديوان التي تزيد على الثلاثمائة صفحة قصائد مشرقة تصدر عن رؤيا اسلامية تعيد للشعر منزلته السامية في تصوير الحياة والتعبير عن مواكبها تعبيراً يقف منه الشاعر موقف المشارك في هذه المواكب الحياتية لا المشاهد المتفرج عليها. ذلك أن شاعرنا الدكتور شندي يعبر في قصائده عن الاصالة الأدبية موضوعاً وتعبيرياً إذ إنّ هذه الاصالة الأدبية التي يصدر عنها شاعرنا انما تنمو من التفكير والتأمل وتستمد مادتها من واقع الحياة أو مما فوق الواقع في إطار ثقافته وعقيدته وترتدي القصيدة في التعبير عن ذلك جميعاً ثوباً جديداً متميزاً. يقول الشاعر من قصيدة «النيل الخالد» مخاطباً «النيل»:

وقـامت على واديـك أولى حضارة اطلت عـلى الـدنيـا منـار رشـــاد
اضاءت ظلام الفكـر في ليل جهله فهبت غــوافي العلم بعــد رقـــاد
ولاح بهـا التـوحيــد يجلو بنـوره غيـاهب شرك شاع في ظـل الحاد
ولـولاك مـا قـام البنـاء مـوطـداً وما ظلّ عبر الدهـر ثابت الأوتـاد

ان «اصالة» مصر الموحّدة المؤمنة، تعبر هنا عن الاصالة الأدبية التي تشير ـ كما يقول استاذنا السحرتي رحمه الله ـ الى جدة الفكر والنوارنية في التعبير لابداع أدب حي باق على الزمن، أدب رقراق مضيء ينبثق من الروح ومن انفعالها الخلاق فينشر الفرحة في الأذهان والقلوب إذ من الروح يشرق ضوء باهر وتغطي سحابة مضيئة لطيفـة وجه الأرض ـ كـما يقول الشـاعر الانجليزي كولريدج. والفكرة الجديدة أو الفكرة الصافية التي ارتـدت ثوبـاً جميلاً مضيئاً هي الفكرة الأصيلة التي ترقد في النور وتعيش في الخلود وتعني بدورها جوهر ما نعنيه بحديثنا اليوم عن «الأدب الاسلامي».

مصطفى محمود
بين أدب الرحلات وأدب الآخرة(*)

ليس الإنسان فيلسوفاً بالطبيعة، ولا فيلسوفاً بالفطرة، وانما هو فيلسوف عندما يوجد ما يدعوه الى التفلسف، فالفلسفة استجابة ذهنية، كما أن الشعر استجابة وجدانية، لما في الواقع من دوافع ودواع، أو هي تعبير عن ذوات العقول كما أن الشعر تعبير عن ذوات النفوس.

بهذه الكلمات يستهل الأستاذ جلال العشري كتابه عن «مصطفى محمود شاهد على عصره»، وهي كلمات توحي بما يشتمل عليه الكتاب من آراء وما يقوم عليه من أفكار ينتظمها منهج نقدي تميز به جلال العشري في العديد من الدراسات والكتب الأخرى، وهو المنهج الذي يفيد من ثقافته الفلسفية، افادة تجعل من النقد استجابة ذهنية للابداع الأدبي الذي هو في الأصل استجابة وجدانية، وهو المنهج الذي تمكن عن طريقه من اكتشاف عالم مصطفى محمود الرحب، بحيث نذهب معه الى أن مصطفى محمود لم يتأثر ولم يقلد، وانما قد استطاع أن يحيا «الثقافة الانسانية الفكرية» وأن يتمثلها ويستفيد منها، فترددت في كتاباته اصداء العصر. وتشكلت أفكاره بكل ما أسهم في تكوينها من حقائق أصيلة ووقائع معاصرة. ومهما يكن من أمر الأفكار التي تشابهت مع أفكار مصطفى محمود ـ كما يقول المؤلف ـ والأصداء التي ترددت في كتبه وكتاباته، فإن الذي لا شبهة فيه ولا شائبة أن مؤلفاته ليست مجرد مرآة

(*) الاهرام ١٤/١/١٩٨٠ ـ

انعكست على صفحاتها قراءاته، وانما هي قد استملت على الكثير من الخطرات الفلسفية، والمبادئ الأخلاقية، والنظرات الصوفية، هذا بالاضافة الى الآراء التي يمكن أن يكون لها أثر في حياتنا الاجتماعية. ويتّضح عالم مصطفى محمود من خلال المنهج الذي رسمه المؤلف لكتابه، حيث ينقسم الكتاب إلى أربعة أبواب، كل باب منها يؤدي بنا الى عالم مصطفى محمود، فالباب الأول عنوانه: «العلم والايمان» يتحدّث فيه عن العلم والفلسفة والتصوف، أما الباب الثاني فهو عن الأدب والفن أو (الانسان) وفيه يتحدث عن القصّة القصيرة والرواية والدراما. و«أدب الرحلات» هو عنوان الباب الثالث حيث يتحدّث عن العالم: المدينة ـ الغابة ـ الصحراء. وأخيراً: رحلة الرحلات أو أدب الآخرة: الطريق الى الكعبة ـ رأيت الله ـ سدرة المنتهى. ذلك أن الفكر عند مصطفى محمود كائن حي له يدان، على حدّ تعبير المؤلف، يسراه العلم، ويمناه الفلسفة، أما التصوف فهو قلب الطائر الخفاق، فعصرنا هو عصر الفكر.. لا الفكر النظري الخالص الذي يبدأ أو ينتهي في رأس صاحبه. ولكنّه الفكر المخطوط بالعاطفة الممزوج بالوجدان.. الفكر الذي يخرج من العقل لا ليخاطب العقل بل ليتلقفه الاحساس فيحيله الى صورة ترى، وكلمة تسمع، وحركة تدرك بالوعي والشعور، وقاعدة لاطلاق هذه المحاولة. وكأنما يتمثل عبارة الشاعر الصوفي الكبير محمد اقبال:

«لا يتيسر فهم الكتاب الكريم حتى يتنزل على المؤمن كما تنزل على النبي».

ذلك هو الباب الأول لاكتشاف عالم مصطفى محمود، أما الباب الثاني فهو باب الانسان أو الأدب والفن، حيث المتناهي في الصغر والمتناهي في الكبر، هما المداران اللذان يدور في فلكهما أدب مصطفى محمود كما دار فيهما فكر مصطفى محمود عن الوعي كأداة للمعرفة، والانسان كموضوع للمعرفة. انطلق محمود في أدبه وكتاباته سواء الفلسفي منها على مستوى التفكير أو

الأدبي على مستوى التعبير.. وهو - كما يقول المؤلف - لم ينطلق انطلاقة أي كاتب تقليدي يقول ما عنده ثم يستدير ليقول ما عند الآخرين، وانما انطلق بفنيته الهائلة التي جمع فيها بين احساس الأديب وادراك الفيلسوف، ومزج هذين البعدين بأسلوب عصري جديد فيه عمق الفكرة ودفء العبارة. فيه البصر الذي يوحي بالبصيرة، والمادي الذي يؤدي الى المعنوي، والرؤية التي تلتقي بالرؤيا كأروع ما يكون اللقاء، فهو يتعاطى الأشياء بعقله، ثم يعيها بوجدانه، ثم يجسدها بكلمة فإذا هي مسرحية أو رواية قصّة قصيرة..

ومن هنا كان فن مصطفى محمود غير قابل للتمذهب، يعني المؤلف أننا لا نستطيع أن ندرجه تحت مذهب أدبي معيّن أو نطلقه وراء فيلسوف بالذات.. فهو ابن حياة.. استطاع أن يفلسف حياته ويحيا فلسفته وأن يتخذ منها جميعاً مادة لكتاباته في الأدب والفن: في القصّة القصيرة والرواية والدراما وأدب الرحلات.

إن كتاب جلال العشري في نهاية الأمر تأكيد لتيار «الاصالة والمعاصرة»، الذي يروده في كتاباته.. الاصالة في العودة الى تراثنا الفكري والروحي الأصيل، والصدور عنه بما يتوافق ومتطلبات الواقع وروح العصر.

الشعر الاسلامي والنور الاعظم(*)

يقول الفنان «رودان» في صدد حديثه عن دور الفكر في الفن: إنّ الفن هو التأمل، هو متعة العمل الذي ينفذ الى صميم الطبيعة، ويستكشف ما فيها من عقل يبعث فيها الحياة. إنّه فرحة الذكاء البشري حين ينفذ بأبصاره الى أعماق الكون، لكي يعيد تشكيله مرسلاً عليه أضواء من الشعور.

هذه النظرة الصائبة، تؤكد لنا أنّ الشعر وألوان الفنون الأخرى، تنقلنا الى عالم الصور النقيّة، وفي فن الشعر خاصة، يجد القارئ لغة رمزية تعينه على الكشف عن جوانب مجهولة من التجربة الحيّة، ولذلك ينطلق مفهوم الأدب الاسلامي من العقيدة الصحيحة التي تؤكد كرامة الانسان وحريّته ومسئوليّته، والتي تنبع منها قيم الحق والعدل والاحسان والخير.

وفي ضوء التحليل الوظيفي، يتغيا الأدب الاسلامي بناء الشخصية الاسلامية المتوازنة، وتكوين المجتمع الاسلامي المتماسك المتكافل. ذلك أن الانسان قد خلق ليعبد الله، والنشاط الانساني لا يتّصف بهذا الوصف محقّقاً لهذه الغاية التي يحدّدها القرآن الكريم بأنها غاية الوجود الانساني إلاّ حين يتم هذا النشاط وفق المنهج الالهي لقوله تعالى: ﴿وما خلقْتُ الجنَّ والإنسَ إلَّا ليعبدُونِ﴾[1].

وتأسيساً على هذا الفهم فإنّ الشعر وفنون الأدب في الاسلام ينبغي أن

(*) الاهرام ١٩٨٨/٤/٣

(١) سورة الذاريات آية ٥٦

تدعو الى نشر عقيدة التوحيد كما تدعو الى العبودية الخالصة لله وحده لا شريك له، وفي ذلك تأكيد على حريّة الانسان من كافة القيود الخارجية كالسلطات الغاشمة والقيود الداخلية التى تتمثّل في الغرائز والشهوات.

وفي الأيام المباركة التي نتنسم فيها أريج المناسبات الاسلامية الخالدة نطالع معاً الديوان الجديد للشاعر عاطف عامر بعنوان «سرّ الاله: النور الأعظم» قصائد شعرية في نور حب الله.

وهي قصائد في هذا الاطار الاسلامي للفن والأدب، تستهدف السمو باهتمامات الناس وعقولهم ووجدانهم وسلوكهم - وبثّ روح الالفة والمودّة والرحمة والتعارف والتآلف والانسجام بين سائر المسلمين.

لم يقتصر تأثير «الاسراء والمعراج» على الأدباء والشعراء المسلمين وانما امتد ليؤثر في الآداب العالمية، فكوميديا دانتى النى تنشد الخلاص عن طريق الحب والفيض الالهي، تمثّل رحلتها - على حدّ تعبير استاذنا المرحوم د. غنيمي هلال - رحلة كل نفس في هذا العالم الأرضي.

وها هو شاعرنا عاطف عامر، يرحل بنا في «نور حب الله» من خلال قصائد شعرية تؤكد أن عالم الانسان عالم أخلاقي يعرف الحقيقة والقيمة والمثل الأعلى؛ ومن هذه المنطلقات يسعى في شعره الاسلامي الى حراسة هذه القيم والتزام منهج الله تعالى في شئون الحياة وعلى ذلك يصبح الأدب الاسلامي أدباً ملتزماً بعقيدة الاسلام فيما يعالج من موضوعات وهو يعمل على نشر تلك العقيدة، وتعميق الوعي بها، فالأدب يشتق وظيفته من وظائف المجتمع الاسلامي نفسه كما أرادها الله تعالى.

يقول الشاعر:

سجد الوجود حب ذاتك طاعة   وسجدت شوقاً في نعيم رضاك

وفي القصيدة الرئيسية في الديوان يقول:

سرّ الاله.. أراه في أنواره   ببصيرتي.. والسر نور الحكمة

سرّ الالـه.. فخلق نـور محمـد قـوسين أو أدنى لنـور الـرؤيـة
نـور المـرقى صـاعـداً لحبيبـه الـرحمن منتشيا بنـور النـظرة
يـا من رأى نور الالـه بليلة الـ معـراج نـوراً نلت أبهى طلعـة
درجـات نـور قـد عـلا للمنتهى لـرفيعـة وفضيلة ووسيـلة

وهكذا يؤكّد لنا الشاعر بدربته الفنية، أن الشعر الاسلامي حينما ينطلق من الايمان الصادق يستدعي العمل الصالح، قال القسطلاني:

الإيمان هو التصديق بالقلب، والاعتراف باللسان ـ وتقرّره الأعمال الصالحة واجتناب الناهي. فإذا زنى، أو شرب الخمر، أو سرق، ذهب نوره وبقي في الظلمة فإن تاب رجع إليه. والمستقرئ لآيات القرآن الكريم قلّما يجد فعلاً أو وصفاً مشتقاً من الإيمان الا وهو مشفوع بعمل الصالحات ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ومَن يؤمِنْ باللهِ ويعمَلْ صالحاً﴾[٢].

ومن هنا ينبهنا الشيخ عبد العزيز جاويش رحمه الله، الى أن الله تعالى يوقظ العقول الى أن مجرّد الإيمان في اللغة أي الاعتقاد، لا يكفي في الحاق صاحبه بفئة المؤمنين حتى يقرن اعتقاده بصالح الأعمال. وقد ضمن الله تعالى الامن والهدية لمن لم يشب إيمانه بظلم ولا جور فقال: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الامن وهم مهتدون﴾[٣].

في اتجاه هذا النور الأعظم يسير بنا الشاعر عاطف عامر حينما يقترن العلم بالعمل، ويصبح سر الجهاد وسر السلام، وسر الوجود، يقول:

جمعت من نـور السماء قصيـدة وبنيت أفكاري من الـومضـات
حلقت في دنيـا البيـان بـبردة وخلعتهـا حتى تنـال سمائي

وهكذا حلق الشاعر ببردته الجديدة بما يمتلك من عدّة فنية الى عوالم

---

(٢) سورة التغابن آية ٩؛ وسورة الطلاق، آيه ١١.
(٣) سورة الأنعام آيه ٨٢

من السمو تؤكد خاصية الفن التي تحدث عنها «برجسون» والتي تتيح للشاعر أن يرى العالم في صفائه الأصلي ويدرك أسكاله وألوانه وأصواته؛ وبمقتضاها يمتلك الشاعر مقدرة صوفية على الاتحاد مع قصيدته، و«يملك قدرة هائلة على ادراك ما يفوتنا في العادة ادراكه لأننا مشغولون بالعمل والتصرّف على حين أنه هو مستغرق في النظر والتأمّل».

قضية الأزهر والوزير المسئول عن تطبيق الشريعة(*)

حرص الأهرام أن يشرك في قضية القرآن الكريم الاستاذ ا.
أنور أبو سحلى وزير العدل فهو الى جانب وظيفته مسئولاً عن ا
وتطبيقها أديب يدرك قيمة الكلمة وأهميّتها وهو من المعروفين بإيمانهم
ذلك الإيمان القائم على الثقافة والدراسة والفهم.. فلم يكن عجيباً أن
هذا الحديث الذي أدلى به للدكتور عبد العزيز شرف: ث. أ».

من الأحاديث التي رويت عن النبي ﷺ ـ حديث يلخّص ،
الاجتماع في كلمات معدودة وهو قوله عليه الصلاة والسلام «كما تكونو
عليكم»..

ومن آيات الصدق في هذا الحديث الحكيم، كما يقول العقاد ر-
أنه يصدق على كل حالة اجتماعية تتمثل فيها صفات الأمم، ولا يقف
مشابهة الحكام للمحكومين أو عند مشابهة المعلمين للمتعلمين..

هذا الحديث الشريف، يلح علينا الآن ونحن نفكر في أمر الأزه
سيما بعد الحملة التي أثارها الأستاذ نروت أباظة على هذه الصفحة
تساءل البعض: ما شأن صفحة الأدب بالأزهر وقضاياه: وهذا التساؤل
نذكر من جديد أن الأزهر قد أقيم لغرضين أولهما أن يحفظ ما عساه أن
من آداب اللغة العربية لأنه بغير اللغة لا يمكن أن يفهم أحد القرآن
وثانيهما: أن يهدي الناس الى أقوم السبل في أمر دينهم، فهل هو قائ
الرسالة كما قام بها في تاريخه المجيد؟

(*) الاهرام ـ ١٩٧٩/١٢/٧

نظام رائد وقلة ممتازة

طرحت هذا السؤال على العالم المحقّق المستشار أنور أبو سحلى وزير العدل، فقال بداءة:

ـ «الأزهر» ـ وهو أقدم جامعة في العالم ـ كانت بصماته على العلماء في كل أرجاء العالم الاسلامي وغير الاسلامي.. لأن الفئة الممتازة من علماء الأزهر وممن درسوا فيه وانتشروا في أرجاء العالم كانت لهم آثارهم ومؤلفاتهم التي غزت الفكر في الشرق والغرب.. ولم يصل الى مصاف الأزهر في العالم كلّه معهد أو جامعة، حتى لقد أصبح الأزهر هو القبلة الثانية للمسلمين، والقبلة الأولى لطلاب العلم في العالم كلّه.

«ونظام التدريس في الأزهر بالاسلوب الذي بدا فيه منذ ألف عام كان نظاماً رائداً رائعاً.. لأن الأزهر كان يفتح أبوابه لكل طلاب العلم دون قيد أو شرط.. وهذا هو العالم بمفهومه الحقيقي كما أراد له عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين أن يكون كالماء والهواء.. فلا يصح أن نضع قيوداً أو شروطاً لطلاب الماء والهواء».

ويستأنف وزير العدل حديثه بهدف احقاق الحق للأزهر:

تطوير الأزهر: صدمة للعلم

ـ «إنّ بعض الآراء تنادي اليوم بعد ألف سنة من انشاء الأزهر بنفس نظام الأزهر في الجامعات الحديثة، وبأنْ تفتح هذه الجامعات والنظرية منها خاصة لطلاب العلم دون قيد أو شرط ذلك أن الأزهر سجل بنظامه الرائد آثاره الرائعة في كل أنحاء المعمورة، وفى كافة فروع العلم، ومنه خرج الفقهاء والفلاسفة»..

ولهذا فعندما صدر قانون تطوير الأزهر في أوائل الستينات كان صدمة

لكل من عرف قدر الأزهر وقيمته العلمية، لأن الأزهر كان يجب أن يبقى كما هو، وأن يظل كما هو كعبة للعلم يقصدها من يريد من كافة أنحاء العالم دون تقيد بشرط المجموع أو شرط الحصول على مؤهل معين.

«وكم من طلاب علم لم يحملوا مؤهلاً دراسياً للالتحاق بالجامعات قصدوا الأزهر ونبغوا فيه وخرجوا منه يملأون آفاق الدنيا علماً ونوراً»..

«لقد تخرج سعد زغلول من الأزهر وتخرّج غيره من العظماء والفقهاء والسياسيين من الأزهر ونبغوا فيما عملوا فيه»..

«وليس أدلّ على أن نهل العلم لا يحتاج الى مؤهل خاص من أن المرحوم المفكر الكبير عباس محمود العقد لم يحصل على مؤهل عال أو متوسط من المدارس أو الجامعات».

الأزهر والعودة الى نظامه

ويطالب وزير العدل بأن يعود الأزهر الى نظامه الأصيل. يقول:

«وحينما أطالب بذلك فإنما أطالب بواقع لمسناه على مدى ألف سنة..

ولهذا كما قلت كان «تطوير» الأزهر أمراً أريد به شل حركة الأزهر، ووضع القيود في قدميه ويديه، حتى لا ينطلق الأزهر كما كان اشعاعاً ونوراً للعالم كلّه..

«ونتائج هذا ظاهرة للعيان.. فأين أبناء الأزهر الذين كانوا يملأون العالم الاسلامي والأفريقي والأسيوي بل أوروبا بعلمهم وفقههم ونورهم.. وكلّهم من أبناء الأزهر؟»

«واني لأنادي اليوم بأن يعود الأزهر كما كان حراً طليقاً من كل قيد، مفتوحاً لكل طلاب العلم من كافة أنحاء العالم.. ينهلون من نبعه ما يستطيعون أن.. يفاخروا به الدنيا وأن يملأوا به العالم علماً ونوراً».

لغة أهل الجنة

«ويضيف الأستاذ أنور أبو سحلي في تأكيد دعوته الى عودة الأزهر الى نظامه الأصيل:

«ونحن اليوم أحوج ما نكون الى علماء الأزهر بعد أن استقلّت دول أفريقيا وآسيا، وأغلب شعوبها من المسلمين الذي يتشوقون الى معرفة دينهم وتفهّم مبادئه السامية والى تعلّم لغة القرآن.. لقد قابلت في إحدى رحلاتي في الخارج شاباً مسلماً من هذه الدول يعرف القليل من اللغة العربية، وجدته يتلو القرآن بصعوبة.. وعندما تحدثت معه.. وعلم أنني مصري أتحدّث العربية قال:

«إننا نحسدكم يا من تتحدثون بالعربية.. لأنكم تتحدثون بلغة الجنة.. لغة القرآن الكريم.

الأزهر وأبناء الدول الاسلامية

«لهذا فإنني أنادي بأن يفتح الأزهر أبوابه على مصراعيها لأبناء هذه الدول الاسلامية وللمسلمين من كافة أنحاء العالم.. ليتعلّموا في كعبة العلم ويعرفوا قرآنهم ودينهم ليعودوا الى أهلهم محمّلين بذلك النور السماوي فينشروه بين وديان بلادهم وبين أبناء الاسلام في كافة أرجاء العالم..

وليستطيعوا أن يقرأوا القرآن الكريم بلغته الأصلية.. وليستطيعوا التحدّث بلغة الجنة.

وهذه هي رسالة الأزهر السامية التي لا تدانيها رسالة أخرى في عالمنا اليوم.

«إنَّ نشر القرآن ومبادئه السامية واخلاقياته العالية هي أكرم رسالة يمكن أن تكون في هذا الوجود؟

«إننا بنشر القرآن ولغة القرآن ومبادئ القرآن انما تنشر الفضيلة والسمو والعلو في هذا العالم»..

«وأظن أن هذه أعظم رسالة لأي مصلح في هذا العالم..»».

الأزهر: هل يعود كما كان

وعلى هذه الحيثيات، يطالب وزير العدل بأن يعود الأزهر كما كان.. فهو يقول في وضوح..

«قبلة مشرقة عالية تفتح ذراعيها لأبناء العالم كلّه من المسلمين وغير المسلمين.. ممن يريدون أن ينهلوا من علوم القرآن الكريم ومبادئه السامية..» ويا حبّذا لو جند لتدريس العلوم القرآنية في هذا المعهد العالي السامي نخبة من علماء الاسلام في العالم كلّه.. يجيدون اللغات التي يتحدّث بها أبناء الاسلام وغير أبناء الاسلام في العالم.. لينشروا القرآن الكريم ويعلّموه لطالبي العلم بكافة اللغات..

العلم ليس له سن تقاعد.. فلماذا لا نستعين بالعلماء الذين أحيلوا للمعاش؟

«وحينما يستجاب لعودة الأزهر الى أصوله فإنني أرى الافادة من العلماء الذين هم على قيد الحياة.. والذين حرم منهم الأزهر بسبب الاحالة على المعاش.. لأن العلم ليس له سن تقاعد.. وهؤلاء من أعلم الناس برسالة الأزهر.. فلا ينبغي أن نحرم منهم في الجهاد الأكبر»..

«الجهاد الأكبر في عالمنا اليوم.. جهاد نشر الفضيلة.. نشر أسمى المبادئ في الدنيا كلّها»..

«ذلك هو رأيي في رسالة الأزهر.. وجامعة.. ومبادئ الأزهر».

مصر العروبة: مصر الأزهر

وبعد أن يبسط الوزير رأيه في رسالة الأزهر وجامعته، يجيب على السؤال الذي طرح في بداية هذا الحديث، لماذا نهتم بالأزهر وقضاياه، يقول الاستاذ أنور أبو سحلي:

«مصر هي: مصر العروبة.. هي مصر القرآن الكريم.. هي مصر الأزهر.. هي مصر الفقه الاسلامي..».

«وبغير مصر.. لا عروبة ولا علوم اسلامية.. صحيح أن القرآن الكريم باق ومحفوظ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون**﴾[1].

«ولكن مصر هي: الفقه الاسلامي.. هي مصدر الاشعاع الاسلامي في العالم كلّه ما دام فيها الأزهر بنظامه القديم لا الأزهر بنظامه «المتطور» الممسوخ».

وهكذا يختتم وزير العدل الحديث حول «قضية» الأزهر على أساس من الأدلة والبراهين، ويجيء نداؤه لعودة الأزهر الى نظامه الأصيل مبنياً على أدلة منطقية..

ترى: هل نستجيب للنداء..

---

(١) سورة الحجر آية ٩

اهداء

■ أول دراسة باللغة العربية عن «جارودي»

الانسانية الحائرة بين الشك واليقين(*)

الإنسانية حائرة ـ ولا ريب ـ اليوم.. بين أزمات الحضارة وتناقضات الفكر، ومشكلات الحياة، وبين دعوات السكينة واليقين والإيمان والسعادة الروحية.. الإنسانية، ومعها الحياة نفسها، والحضارة كلها، وأجيال الشباب، وجماعات المفكرين وجماهير الناس حائرة بين قيم الأرض ومثل السماء.

وليست هذه الحيرة بالأمر المجهول، ولا بالشيء الذي لا يصدق ولا بالغرض الذي يفرضه الكتاب.. المثل موجود، والحقيقة ها هنا.. رجاء جارودي هذا المفكر الفرنسي الأوروبي الكبير صاحب الفكر الماركسي الحاد، والعضو في المكتب السياسي للحزب الشيوعي الفرنسي، الذي أخذ منذ عام ١٩٥٦ يناقش الماركسية بينه وبين نفسه أولاً، الماركسية الجامدة التي تحجّرت في قوالب بعينها منعتها من الاستجابة لروح العصر، فأجرى حواراً فكرياً معها، ثم وجدناه ينقدها على نحو ما نراه في كتابيه «نظرات حول الانسان» و«ماركسية القرن العشرين.

ثم صار ينقضها نقضاً تاماً، بعد ذلك. وهذه الرحلة الطويلة من حيرة الشك الى سكينة اليقين تمثل رحلة العديدين من المفكرين والعلماء، والكثيرين من الجماهير وبخاصة الشباب، وهي صورة واضحة للحيرة الكاملة، التي تسود الانسانية في عالمنا المضطرب اليوم.

(*) جريدة الاهرام في ١٩٨٤/٦/١٠

وفي كتاب جارودي «حوار الحضارات» وكتابه الآخر «نداء الى الاحياء» وكتابه الأخير «الاسلام دين المستقبل» يؤكد جارودي أن الحيرة التامة التي تعيش فيها الانسانية اليوم وهي حيرة التناقضات الكبيرة بين الفلسفات والنظريات والأفكار والمبادئ السائدة قد فشلت في علاجها كل المذاهب الاجتماعية والفلسفية والسياسية المفرّره.

عن فكر جارودي ومسيرته الطويلة الى الإيمان حتى اعتنق الاسلام صدر أخيراً كتاب قيم للاستاذة أمينة الصاوي والاستاذ الدكتور عبد العزيز شرف سيكون له صدى كبير في حياة كل انسان معاصر.

في هذا الكتاب الجديد نسمع «جارودي» يصيح بملء فمه ليقول للناس: إن الاسلام هو الدين الحق الذي أنزل للناس كافة في كل مكان وزمان، وإن عقيدة التوحيد هي العقيدة المثلى، التي لا يصل إليها الباطل من بين يديها ولا من خلفها. وإن مستقبل العالم يكمن في الاسلام؛ فالحلول الاسلامية لكل مشكلات الحياة هي وحدها القادرة على إنقاذ المجتمع الانساني من كل المشكلات العويصة التي تأخذ بخناقه، ومن كل الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسيّة ألتي تتقاذفه بضراوة، وأن المنهج الاسلامي هو المنهج القويم الذي يتحتم على الانسانية أن تنهجه وأن تسير في هديه لتحقق أملها في الحياة الكريمة الآمنة القائمة على العدل والسلام.

ويؤكد جارودي بعد بحوث طويلة مستفيضة في رحلته الى الله، أن الاسلام وحده هو القادر على انقاذ البشرية في حاضرها ومستقبلها مما يحيق بها من أخطار. وأنه هو وحده الذي يقدّم للانسانية المنهج القويم في الابداع المادي والروحي.

ثم يؤكد في نهاية الأمر للانسانية جميعاً أن رحلته عبر الطريق الى الإيمان هي خطوة في الطريق الطويل للانسانية نحو الهداية، وأن الناس جميعاً عائدون الى الله، وإلى المنهج الاسلامي القويم في النظر، والفعل، في النظرية والتطبيق، على السواء.

يقول جارودي: إنّ الاسلام هو الحل الوحيد لتناقضات الحضارة المعاصرة ولتناقضات حضارة المستقبل كما كان في الأمس صانع الحضارة الانسانية.

ومن خلال فكر «رجاء جارودي» ومسيرته الطويلة نحو الايمان يرى أن الغرب قد أخفق تماماً، بكل أفكاره وايديولوجيته وأن الانسان الغربي قد فقد كل علاقة له مع الله والطبيعة والمجتمع، ويؤكد جارودي في كتابه «الاسلام دين المستقبل» أن الانسان الغربي لم يستطع أن يعيش سعيداً من قبل ولا من بعد، وأن روح الاثرة والفردية الاجتماعية تسيطر عليه، وأن الاسلام بربطه كل شيء بالله، أي نظرته الى كل ملكية أو سلطة أو معرفة أو محاكمة عقلية، قادر على أن يكون منبع تحرّر ونضال ضد كل أشكال التسلط والعبودية المفروضة على الانسان والانسانية بحجج واهية مزيّفة، تبعدهما عن الاصالة والبناء الخلاق.

ويؤكد جارودي أن وعي الغرب بكونه مديناً للحضارات الأخرى هو الشرط الوحيد لانقاذه من الانقراض وأن الاسلام هو الحل الوحيد لأنقاذ البشرية التي تقف الآن على المنحنى الخطر في مواجهة المشكلة الجوهرية التي تفرض نفسها على كل فرد منا في نهايات القرن العشرين، ويتوقّف على حلّها احتضار العالم أو بعثه من جديد.

وفي كتاب جارودي «ماركسية القرن العشرين» يؤكد هذا المفكر الكبير خرافة النظريات الماركسية في كل شيء وكل جانب من جوانب الحياة.

ولو أخذنا نستعرض آراء جارودي في الاسلام من كل الجوانب: الانسان والمجتمع والمرأة والعمل والاقتصاد والحياة.. لأعيانا ذلك.

د. محمد عبد المنعم خفاجي

رجاء جارودي وحضارة الاسلام(*)

عندما قال عبارته المشهورة: لقد أفلست الحضارة الغربية، والعالم مهدد بالانهيار، ولا رجاء إلا في حضارة الاسلام، اهتز الملحدون كما لم يهتزوا من قبل، وأصيب الماركسيون بما يشبه المسرى الكهربائي في فكرهم القائم على إلقاء الأديان جميعها خارج حدود مذهبهم، بل إن فكرهم يتنكر لكل عقائد وتعاليم السماء، لا فرق بين دين ودين، أو بين نبي ونبي.. ولذلك فإن صدور هذا الكتاب في هذه الفترة يعد توفيقاً من الله للكاتبة والمفكّرة الاسلامية، الاستاذة أمينة الصاوي التي جسّدت التاريخ الاسلامي في مسلسلاتها الدينية، وأشعّت بعقلها وقلبها ووجدانها وثقافتها في سماء الفكر الاسلامي، حتى لم يعد بيت مسلم إلا وللكاتبة الاسلامية أمينة الصاوي أثر في نفوس أهله.. ولعلّها وقد شاركت في تأليف هذا الكتاب القيم زميلاً عزيزاً هو الدكتور عبد العزيز شرف، إذ أسهم معها في حمل هذا المشعل المضيء، فإننا ننتظر من استاذ النقد الأدبي في مصر أن يخطو ـ منفرداً أو مشتركاً ـ خطوات أخرى على طريق الفكر الاسلامي، حتى ننتفع به كاتباً اسلامياً، كما انتفعنا به كاتباً وناقداً أدبياً.

وهذا الكتاب لا يمثّل مرحلة من الشك الى اليقين ـ كما يقول المؤلفان الفاضلان ـ وانما يمثّل حقيقة دامغة لكل من زعموا أنّ الاسلام انتشر بالسيف، أو ساد بالقوة، أو انتظم الشعوب بالعنف، فهذا الرجل الذي كان من أكبر كتاب النظرية الماركسية، دخل الاسلام عن عقيدة واقتناع وثقة.. لم يرغمه

(*) جريدة الاخبار في ١٩٨٤/٥/١٠

أحد، ولم تقهره قوة.. وانما وجد في الاسلام المنقذ للبشرية من الـدمار الى الحياة، ومن الظلمات الى النور، ومن الهاوية الى أعلى قمم الانسانية. مدنية وحضارة وتقدّماً وعمراناً.

والمؤلفان بوصفهما من صفوة حملة القلم، استطاعا أن يقدما كتاباً متين البنيان، راسخ الدعائم، فقد عرضـا فيه كيف بـدأ رجاء جـارودي يتلمس الـطريق الى النور والى المستقبـل المضيء، بعد أن غـربت شمس الحضارة الأوربية، وأفلست أسواقها، فوجد عقله يدلف بخطوات فكرية تأمليـة نحو الاسلام.. وكان هذا بالطبع تفكيراً غريباً على رجل كان أو عاش لا يؤمن بالروحانيات، ولا بعقائد السماء، وإنما وقف عقله عند وثنية المادية.. فماذا فتح عقله لينظر الى أفق جديد ينفض فيه تراب الوثنية المادية عن عقله، ويصقله بعقيدة جديدة مصدرها السماء، لقد سلط المؤلفان الضوء على كل خطوة في هذه الرحلة المباركة.. وقد اقتضاهما المنهج العلمي لدراسة هـذه الرحلة أن يقسما الكتاب الى سبعة أبواب.

تناول المؤلفان في الباب الأول: الفكر الاوروبى وعبقرية الاسلام، حيث استعرضا اتجاهات مفكرى العالم نحـو الدين الحنيف، وآرائهم المختلفـة فيه وحوله.. وانتهيا الى دراسة الـرحلة الجاروديـة من الشك الى اليقـين.. وقد استعرضا أهم كتبه التي تمثل عـلامات مميـزة على طـريق الرحلة من القلق والضباب الى سكينة النفس ونور الايمان.

وفي الباب الثاني تحدّث المؤلفان عن الماركسية ونقد جارودي لها. أما الباب الثالث فيكشف عن حقيقة الشيوعية بوثائق لا تتأتى الا عن طريق فكر مستنير كفكر جارودي يؤيـد موقف الاسـلام من الشيوعيـة والمذاهب الهدامة.. وفي الباب الرابع يتناول المؤلفان فكر جارودي في مجال الكشف عن أباطيل الصهيونية وزيفها، كما كشف ضلال الشيوعية وسمومها.. أما الباب الخامس فهو مخصص لدراسة الفكر الاسلامى عنـد جارودي، والـذي أدى

اقتناعه به شكلاً ومحتوى الى أن يوكّد ان الاسلام هو الحل الوحيد لمشكلات البشرية، وانفاذ الانسانية من الهاوية.

ويختتم المؤلفان كتابهما هذا ببابين مستفيضين عن الاسلام ومستقبل الحضارة من خلال ما تكشف عنه الرؤيا الفكرية للمفكر الكبير جارودي، الذي يؤكد لنا أن الاسلام فيه مستقبل الحضارة الجديدة، ذلك أن الحضارة تنبع من الاسلام: عقيدة ومنهج حياة.. وأكد جارودي أن مصير المعمورة مرهون بالاسلام..

* * *

هذه لمحات خاطفة على كتاب يعد كتاب الموسم فكراً واداء فهو ليس سيرة حياة رجل اعتنق الاسلام، وخلع رداء المادية، ليلبس ثوباً من النور والطهر والشفافية، وإنما هو دليل هاد لمن يريد أن يفتح عقله وقلبه، ليدرس الدين الحنيف، دراسة واعية متأنية.. فالعقائد لا تفرض بالقوة ولا بالارهاب، وإنما تبزغ في القلب اذا ألقى اليه العقل باشارة ضوئية بعد تأمل وتدبر وتفكير وروية وتأن وأولاً وأخيراً بعد أن تفتح له السماء أبواب الايمان.

عبد المنعم قنديل

رجاء جارودي وحضارة الاسلام(*)

الاسلام هو الحل الوحيد لانقاذ البشرية.

هذه الجملة هي خلاصة ما توصّل إليه المفكّر الفرنسي العالمي روجيه جارودي أو رجاء جارودي بعد أن أعلن اسلامه.

وهذه الجملة أيضاً هي المحور الذي يدور حوله كتاب «رجاء جارودي.. وحضارة الاسلام» للدكتور عبد العزيز شرف وأمينة الصاوي.. والمؤلفان يحاولان في هذا الكتاب تتبع الرحلة الجارودية من بدايتها في دياجير الظلام، الى منتهاها في عالم النور، في رحاب الاسلام.

منذ سنوات أعلن جارودي أنه لم يعد يستطيع التزام الصمت، بعد أن لاحظ أزمة الحركة الشيوعية، ولم يلبث ان أعلن «الحقيقة كلّها» في كتاب يحمل هذا العنوان، وحاول فيه أن يواجه ما اسماه بالمشكلة الجوهرية التي تفرض نفسها على كلّ فرد منّا في نهاية القرن العشرين، وان إدراك هذه المشكلة وشعور الشخص بأن المرء مسئول عن حلّها يعتبران شيئاً واحداً، ويتوقّف على ذلك احتضار عالم أو بعثه من جديد.

هذه المشكلة الجوهرية في فكر جارودي هي التي قادته الى الاسلام.. ذلك أن جارودي قد نبّه الى الطريق المسدود الذي تسير فيه الشيوعية، وكان في مسيرته الفكرية حريصاً على دراسة وسائل الخروج من هذا الطريق

(*) جريدة اخبار اليوم في ١٩٨٤/٦/١٦

المسدود.. فإنّ جارودي كمفكّر كان لا يستطيع أن يؤمن بشيء إلاّ وعيونه مفتوحة.

وبهذه العيون المفتوحة استقرأ روح عصره، ومن استقرائه ذهب الى أن التغييرات الكبرى المعاصرة يساعد إدراكها على اجتناب عدد من الأخطاء في ميدان الثقافة، ومنها خطأ الاعتقاد بأن الظروف الاقتصادية والاجتماعية للشيوعية يؤدي بالضرورة الى قيام بنيتها الفوقية، وأن الإنسان سيتغير بصورة آلية ـ ومنها خطأ الاعتقاد بأن الثقافة ليست أكثر من وسيلة لتحقق الأهداف القصيرة الأجل في خطة اقتصادية أو مشروع سياسي.

ويرى جارودي في انحسار الاستعمار عن قارتي آسيا وأفريقيا مغزى تاريخياً عميقا. وهو ان الغرب لم يعد وحده مركز المبادرة التاريخية، كما لم يعد وحده مبتدع القيم والحضارة والثقافة.. وهو لذلك يؤكد بعد اسلامه ان «وعي الغرب بكونه مديناً للحضارات الأخرى هو الشرط الوحيد لانقاذه من الانقراض».

ويقول: «إنّ الاسلام هو الحل الوحيد لانقاذ البشرية» التى تقف الآن على المنحنى الخطر في مواجهة المشكلة الجوهرية التى تفرض نفسها على كل فرد منا في نهاية القرن العشرين، ويتوقّف على حلّها احتضار العالم أو بعثه من جديد.

وينقسم كتاب «رجاء جارودي.. وحضارة الاسلام» الى سبعة أبواب.. يتناول الباب الأول الفكر الأوربى وعبقرية الاسلام، ويستعرض اتجاهات مفكري العالم نحو الدين الحنيف، وآراءهم المختلفة به وحوله ورحلة جارودي من الشك الى اليقين، وأهم كتبه التي تمثل علامات مميزة على طريق الرحله من القلق والضباب الى حقيقة النفس ونور الايمان.

وخصص المؤلفان الباب الثاني لدراسة الماركسية ونقد جارودي لها، ثم نقضه إياها. وفي الباب الثالث يصل الى «الحقيقة كلّها» وفي الباب الرابع

ننتقل مع جارودي الى كشف جديد للقناع المزيف للصهيونية وأضاليلها استمراراً لمنهجه النقدي المستنير في كشف الحقيقة كلها. أما الباب الخامس فهو لدراسة الفكر الاسلامي لدى جارودي، والذي أدّى اقتناعه به شكلاً ومحتوى الى ان يؤكد ان «الاسلام هو الحل الوحيد». ثم يختتم الكتاب ببابين مستفيضين عن الاسلام ومستقبل الحضارة من خلال ما تكشف عنه الرؤيا الفكرية لجارودي، الذي يؤكد ان الاسلام فيه مستقبل الحضارة الجديدة، وذلك ان الحضارة تتبع مع الاسلام عقيدة ومنهج حياة.

ولذلك يشير جارودي باعجاب الى الحديث النبوي الشريف «رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر».. ويعقب عليه قائلاً: «يعد هذا الحديث النبوي الشريف درساً هاماً لكثير من الثوريين الذين يحاولون تغيير كل شيء ما عدا أنفسهم».

وهذه الحضارة الجديدة هي حضارة الاسلام التي تنبع - كما يذهب الى ذلك جارودي - من القرآن الكريم والسنة الشريفة «فهذا الدين ينبذ الازدواجية المزيفة في شئون العقيدة أو السياسة أو المجد أو الدولة، ولا شك في مقدرة الاسلام على السيطرة على الأزمة الحضارية المعاصرة.. حيث مصير المعمورة مرهون بالإسلام».

محمد الزرقاني

أحدث كتاب بالعربية عن «جارودي»

يترجم الى الفرنسية(*)

(رجاء جارودي وحضارة الاسلام) أحدث كتاب صدر هذا الأسبوع عن المفكر العالمي جارودي بقلم أمينة الصاوي والدكتور عبد العزيز شرف وكتب مقدمته فضيلة الشيخ أحمد حسن الباقوري، رئيس ومدير جمعية ومعهد الدراسات الاسلامية بالقاهرة بقوله أن هذا الكتاب جليل القدر عن جارودي في حياته الحافلة بجلائل الأعمال التي لا ينهض بها إلاَّ أصحاب العزائم، والأحرار. وتقول امينة الصاوي:

● هذا الكتاب نهديه الى الحيارى الظامئين السائرين في بيداء الحياة وهجيرها كطريق أو وسيلة من وسائل الوصول إلى اليقين والى مرفأ السلام والأمن والطمأنينة والدين الحق.

ولقد بدأ تفكيري في تأليف هذا الكتاب عن جارودي عندما التقيت به وقت ان زار مصر في الاحتفالات بعيد الأزهر ووقفت أسأله عن رأيه في نظرة الاسلام للمرأة. فقال لي ان الاسلام جاء بتشريع شامل كامل يحدد مكافأة المرأة وكيف ان الاسلام كرّمها وأكرمها وحفظ لها حقّها كابنة وزوجة وأم. وقد لفتت نظري آراء جارودي هذه وجعلتني أحس بصدقه وعلمه ففكرت في تأليف هذا الكتاب. وعندما علم الدكتور عبد العزيز شرف بهذه النيّة طلب مني أن يشترك معي في تأليفه. وقد وفقنا الله وكان هذا الكتاب.

(*) جريدة الاخبار في ١٩٨٤/٥/٩

في نفس الوقت أرسلت نسخة من هذا الكتاب الى المفكر العالمى رجاء جارودي وستترجم الى الفرنسية. وقد علم بانجاز هذا الكتاب في أثناء زيارته للعراق للمشاركة في مهرجان الأمة الشعري ورحب به وطلب ارسال نسخة إليه.

ويقول الدكتور عبد العزيز شرف:

● هذا الكتاب الذي شرفت بالمشاركة في تأليفه مع الزميلة أمينة الصاوي يمكن أن يندرج ليس تحت عنوان التراجم والسير، بالمعنى المألوف للشخصيات وإنما بمعنى الترجمة بفكر شخصية. وهو منهج ينحو نحو المنهج العلمي.

وعن هذا الكتاب يقول الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي:

● هذا كتاب هام من كتب الدعوة الاسلامية وهو يعكس فكر جارودي المضيء الذي اكتشف في الاسلام ثروة هائلة.. وهو كتاب يجب أن نقرأه بعناية وتأمل لأنه ذو أثر كبير في خدمة الاسلام.

جارودي وحضارة الاسلام(*)

الانسان.. أولاً وأخيراً.

الانسان هو الغاية كلها من المذاهب والنظريات والمبادئ .. سعادته، وأمنه، وطمأنينته، ورفاهيته. هي كل ما يريد دعاة الاصلاح، ورواد الفكر، الوصول إليه.

وكل ما يبدد أمل الإنسان وحلمه بحياة أفضل، هو صرخة مدوّية ـ ولا ريب ـ في وجه العصر جاءت أخيراً في هذا الكتاب «رجاء جارودي وحضارة الاسلام».

تأليف الكاتبة أمينة الصاوي ود. عبد العزيز شرف.

إنّ المشكلات التي تضعها أمام الإنسان قدراته الكبيرة، التي زودته بها العلوم والتكنولوجيا لتجعل من الحتم البحث في العودة الى النبع أمراً ضرورياً.

هذا النبع، لم يجده مثل «رجاء جارودي» ـ بعد رحلته الطويلة المضنية ـ إلاّ في الاسلام، الدين الذي يقف من مشكلات الحضارة موقفاً إيجابياً، في الوقت الذي يحذر الانسان من انخداعه بمتع الحياة، ومن أن تصبح له فتنة، ويصبح مفتوناً بها، يركز نظرته في الحياة إليها وحدها، ويقصر نشاطه وسعيه على تحصيلها، تاركاً الهدف الأساسي في الحياة كلها، والوجود كله، وهو الايمان بالله، سبحانه وتعالى، مالك الملك، ذي الجلال والاكرام.

(*) الاهرام في ١٩٨٤/٥/١٥.

وخلال الرحلة الطويلة، والمسيرة الدائبة التي سار فيها رجاء جارودي، هذا المفكر الفرنسي الغربي الكبير، من الماركسية، الى الشك في الماركسية، الى نقدها، الى نقضها الى الايمان بالاسلام، واليقين بأنه دين الحضارة الانسانية، اليوم وغداً وبعد غد، الى السكينة الشاملة بأنه الدين الأمثل القادر على علاج أزمات الانسان والحياة والحضارة المعاصرة، والقادر وحده على تجديد الحياة، وبناء الانسان، وتحقيق آمال البشرية.

وإذا كان «رجاء جارودي» في رحلته الفكرية الطويلة الشاقة، عبر المذاهب الفلسفية والاجتماعية. كان يركز على مشكلة الإنسان. فإنّه عند شاطئ اليقين أدرك أنّ إنسان القرآن الكريم هو الهدف المنشود من وراء رحلته الفكرية.

هذا الفكر المتجدد لرجاء جارودي، هو الذي صدر عنه أحدث كتاب وأخطر كتاب في الوقت نفسه. وهو كتاب «رجاء جارودي وحضارة الاسلام للمؤلفين الدكتور عبد العزيز شرف، والاستاذة أمينة الصاوي.

وفي سلامة منهج، ووضوح أسلوب، وقوّة حجة يمضي المؤلفان الفاضلان في أبواب كتابهما السبعة: الفكر الأوربي وعبقرية الاسلام - الماركسية ونقد الماركسية - الحقيقة كلّها - أضاليل اليهودية - الاسلام هو الحل الوحيد - الاسلام ومستقبل الحضارة - من شك الى سكينة الايمان.. ثم تأتي الخاتمة: المحور هو الانسان.

والكتاب، ولا ريب، من أجلّ ما يمكن أن يقرأه كل الناس في يومنا الحاضر، وفي كل وقت، وفي كل زمان ومكان.

لقد صدر في وقته المناسب، ولسد حاجة الشباب الحائر بين الشك واليقين.

د. محمد عبد المنعم خفاجي
رئيس رابطة الأدب الحديث

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الاهداء	٥
ـ الاشكال الاتصالية في الدعوة الاسلامية	٧
ـ الاتصال الجمعي في الاعلام الاسلامي	٢٠
ـ الاعلام الاسلامي بين الاعلام الانساني والاعلام الدولي	٣٨
ـ الاسس الاعلامية للادب الاسلامي	٥٠
ـ الاعلام الاسلامي وهندسة العادات والتقاليد	٦٦
ـ الرسول ومنهج الدعوة	٧٧
ـ الاسوة الحسنة ووظائف الفن الروائي	٩٨
ـ الادب الاسلامي ومواكب النور	١٠٣
ـ توفيق الحكيم والادب الاسلامي	١٠٩
ـ محمود حسن اسماعيل والشعر الاسلامي	١١٣
ـ صلاة العيد.. والاعلام الاسلامي	١٢٦
ـ الخطابة وبلاغة الاتصال	١٢٩
ـ ﴿إن كيد الشيطان كان ضعيفا﴾	١٣٩
ـ الاعلام في القرآن الكريم	١٤٤
ـ توظيف التراث الاسلامي في الأدب	١٤٧
ـ الاعلام القرآني ورسالة الامة العربية	١٥٠
ـ عبد المنعم خلاف.. والعقل المؤمن	١٥٤

الموضوع　　　　الصفحة

الموضوع	الصفحة
الدولة الاسلامية على عهد الرسول	١٥٨
الاسلام والابداع الفني	١٦٠
الدعوة.. والدعاة.. اسباب التخلف ومنهج التطبيق	١٦٢
التفكير فريضة اسلامية	١٦٤
الشخصية الاسلامية	١٦٦
التفسير الاسلامي للتراجم الأدبية	١٧١
الشعراوي والادب الاسلامي	١٧٥
مواكب الحياة.. والشعر الاسلامي	١٧٨
مصطفى محمود.. بين ادب الرحلات وأدب الآخرة	١٨١
الشعر الاسلامي والنور الاعظم	١٨٤
قضية الازهر.. والوزير المسئول عن تطبيق الشريعة	١٨٨
أصداء	١٩٥
اول دراسة باللغة العربية عن جارودي	١٩٤
رجاء جارودي وحضارة الاسلام	١٩٧
رجاء جارودي وحضارة الاسلام	٢٠٠
احدث كتاب بالعربية عن جارودي	٢٠٣
جارودي وحضارة الاسلام	٢٠٥
الفهرس	٢٠٧

